علي الطنطاوي

صُوَر وخواطر

منشورات
مؤسسة دار السلام للطباعة والنشر
دمشق: هاتف ٢٣٦٢٧ - ص.ب ٨٠٠

علي الطنطاوي

صُوَر وخواطر

منشورات

مؤسسة دار السلام للطباعة والنشر
دمشق - سورية - هاتف ٢٣٦٢٧

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين . الرحمن الرحيم . مالك يوم الدين . اياك
نعبد واياك نستعين . اهدنا الصراط المستقيم . صراط الذين
انعمت عليهم . غير المغضوب عليهم . ولا الضالين . آمين

اللهم صل على محمد وعلى آل محمد . كما صليت على ابراهيم وعلى
آل ابراهيم . وبارك على محمد وعلى آل محمد . كما باركت
على ابراهيم وعلى آل ابراهيم . في العالمين انك حميد مجيد .

اللهم علمنا ما ينفعنا . وانفعنا بما علمتنا . وزدنا علما .

السعادة

نشرت سنة ١٩٤٧

كنت أقرأ في ترجمة (كانت) الفيلسوف الألماني الأشهر ، أنه كان لجاره ديك ، قد وضعه على السطح قبالة مكتبه ، فكلما عمد إلى شغله صاح الديـــك فأزعجه عن عمله ، وقطع عليه فكره . فلما ضاق به بعث خادمه ليشتريه ويذبحه ويطعمه من لحمه ، ودعا إلى ذلك صديقاً له ، وقعدا ينتظران الغداء ، ويحدثه عن هذا الديك ، وما كان يلقى منـــه من ازعاج ، وما وجد بعده من لذة وراحة ، ففكر في أمان ، واشتغل في هدوء ، فلم يقلقه صوته ، ولم يزعجه صياحه ...

... ودخل الخادم بالطعام وقال معتذراً ، ان الجار أبى أن يبيع ديكه ، فاشترى غيره من السوق ، فانتبه (كانت) فإذا الديك لا يزال يصيح !

* * *

فكرت في هذا الفيلسوف العظيم فرأيته قد شقي بهذا الديك لأنه كان يصيح ، وسعد به وهو لايزال يصيح ، ما تبدل الواقع ، ما تبدل إلا نفسه ، فنفسه هي التي أشقته لا الديك ، ونفسه هي التي أسعدته ، وقلت : ما دامت السعادة في أيدينا فلماذا نطلبها من غيرنا ؟ وما دامت قريبة منا فلماذا نبعدهـا عنا ، إذ نمشي إليها من غير طريقها ، ونلجها من غـير بابها ؟ إننا نريد أن نذبح (الديك) لنستريح من صوته ، ولو ذبحناه لوجدنا في مكانه مائة ديك ، لأن

الأرض مملوءة بالديكة ، فلماذا لا نرفع الديكة من رؤوسنا إذا لم يمكن أن نرفعها من الأرض ؟ لماذا لا نسدّ آذاننا عنها إذا لم نقدر أن نسدّ أفواهها عنا ؟ لماذا لا نجعل أهواءنا وفق ما في الوجود إذا لم نستطع أن نجعل كل ما في الوجود وفق أهوائنا ؟

أنام في داري فلا توقظني عربات الشارع وهي تزلزل بسيرها الأرض ، ولا أصوات الباعة وهي ترعد في الجو ، ولا أبواق السيارات وهي تسمع الموتى ، وتوقظني همسة في جوّ الدار ضعيفة ، وخطوة على ثراها خفيفة ، فإن نمت في الفندق لم يوقظني شيء وراء باب غرفتي ، فإن كان نومي في القطار لم يزعجني عن منامي حديث جيراني إلى جنبي ، ولا صوت القطار وهو يهتز بي فكيف احتملت هنا ما لم أكن أحتمله هناك ؟ وآلمني هناك ما لم يؤلمني هنا ؟

ذلك لأن الحس كالنور ، إن أطلقته أضاء لك ما حولك فرأيت ما تحب وما تكره ، وإن حجبته حجب الأشياء عنك ، فأنت لا تسمع أصوات الشارع مع أنها أشد وأقوى ، وتسمع همس الدار وهو أضعف وأخفت ، لأنك وجهت إلى هذا حسّك ، وأدخلته نفسك فسمعته على خفوته كما ترى في الضياء صغائر الأشياء ، وأغفلت ذلك وأخرجته من نفسك ، فلم تسمعه على شدته ، وخفي عنك كما تختفي في الظلام عظائم الموجودات . فلماذا لا تصرف حسك عن كل مكروه ؟ إنه ليس كل ألم يدخل قلبك ، ولكن ما أدخلته أنت برضاك ، وقبلته باختيارك ، كما يدخل الملك العدوّ قلعته بثغرة يتركها في سورها . فلماذا لا نقوي نفوسنا حتى نتخذ منها سوراً دون الآلام؟

إني أسمعكم تهامسون ، تقولون : « فلسفة وأوهام » . نعم ، إنها فلسفة ، ولكن ليست كل فلسفة هذياناً . وإنها أوهام ، ولكن الحياة كلها أوهام تزيد وتنقص ، ونسعد بها ونشقى ، أو شيء كالأوهام :

يحمل الرجلان المتكافئان في القوة الحمل الواحد ، فيشكو هذا ويتذمر

فكأنه حمل جبلين ، ويضحك هذا ويغني فكأنه ما حمل شيئاً ، ويمرض الرجلان المتعادلان في الجسم المرض الواحد ، فيتشاءم هـذا ويخاف ، ويتصور الموت ، فيكون مع المرض على نفسه ، فلا ينجو منه ، ويصبر هذا ويتفاءل ويتخيل الصحة ، فتسرع إليه ويسرع إليها . ويحكم على الرجلين بالموت ، فيجزع هذا ويفزع فيموت ألف مرة من قبل الممات ، ويملك ذلك أمره ويحكم فكره ، فإذا لم تنجه من الموت حيلته ، لم يقتله قبل الموت وهمه

وهذا بسمارك رجل الدم والحديد ، وعبقري الحرب والسلم ، لم يكن يصبر عن التدخين دقيقة واحدة ، وكان لا يفتأ يوقد الدخينة من الدخينة نهاره كله فإذا افتقدها خلّ فكر ُه ، وساء تدبيره . وكان يوماً في حرب فنظر فلم يجد معه إلا دخينة واحدة ، لم يصل إلى غيرها ، فأخرها إلى اللحظة التي يشتد عليه فيها الضيق ويعظم الهم ، وبقي أسبوعاً كاملا من غير دخان ، صابراً عنه أملا بهذه الدخينة ، فلما رأى ذلك ترك التدخين ، وانصرف عنه ، لأنه أبى أن تكون سعادته مرهونة بلفافة تبغ واحدة ...

وهذا العلامة المؤرخ الشيخ الخضري ، أصيب في أواخر عمره بتوهم أن في أمعائه ثعابانا ، فراجع الأطباء ، وسأل الحكماء فكانوا يداورون الضحك حيـاء منه ، ويخبرونه أن الأمعاء قد يسكنها الدود ، ولكن لا تقطنها الثعابين . فلا يصدق .

حتى وصل إلى طبيب حاذق بالطب ، بصير بالنفسيات ، قد سمع بقصته فسقاه مسهلا وأدخله المستراح وكان قد وضع له فيه ثعباناً فلما رآه أشرق وجهه ، ونشط جسمه ، وأحس بالعافية ، ونزل يقفز قفزاً ، وكان قد صعد متحاملا على نفسه يلهث إعياء ، ويئن ويتوجع . ولم يمرض بعد ذلك أبداً .

ما شفي الشيخ لأن ثعباناً كان في بطنه ونزل ، بل لأن ثعبانـاً كان في رأسه وطار ، لأنه أيقظ قوى نفسه التي كانت نائمة ، وإن في النفس الانسانية

لقوى .ذا عرفتم كيف تفيدون منها صنعت لكم العجائب .

تنام هذه القوى فيوقظها الخوف أو الفرح ؛ ألم يتفق لواحد منكم أن أصبح مريضاً ، خامل الجسد ، واهي العزم لا يستطيع أن ينقلب من جنب إلى جنب ، فرأى حيّة تقبل عليه ، ولم يجد من يدفعها عنه ، فوثب من الفراش وثباً ، كأنه لم يكن المريض الواهن الجسم ؟ أو رجع إلى داره العصر وهو ساغب لاغب ، قد هده الجوع والتعب ، لا يبتغي الا كرسياً يطرح نفسه عليه ، فوجد برقية من حبيب له أنه قادم الساعة من سفره أو كتاباً مستعجلا من الوزير يدعوه إليه ليرقى درجته ، فأحسّ الخفة والشبع ، وعدا عدواً إلى المحطة ، أو إلى مقر الوزير ؟

هذه القوى هي منبع السعادة .تتفجر منها كما يتفجر الماء من الصخر نقياً عذباً ، فتتركونه وتستقون من الغدران الآسنة ، والسواقي العكرة .

ياأيها القراء : إنكم أغنياء ولكنكم لا تعرفون مقدار الثروة التي تملكونها ، فترمونها زهداً فيها ، واحتقاراً لها .

يصاب أحدكم بصداع أو مغص ، أو بوجع الضرس ، فيرى الدنيا سوداء مظلمة ، فلماذا لم يرها لما كان صحيحاً بيضاء مشرقة ؟ ويحمى عن الطعام ويمنع منه ، فيشتهي لقمة الخبز ومضغة اللحم ، ويحسد من يأكلها ، فلماذا لم يعرف لها لذتها قبل المرض ؟

لماذا لا تعرفون النعم إلا عند فقدها ؟

لماذا يبكي الشيخ على شبابه ، ولا يضحك الشاب لصباه ؟

لماذا لا نرى السعادة إلا إذا ابتعدت عنا ، ولا نبصرها إلا غارقة في ظلام الماضي ، أو متشحة بضباب المستقبل ؟

كل يبكي ماضيه ، ويحن إليه ، فلماذا لا نفكر في الحاضر قبل أن يصير ماضياً ؟

أيها السادة والسيدات :

إنا نحسب الغنى بالمال وحده ، وما المال وحده ؟ ألا تعرفون قصة الملك المريض الذي كان يؤتى بأطايب الطعام فلا يستطيع أن يأكل منها شيئاً ، لما نظر من شباكه إلى البستاني وهو يأكل الخبز الأسمر بالزيتون الأسود ، يدفع اللقمة في فمه ، ويتناول الثانية بيده ، ويأخذ الثالثة بعينه ، فتمنى أن يجد مثل هذه الشهية ويكون بستانياً ؟

فلماذا لا تقدرون ثمن الصحة ؟ أما للصحة ثمن ؟

من يرضى منكم أن ينزل عن بصره ويأخذ مائة ألف دولار ؟

من يبيع قطعة من أنفه بأموال الشربتلي ؟

أما تعرفون قصة الرجل الذي ضل في الصحراء ، وكاد يهلك جوعاً وعطشاً ، لما رأى غدير ماء وإلى جنبه كيس من الجلد ، فشرب من الغدير ، وفتح الكيس يأمل أن يجد فيه تمراً أو خبزاً يابساً ، فلما رأى ما فيه ، ارتد يأساً ، وسقط إعياء . لقد رآه مملوءاً بالذهب !

وذاك الذي لقي مثل ليلة القدر ، فزعموا ، أنه سأل ربه أن يحول كل ما مسته يده ذهباً ، ومس الحجر فصار ذهباً ، فكاد يجن من فرحته لاستجابة دعوته ، ومشى إلى بيته ما تسعه الدنيا ، وعمد إلى طعامه ليأكل فمس الطعام فصار ذهباً وبقي جائعاً ، وأقبلت بنته تواسيه ، فعانقها فصارت ذهباً ... فقعد يبكي يسأل ربه أن يعيد إليه بنته وسُفرته وأن يبعد عنه الذهب .

وروتشلد الذي دخل خزانة ماله الهائلة فانصفق عليه بابها فمات غريقاً في بحر من الذهب .

يا سادة : لماذا تطلبون الذهب وأنتم تملكون ذهباً كثيراً ؟ أليس البصر

من ذهب ، والصحة من ذهب ، والوقت من ذهب ؟ فلماذا لا نستفيد من أوقاتنا ؟ لماذا لا نعرف قيمة الحيـــاة ؟

* * *

كلفتني المجلة بهذا الفصل من شهر ، فما زلت أماطل به ، والوقت يمر ، أيامه ساعات ، وساعاته دقائق ، لا أشعر بها ولا أنتفع منها ، فكأنها صناديق ضخمة خالية ، حتى اذا دنا الموعد ولم يبق إلا يوم واحد ، أقبلت على الوقت أنتفع به ، فكانت الدقيقة ساعة ، والساعة يوماً ، فكأنهـــا العلب الصغيرة المترعة جوهراً وتبراً ، واستفدت من كل لحظة حتى لقد كتبت أكثره في محطة (باب اللوق)[1] وأنا أنتظر الترام في زحمة الناس وتدافع الركاب ، فكانت لحظة أبرك عليّ من تلك الأيام كلها ، وأسفت على أمثالها ، فلو أني فكرت كلما وقفت أنتظر الـــترام بشيء أكتبه ، وأنا أقف كل يوم أكثر من ساعة متفرقة أجزاؤها ، لربحت شيئاً كثيراً ، ولقد كان الصديق الجليل الأستاذ الشيخ بهجة البيطار يتردد من سنوات بين دمشق وبيروت ، يعلم في كلية المقاصد وثانوية البنات ، فكان يتسلى في القطار بالنظر في كتاب (قواعد التحديث) للامام القاسمي ، فكان من ذلك تصحيحاته وتعليقاته المطبوعة مع الكتاب ، والعلامة ابن عابدين كان يطالع دائماً ، حتى انه إذا قام إلى الوضوء أو قعد للأكل أمر من يتلو عليه شيئاً من العلم فألف (الحاشية) . والسرخسي أملى وهو محبوس في الجب ، كتابه المبسوط ، أجل كتب الفقه في الدنيـــا ، وأنا أعجب ممن يشكو ضيق الوقت ، وهل يضيّق الوقت إلا الغفلة أو الفوضى : أنظروا كم يقرأ الطالب ليلة الامتحان ، تروا أنه لو قرأ مثله ـ لا أقول كل ليلة ، بل كل أسبوع مرة لكان علامة الدنيا ، بل انظروا إلى هؤلاء الذين ألفوا مئـــات

(١) في مصر وقد كنت سنة ١٩٤٧ مقيما فيها .

الكتب كابن الجوزي والطبري والسيوطي والجاحظ - بل خذوا كتاباً واحداً كنهاية الأرب ، أو لسان العرب ، وانظروا ، هل يستطيع واحد منكم أن يصبر على قراءته كله ونسخه مرة واحدة بخطه ، فضلا عن تأليف مثله من عنده ؟

والذهن البشري ، أليس ثروة ؟ أماله ثمن ؟ فلماذا نشقى بالجنون ولا نسعد بالعقل ؟ لماذا لا نمكن للذهن أن يعمل ولو عمل لجاء بالمدهشات ؟

لا أذكر الفلاسفة والمخترعين . ولكن أذكركم بشيء قريب منكم ، سهل عليكم هو الحفظ ، إنكم تسمعون قصة البخاري لما امتحنوه بمائة حديث خلطوا امتونها وأسنادها ، فأعاد المائة بخطئها وصوابها . والشافعي لما كتب مجلس مالك بريقه على كفه وأعاده من حفظه . والمعري لما سمع أرمنيين يتحاسبان بلغتها ، فلما استشهداه أعاد كلامهما وهو لا يفهمه . والأصمعي وحماد الراوية وما كانا يحفظان من الأخبار والأشعار . وأحمد وابن معين وما كانا يرويان من الأحاديث والآثار . والمئات من أمثال هؤلاء ... فتعجبون ، ولو فكرتم في أنفسكم لرأيتم أنكم قادرون على مثل هذا ولكنكم لا تفعلون .

أنظروا كم يحفظ كل منكم من أسماء الناس والبلدان ، والصحف والمجلات ، والأغاني والنكات ، والمطاعم والمشارب ، وكم قصة يروي من قصص الناس والتاريخ ، وكم يشغل من ذهنه ما يمر به كل يوم من المقروءات والمرئيات والمسموعات فلو وضع مكان هذا الباطل علماً خالصاً ، لكان مثل هؤلاء الذين ذكرت .

أعرف نادلا كان في (قهوة فاروق) في الشام من عشرين سنة اسمه (حلمي) يدور على رواد القهوة وهم مئات يسألهم ماذا يطلبون : قهوة أو شاياً أو هاضوماً (كازوزة) أو ليموناً ، والقهوة حلوة ومرة ، والشاي أحمر وأخضر والكازوزة أنواع ، ثم يقوم وسط القهوة ويرد هذه الطلبات جهراً في نفس واحد ، ثم يجيء بها فما يخرم مما طلب أحد حرفاً !

فيا سادة ، إن الصحة والوقت والعقل ، كل ذلك مال ، وكل ذلك من أسباب السعادة لمن شاء أن يسعد .

* * *

وملاك الأمر كله ورأسه الايمان ، الايمان يشبع الجائع ، ويدفيء المقرور ، ويغني الفقير ، ويسلي المحزون ، ويقوي الضعيف ، ويسخي الشحيح . ويجعل للانسان من وحشته أنساً ، ومن خيبته نجحاً ...

... وأن تنظر إلى من هو دونك ، فإنك مهما قل مرتبك ، وساءت حالك ، أحسن من آلاف البشر ممن لا يقل عنك فهماً وعلماً ، وحسباً ونسباً ، وأنت أحسن عيشة من عبد الملك بن مروان ، وهارون الرشيد ، وقد كان ملكي الأرض . فقد كانت لعبد الملك ضرس منخورة تؤلمه حتى ما ينام منها الليل ، فلم يكن يجد طبيباً يحشوها ويلبسها الذهب ، وأنت لا تؤلمك ضرسك حتى يقوم في خدمتك الطبيب . وكان الرشيد يسهر على الشموع ، ويركب الدواب والمحامل وأنت تسهر على الكهرباء ، وتركب السيارة . وكانا يرحلان من دمشق إلى مكة في شهر وأنت ترحل في أيام أو ساعات .

فيا أيها القراء

إنكم سعداء ولكنكم لا تدرون . سعداء إن عرفتم قدر النعم التي تستمتعون بها ، سعداء إن عرفتم نفوسكم وانتفعتم بالمخزون من قواها ، سعداء إن سددتم آذانكم عن صوت الديك ولم تطلبوا المستحيل فتحاولوا سد فمه عنكم ، سعداء إن طلبتم السعادة من أنفسكم لا مما حولكم .

سعداء ان كانت افكاركم دائماً مع الله . فشكرتم كل نعمة ، وصبرتم على كل بليّة فكنتم رابحين في الحالين ، ناجحين في الحياتين والسلام عليكم ورحمة الله .

تسعة قروش

نشرت سنة ١٩٤٨

من أسبوعين ابتليت من أولادي ببلية ، هي أني كلما دخلت الدار تعلقوا بي طالبين تمثال العبد الاسود ذي الطربوش الاحمر . وأنا لا أدري ماهذا التمثال ، ولا أعرف من أين آتيهم به ، وهم يلحون لا يشغلهم عنه شيء من غالي اللعب ، ونادر الطرف ، حتى كرّهوا إليّ البقاء في البيت ...

وكنت مرة خارجاً إلى عملي مستعجلا ، فوجدت بياعاً يحمل هذه التماثيل ، ينادي « الواحد بقرش » ففرحت به فرح الضال في البادية يرى معالم الطريق ، واشتريت تمثالين وحملتها معتزاً بها كأني أحمل كنزاً ، وعدت بهما حتى اذا دنوت من الدار وجدت ولدين صغيرين قاعدين في ظل جدار ، فلما أبصرا التمثالين برقت عيناهما ، ودنا رأساهما في همس ، وارتفعت يداهما في اشارة خفية متهيبة ، وشخص بصراهما كما يفعل شابان غريران طلعت عليهما من الطريق فتاة فتانة . . وقاما فتبعاني وعيونهما معلقة بالتماثيل ، فلما رأيت ذلك منهما فكرت أن أدفعها اليهما . ولكني خشيت أن أرجع فلا أرى البائع ، وتخيلت رغبة أولادي فيها ، فلم تطب نفسي أن أحرمهم هذه المتعة ، ولم أستطع الاعراض عن الولدين الفقيرين فدعوتهما فدفعت اليهما قرشين ، وقلت لهما :

- هو ذا البائع ، فالحقاه فاشتريا مثلها . الواحد بقرش !

فأخذا القرشين وعهدي بمثلهما أن القرش الصاغ ثروة له ، لا يناله إلا بشق

النفس ، فما حفلا بها ولا هشا لها ، ولبثا شاخصين في التمثالين كأنهما لم يريا القرشين ، ولم يسمعا الكلام أو كأن عقلها فارقها فاستقر على مافي يدي ، فلم يفها كلامي وحاولت نسيانها وسرت ، فتبعاني كأنهما كلبان وكنت أحس بجر نظراتهما على ظهري ، وبثقلها على روحي ، فأهم أن أمد يدي باللعب اليهما ، ثم تدركني محبة الولد فأكف ، حتى وصلت الدار وصورتها أمام عيني ، تمنع عنها رؤية فرحة أولادي باللعب وتواثبهم اليها

ولما خرجت وجدت الولدين لايزالان في الطريق ، يفتشان عن البائع يعدوان هنا وهناك ، كأم أضاعت طفلها ولا تدري أية سبيل سلك . فدعوتهما فأفرخت روعها ، وسألتها عن اسميها فمشيا معي فما درت مع الطريق دورة حتى لقيت البياع أمامي ، فشريت لهما تمثالين وتركت لهما القرشين ، ووجدت حول البياع أولاداً مثلها ، فقلت له :

ـ اعط كل ولد تمثالاً

وكانوا تسعة فدفعت اليه تسعة قروش

* * *

هل تصدقون أو أحلف لكم ، أني لما نظرت في وجه الأولاد وقد بدا فيها بهاء الفرح ، وما عرفتْ هذه الوجوه الفرح قط ، ولاحت عليها سمات الطفولة الراضية الشاكرة ، وما كان يلوح عليها الا الألم والحقد المرير ، وأشرق عليها نور إلهي سطع من وراء ماحملت من الأوساخ والأقذار ، ولما رأيت عيون الأمهات الواقفات تدمع ، وألسنة الرجال الواقفين تدعو ، أحسست في قلبي بفرحة لا تعدلها فرحة الجائع بالمائدة الملوكية المترعة ، ولا الضجر بالقصة العبقرية الممتعة ، ولا المحب المدنف بلقاء الحبيب بعد طول الهجران

لا والله ، فتلك أفراح أرضية ، وهذه فرحة سماوية ، قد تعيش آلاف

البشر وتموت ، ولا تحس مثلها . وشعرت كأني كبرت في عين نفسي ، واني صرت أقوى وأقدر ، وأني نلت الأماني ومتعت بالخلود .

إننا ننفق كثير المال ، نشتري به يسير المتع ، وهذي متعة ما يكاد يجد الانسان مثلها ، نلتها بتسعة قروش ، وما تسعة قروش بالنسبة لي ؟ انها شيء كالعدم ؛ شيء لا يغنيني وجوده ، ولا يفقرني فقده ، فهل تحبون أن تشتروا مثل هذه المتعة ؟ هل تحبون أن تعرفوا ماهى لذة الروح ، وما هي راحة القلب ؟ هل تريدون أن تذوقوا نعيم الجنة وأنتم في الدنيا ؟

لاتحسبوا أني أصف كلاما ، وأرصف ألفاظاً ، إني والله أسوق لكم حقائق ، فإن أردتم معرفتها ، ففتشوا حولكم عن هذه الطفولة المحرومة وهذه النفوس المعذبة ، ثم أولوها الاحسان .

وليست قيمة الاحسان بكثرة المال ، إن المال ينفع الفقير ولكنه لا ينزع من قلبه النقمة على الحيـــاة ، ولايستل منها بغض الاغنياء ولايملؤها بالحب . إن الذي يفعل هذا كله هو العطف ، وأن تشعر الفقير بأنه مثلك ، وأن تعيد اليه كرامته وعزة نفسه . ورب تحية صادقة تلقيها على سائل تكون أحب اليه من درهم ،ودرهم تعطيه فقيراً وأنت تصافحه يكون آثر عنده من دينار تدفعه إليه متكبراً مترفعاً ، يدك تمتد إليه بالمال ، ووجهك يجرعه كأس الاذلال

إن كل غني يستطيع أن يتصدق بالكثير . ولكن غنيّ القلب بالانسانية والنبل والحب ، هو الذي يستطيع ان يتصدق ، مـــع المال ، بالعاطفة المنعشة ... فلا تضنوا على الفقراء بانسانيتكم ، ولا تبخلوا عليهم بعطاء قلوبكم ، وذكروهم أنهم لايزالون معدودين من البشر ، وأنهم مثلكم لأب واحد ولأم ، لآدم وحواء ، وانهم لم ينحدروا الى دركة الدواب والبهائم .

ذكروهم بهذه الحقيقة التي طالما نسيتموها أنتم ، ونسوها هم أنفسهم . ولم لا ينسونها وهم يعيشون كما تعيش البهائم : ينامون مثلها على الأقذار ، في

الاكواخ والحقول ، وفي الأزقة المعتمة ، وفي الخرائب المهجورة ، ويأكلون مثلها من فضلات الناس ، ويشربون مثلها من البرك الآسنة ، والأنهار العكرة ، ولم ينالوا تعليما يرفعهم عنها ولا مدنية تميزهم منها ؛ يسهرون في عصر الكهرباء على السرج والقناديل ، ويركبون في عهد الطيران على العربات التي تجرها الحمير ويسكنون في الاكواخ على التراب في زمان ناطحات السحاب ؛ ومن تشبه منهم بالناس المتحضرين لم يكد يصل الى مثل حضارة الانسانية الأولى ، يحلق مثل (الناس) ولكنه يقعد على الارض ، على رصيف الشارع ، وبيده مرآة مكسورة يرى فيها وجهه ، والصابون القذر يغطيه ، وموسى الحلاق المفلولة تجري فيه ، والدم ينبثق من نواحيه ، ثم تمر على هذا الوجه البشري ممسحة لا لاتوضونها أنتم والله لمسح أحذيتكم . ويركبون مثلما يركب الناس ، ولكن على (عربات الكارو) ،العشرة على متر مربع من الخشب ، محمول على دولابين من الحديد يسحبه حيوان هزيل ، والعربة ترتج بهم ، فترقص معدهم ، وتزلزل أمعاءهم ، ثم لاتصل بهم الى نهاية الميل الواحد إلا بعد ساعة . ولهم قهوات ، ولكن قهواتهم اصطبلات فيها ركائز تسمى مناضد أمامها عيدان تدعى كراسي. ولهم مطاعم ولكن مطاعمهم يقدم فيها المرض في طباق قذرة . . .

فتداركوهم قبل أن يكفروا بالانسان ، فينقلبوا حرباً عليه حرباً ليس معها أمان . أشعروهم أنه لايزال في الدنيا فضل وعدل ونبل . ليجد كل واحد منكم على من هو دونه ، لا بالمال وحـــده ، بل بالعاطفة والتواضع والانسانية . .. الرئيس على المرؤوس ، والوزير على الوكيل ، والوكيل على المدير ، والضابط على العريف ، والعريف على الجندي ، فان كل واحد من هؤلاء هو اليوم عبد لمن هو أعلى منه ، وفرعون على من هو دونه ، يتكبر عليه من هو فوقه ، ويتكبر هو على من تحتـه ، حتى أن الشرطي ليطغى على البائع المتجول ، والبائـع يطغى على امرأته ، والمرأة على ولدها ، والولد على

القطة يضربها بالعصا أو الكلب يرميه بحجر ، كل يحاول ان يظـلم كما ظلم ، والمجرم الاكبر هو الظالم الأول . انهـم كالحيوانات ، الجرادة تأكل البعوض ، والعصفور يأكل الجرادة ، والحيـة تقتل العصفور ، والقنفذ يقتل الحية ، والثعلب يسطو على القنفذ ، والذئب يسطو على الثعلب ، والأسد يفترس الذئب ، والانسان يقتل الأسد ، والبعوضة تقتل الانسان ، فتغلق الحلقة على عدوان بعد عدوان

كم تلقون كل يوم بمن هم دونكم فلا تتفضلون بالالتفات اليهم ، ولا تفكرون فيهم ، ولا تشعرون بوجودهم ، ثم تتألمون إذا أعرض عنكم من هو فوقكم ، وتجاهل مكانكم ، وترون ذلك جرحاً لشعوركم وكسراً لقلوبكم ، فلماذا تطلبون بمن فوقكم ما لا تعطونه من هم دونكم ? أليس لهؤلاء نفوس تحس ، وقلوب تتألم ?

مررت أمس بسائلة على شط النيل الصغير ، في الروضة ، وأمامها بنت لها تحبو ، وصلت الى كومة أوساخ فنبشت فيهـا حتى وجدت بقية لعبة فحملتها فرحة بها وعادت إلى أمها مستبشرة ، فأخذتها منها أمها ومسحتها وحاولت أن تصلحها وتعيد الحياة إليها ، وقـد فارقتها الحياة منذ أزمان

فلويت وجهي ألماً من منظر هذه القذارة ، ثم عدت ألوم نفسي وأسائلها ، ما ذنب هذه الأم إذا أحبت بنتها وأرادت إسعادها ? وما ذنب هذه البنت إذا طالبت بحق الطفولة الطبيعي باللعب ?

لماذا أشتري لابنائي كل أسبوع لعبة ، ولم يخطر على بالي أبداً أن في البلد أطفالا لا يجدون لعباً . نحسب أننا إذا اطعمنا أطفال الفقراء الخبز ، فقد أدينا حق الله وحق المروءة والانسانية علينا ، ولكن الطفل لا يكفيه الخبز ولا يرضيه ، وهو

يرى أطفال الناس يمرون به كل ساعة ، وعليهم أبهى الثياب ، ومعهم أغلى اللعب ، انه بين أمرين إما أن يتلبد حسه ، وتموت نفسه ، فلا يطمع أن يجاري هؤلاء ، ولا يأمل أن يكون مثلهم أبداً ، فينشأ ضعيف الهمة ، ذليلا مهيناً ، فيكون من أسباب ضعف هذه الأمة وهوانها على الأمم ، وإما أن يثور ويغضب ويمتلىء قلبه الصغير حقداً ، ثم يكبر ويكبر الحقد معه حتى يكون عدواً للمجتمع ونقمة على الناس ، يظلمهم كما ظلموه ، يسرق من يستطيع سرقة ماله ، ويزهق روح من يتمكن من إزهاق روحه ، وينشر الفساد في الارض

فلماذا نجعل من هؤلاء الاطفال أعداء لنا ؟ لماذا لا نحبهم فنعلمهم الحب ؟ أليسوا أزهاراً في روض الحياة ؟ أليست كل زهرة حلوة ولو علاها الغبار ؟ أليس كل صغير جميلا ولو كان قطاً أو كلباً ؟ أنحب القطة الصغيرة ونمسحها ونضعها على الأحضان ونكره هؤلاء الأطفال ؟ وما لهم ؟ ألأنهم قذر الوجوه والثياب ؟ إن القذارة لا تحب ، ولكن هذا ذنب أمهاتهم ، لا يغسلن وجوههم وهن على النيل ! لا ، بل هو ذنبي وذنب كل واحد منكم وذنب الكتاب وأولي الأمر ، انهم لم يعلموا هؤلاء الأمهات النظافة ، ولم يقل لهن أحد إن النظافة لازمة والوساخة مؤذية . ومن يقول لهن ، وهن (شحادات) على الطرقات ، لا يكلمن أحداً بغير السؤال ، ولا يكلمهن أحد أبداً ؟ !

وما يدريني أن ابنتي أو ابنة أحدكم لا سمح الله ، ستلقى مثل هذا المصير ؟ من منا أخذ على الدهر عهداً أن لا يزيل عنه نعمة ؟ هل أمنا المرض والفقر ؟ هل وقفنا حركة الفلك ؟

وهل نسينا أن في الوجود إلهاً ، وأن بعد الدنيا آخرة ؟ فكيف سوغنا لأنفسنا مع هذا كله إهمال هذه (الانسانية) الصغيرة المبرأة الطاهرة ؟ لقد

كان فينا مقلدون متحذلقون ألفوا جمعيات للرفق بالحيوان . . . ولكن لم ينشأ فينا الى اليوم من يؤلف جمعية للرفق بالانسان ؟ لقد بلغ الخزي من نفوسنا أن وجد فينا أناس يطعمون الـــكلاب المدللة اللحم السمين ، والشكولاطة الغالية ، وحولهم بشر لايأكلون اللحم مرة في الشهر ، ولا يتذوقون الشكولاطة أبداً

* * *

إذا شئتم أن تذوقوا أجمل لذائذ الدنيـــا ، وأحلى أفراح القلوب ، فجودوا بالحب وبالعواطف كما تجودون بالمال

القبر الثالث

نشرت سنة ١٩٤٠

كم ذا يقاسي العاشقون ويألمون ، ولا يدري بهم أحد ، ولا يبلغ وهم إنسان تصوُّر ما يعانون .

كم للحب من شهداء عاشوا يائسين ، وقضوا صامتين ، فما حازوا مجداً ولا فخاراً ، ولا اشتروا جنة ولا أمنوا ناراً . مساكـين . . . يعيشون في دنيا الناس وليسوا فيها ، يرون بغير العيون ، فلا يرى الناس ما يرون ، ولا يبصرون ما يرى الناس ، يموت عندهم كل حي ما لم يتصل بالحبيب ، ويحيا كل ذي صلة به حتى الجماد

إن فكروا ففى المحبوب ، أو تكلموا فعنه ، أو اشتاقوا فإليه ، أو تألموا فعليـه . . .

فان تكلمت لم أنطق بغيركم وإن سكتُّ فشغلي عنكم بكم

وإن منحوا الدنيا باعوها كلها بقبلة منه أو شمة أو ضمة ، ثم لم يأملوا إلا دوامها ، أو الموت بعدها لئلا يجدوا فقدها ، لا يألمون إن قال الناس مجانين ، ولا يحزنون إن نالهم الأذى ، بل ربمـا سرهم ما يسوء ، إن كان فيه رضا المحبوب

وياويلهم من العذال . يا ويل الشجي من الخلي !

يلومون قيساً ، لانهم لايرون ليلاه إلا كسائر النساء ، ففي كل امرأة

عوض عنها وبديل منها ، ولو استعاروا عيني قيس فنظروا بهما لرأوا ليلى هي الدنيا ، وهي الأخرى . وهي الروح ، لولاها ما كانت الحياة ، ولا أضاءت الشمس ، ولا أنار القمر ، ولا بسم الروض ، ولا ضحك الينبوع ، ولا همس النسيم ، ولا غنى الطائر ، ولا كان في الدنيا جميل

قصة الحب هي القصة الأزلية التي تكرر دائماً ، وتعاد أبداً ، لاتمل ولا تسأم . وهل يمل حديث الحب ويحكم ؟ نقرؤها كل يوم فلا نراها تبدل فيها إلا الاسم ، فهي آناً قصة ليلى أو لبنى أو عفراء أو سلمى كرامة ، وهي آناً قصة هلويز أو ماجدولين أو فرجيني أو شارلوت ، ولا تغيّر إلا المنازل ؛ فمن بطاح نجد إلى ضفة البحيرة ، الى ساحل الدنيا الجديدة ، إلى ظلال الزيزفون... أما القصة فهي هي ما تبدلت ولا تغيرت ، ولا يمكن أن تتبدل حتى تبدل الأرض غير الأرض

على أن للحب مواسم ، وله منازل ، ينبت فيها كما ينبت النخيل في البصرة ، والكرم في الشام . ومن منازله لبنان . . .

لبنان (شرقيه والغربي) الذي برأه الله على مثال الجنة : روح وريحان ، وحور وولدان ، فمن حلّ فيه مؤمناً ذاق نعيم الخلود في دار الفناء ، وأحس بسعادة الأخرى في الدنيا ؛ ومن حلّه غير مؤمن أذهب طيباته في حياته الدنيا وما له في الآخرة من خلاق

لبنان الذي كان دار الأولياء والشعراء والسياح والزهاد ، من كل عابد متبتل ، ومحب هائم ، وتائب أواب !

لبنان الذي جعل الله ماءه خمراً ، وجماله سحراً ، فلا تدري أهو السحر قد خيّل لك أنك في جنة الخلد ، أم هو السكْر قد جعلك تحس التخلص من هذا العالم ، الغارق في الدم ، الملتحف باللهب ، وتشعر أنك تعيش في الأفق

الأعلى عيشة اللذة الدائمة ، والذهول الناعم الهنيء ، وسط عوالم من النور تدوك ولا ترى .

لبنان الذي لا تدري أي شيء فيه هو أجمل : أذراه التي تبرقعت ببراقع الثلج فلم تبصرها عين حي من يوم خلق الله العالم ، فعز بالحجاب جمالها حين ذل بالسفور الجمال ، أم سفوحه الحالية بالصنوبر ، أم القرى المنثورة على تلك السفوح ، أم ينابيعه المتفجرة تفجر الحكمة على لسان نبي ، أم أوديته الملتوية التواء الفكرة في رأس أديب لا يملك البيان عنها ؟ وأيه هو أبهى : أصباح (بلودان) أم ظهيرة (الشاغور) من (حمانا) أم الأصيل الفاتن في ربى (صوفر) أم المساء الوادع في خليج (جونيه) أم مناجاة الملائكة في قمة (جبل الشيخ) أم مسامرة الزمان عند (الأرز) ، أو في (بعلبك) ؟

أم أنت تؤثر هذا كله ، وتتمنى لو شملته بنظرة منك واحدة ، ثم ضممته إليك ، ثم شددت عليه ، حتى أفنيته فيك ، أو فنيت أنت فيه ؟

تعالوا سائلوا سفوحه وذراه ووديانه ورباه ، كم شهدت من فصول هذه القصة الخالدة ، قصة الحب . . . وكم أريق على صخوره من الحيوات والعواطف ، يطل جوابكم لو ملك الكلام . . . ولكنه أبكم لا ينطق والناس بكم لا يروون إلا تاريخ الوحشية المدمرة العاتية ، يحفظونه أبناءهم ليكون لهم منه أظفار كأظفار الوحش ، ومخالب كمخالب النسور ، أما تاريخ الانسانية العاشقة فإنهم يزدرونه ويترفعون عن حفظه ، ويرون من الخطر على الأخلاق أن يدرس في المدارس !

وكذلك أرى أنا . . . وهل أنا إلا من غزية ؟

وإلا فمن يروي لي قصة هذا القبر التائه ، الذي نأى عن موطنه ، وفارق إخوانه ، وطوّف حتى استقر عند قدم صخرة هائلة من صخور (رأس

بيروت) ، يلطمه الموج صباح مساء ، فيستغيث استغاثة غريق عاين الموت ، ولا من مغيث !

* * *

قبر منفرد ضائع بين الصخور ليس ما يدل عليه إلا حجر منحوت نحتاً غير متقن ، عليه كتابة قد براها الماء فلم يبق منها إلا أنقاض هذه الأبيات :

الشمس تطلع تارة وتغيب والليل يجمع شمل . . . .
وأنا محب لم أجد إلا الشقا أحبي الليالي . . . .
أفيجمع القبر الأحبة إن نمت ويكون . . . .

فمن (يا أهل بيروت) يعرف تلك القصة التي لم يبق منها إلا هذه الخاتمة الأليمة : قبر تائه ، عليه شعر إن لم يحفل به علماء اللسان ، كان حسبه أن يحفل به علماء القلوب ؟

هل في هذا القبر عاشق من لبنان يوم لم يكن قد فسد لبنان ولا عاثت فيه يد (الحضارة) ، عرف فتاته في طفولتها الحلوة المبرأة ، تتهادى بين البيت السعيد ، والحقل الخصيب ، والمرعى الجميل ، ، والكرم البهي ، فكانا يلحقان الأفراخ (الصيصان) وهن بنات يوم واحد ، قد خرجن من البيض كرات ذهبية من الريش الأصفر الناعم ، تطير خفتها مع النسيم ، وتحل حلاوتها في الفؤاد ، فإذا رأتها الدجاجة الأم ، فأقبلت عليها نافشة ريشها مستنسرة ، خافا فارتدا إلى الجدي يلاعبانه ، والجحش يركبانه . وكان عالمها صغيراً كله ، والصغير من كل شيء فاتن محبوب . ومن منا لا يحب الصبي ، والبنية ، وفرخ الطائر ، والهريرة ، والكليب ، وغصين الشجرة ، وزر الورد ، والكتيب ، وكل لطيف من التحف والطرف [1] ، ودقيق من الأشياء ؟ من

(١) الطرف أو الطرائف هي ما يسمى في لسان التجارة وفي لغة العامة (نوفوته *nouveautés*) والكلمتان في اللغتين بمعنى واحد (تقريباً)

لا تنجذب إلى ذلك نفسه ، ويحنو عليـــه قلبه ؟

ثم كبرا ، فكانا يصحبان القطيع إلى القمم القريبـة وإلى الوادي . ثم أبعدا المرعى ، فكانا يرافقان الشمس في غدوها ورواحها ويطوّفان تطوافها . ثم اكتمل جمالها وتمت رجولته ، وكذلك تؤتى الفضيلة أكلها إذا عاشت تحت عين الشمس ، في الأعالي التي لاترقى اليهـــا جراثيم الفساد ، فصارا يقاسمان الكبار السمر على (المصطبة) في ليالي الصيف ، وفي (العليّة) في الشتاء . ومرت الأيام ، فإذا هي فاتنـة القرية وحسناؤها ، واذا هو بطل الديرة ورجلها ، ومقدم الشباب في المصارعة ، وحمل الأثقال ، والعدو ، والسباحة ، وتلك كانت مفاخر الشباب الجبلي في تلك الأيام . وكان رقصهم الدبكة على (اليادل) أو على (دلعونه) وكان هو شيخ الدبكة .

وكان الحب قد ولد في نفسيهما ، فكانا يجلسان على قلعة على شفير الوادي ، يرعيان هذا الحب الوليد ، ويدعان القطيع يرعى بنفسه ، وكان لها عنده مثل الذي له عندها ، فما الذي فرق بينهما ؟ أهو المال أم الدسائس أم قد زوجوها من غيره . أم ماذا ؟ من يحفظ قصتهما يا أهل بيروت ؟

وكيف عاشت من بعده ، وكيف عاش من بعدها ؟

* * *

أم كان متكئاً في زورقـه ، يرقب الشمس وهي في موقف الوداع صفراء شاحبة ، لا يحفل بها أحد ممن كان في الميناء ، لأن هموم العمل لم تدع في قلوبهم مكاناً للشعر ، فأيقظه من غفوة التأمل أسرة تريد أن تجول في البحر جولة في الزورق . . . هنالك رآها ، واستقر حبها في قلبه ، ولم يكن بذي صاحبة ولا ولد ، فهام بها هياماً ، وقلب الأرض يفتش عنهـا علّه يحظى منها بنظره فلم يلقها . فعاش بقية عمره يتجرع غصص الألم المكتوم ، حتى مات حيث لقيها ، ودفن حيث مات

وهذا الحب هو النار التي تأكل القلب . . . وما قرأت مرة قصة القاضي ابن خلكان إلا رحمته مما يقاسي . كان يبيت وحده في المدرسة العادلية الكبرى (دار المجمع العلمي بدمشق) فإذا أراد أن ينام تمثلت له صورة المحبوب ، فغلى دمه في عروقه وفار ، فأقبل يدور حول البركة ويقول :

أنا والله هالك　　　آيس من سلامتي
أو أرى القامة التي　　　قد أقامت قيامتي

حتى يؤذن الفجر ، وكان يحب من ليس فوقه إلا السلطان [1]

قلت : ومن هنا ماتجدون من الذوق في ترتيب كتابه (وفيات الأعيان) وما يختار فيه من الشعر !

* * *

أم أن هذا قبرها هي ، يقوم على الشاطيء ، على مسرح المأساة التي طالما مثلت عليه وأعيدت

هنا كانت تقوم ترقب عودته من المهجر من امريكا ، تذكر أبداً كيف ودعته بالدموع الغزار ، وودعها بزفرة وعناق ، ومنّاها الغنى والجاه والعودة القريبة ، وانقضت الأيام وكرت الشهور ولا حس ولا خبر ، والفتاة ترقب وتنظر وقد عافت عيشها ، وجفت أهلها ، واختصرت دنياها كلها ، فكانت هذه الصخرة الصلعاء التي شهدت مبدأ آلامها وتأمل أن تشهد نهايتها ، تظن من حبّها وتذكرها أن السفينة لاتزال قريبة منها ، وان الحبيب يلوح بمنديله لايزال ، وبينها وبين الحبيب بحار ولجج ، وأيام وليال ، والحبيب قد سلاها ونسيها ، وطمست صورتها في نفسه أمواج الثروة واللذة والدنيا العظيمة في نيويورك حتى محتها

(١) وجدت بعد كتابة هذا الفصل أن ابن خلكان نفسه يروي هذه الابيات في كتابه الوفيات على انها لغيره . والقصة التي رويتها هنا سمعتها من أشياخنا ولم أرها في كتاب

فماتت شوقاً إليه ، وأسفاً عليه

أم هي لم تمت وإنما شهدت عودته ، فإذا هو قد عاد رجلاً غير الذي ذهب ، لم يبق فيه من ابن القرية إلا كما يبقى من ندى الصباح تحت شمس الهاجرة ، لا زيه زيه ، ولا لسانه لسانه ، فأعرض عنها وازدراها . ورأت الى جانبه فتاة من بنات (بلي باي) فخولطت وعادت الى صخرتها تنتظر عودة من ليس يعود ، حتى وافاها الأجل ، فدفنت مكانها ؟

أم هو قبر عاشق ماتت حبيبته كما ماتت ليلى ، فعاش بعدها كما يعيش كل حبيب يائس .

أم كانت قصة هذا القبر شيئاً آخر ، فمن يعرف هذا الشيء ؟ من يهتم بشهيد من شهداء الغرام ؟ من يعنى بضحية من ضحايا العواطف ؟ من يبكي للمحب المجهول ، ويقف على قبره وقوف الناس على قبر الجندي المجهول ؟

يارحمتا للعاشقين ! حيهم بائس ، وميتهم منسي ، وحديثهم ضائع

يارحمتا للعاشقين ! لايقام لشهيدهم قبر ، وإن أقيم له لم يقف عليه أحد ، ولم يحفظ تاريخه .

وياضيعة هذا الكنز الأدبي العظيم ، هذه الدنيا من العواطف التي لم يبق منها إلا ما أودع ديوان (العتابا) . فمن يعنى بجمع هذا الديوان ونشره في كتاب ؟

ألم تعلموا بعد أن في هذه العتابا من الصور والمعاني ما لايملك بعضه غزل شعراء العرب كلهم مجتمعاً ؟ فمن يهتم به ؟ ومتى يأخذ الشعراء هذه الصور والمعاني فيودعوها الشعر الفصيح ؟

* * *

وبعد فيا أهل بيروت

إذا جزتم بهذا القبر التائه ، فقفوا عليه كما تقفون على قبر الجندي المجهول ؛ وقدسوا فيه المحبة كما تقدسون هنالك البغض ، وكرموا فيه الحياة ، فالحياة

الحب والحب الحياة ، واجعلوه تمثال العاطفة ، فالعاطفة فوق العقل ، والانسان إنسان بالعواطف لا بالتفكير

لا تحقروا العاطفة ، ولا تزدروا القلوب ، فان القلب منزل أقدس شيئين في الوجود : الايمان والحب . وحسب العقل جموداً وعجزاً أنه لا يستطيع أن يفهم الحب ولا يدرك الايمان . وحسب العاطفة كرماً ونبلاً ، أن من ضروبها حب الوطن والوفاء ، والاحسان والرحمة ، وذلك ما يميز الانسان من سائر الحيوان

ونحن اليوم في حاجة إلى الايمان بالعاطفة الخيّرة ، فلنجعل الحب العفيف [1] وسيلة إليها ، ولنتخذ منه سلاحاً نحارب به الفسوق والدعارة ، والغلظة الوحشية ، ولنستكمل به انسانيتنا فمن لا يعرف الحب لم يكن له قلب

إذا أنت لم تعشق ولم تدر ما الهوى
فكن حجراً من يابس الصخر جلمداً

---

(١) هذا كلامي قبل عشرين سنة ، وقد علمت الآن أن الحب الشريف ، كالليل المشمس، شيء كالمستحيل .

في الليل

منذ

نشرت سنة ١٩٤٣

انفضّ السامرون ، بعد ما صدّعوا رأسي بأحاديث الانتخابات والنيابات ، والمطامع المكسوّة أثواب القناعة ، والمنافع المتّشحه بوشاح الاخلاص ، وكان هزيع من الليل فتنفّست الصعداء ،وخرجت إلى (المشرفة) أشرف على دمشق - وإن دمشق وغوطتها وسبع عشرة قرية من قراها لتبدو للناظر من شرفة داري في (المهاجرين) واضحة كأنها صفحة الكف ، يأخذ منها فضاءٌ عرضه خمسون كيلاً بنظرة واحدة من علو مائتي متر - وكانت ليلة ساكنة ، رخيّة النسيم ، قد زانها بدر (شعبان) ، فوقفت أمتع النفس بها وآنس بسكون الكون بعد ضجّة المجلس ، ورحب الفضاء بعد ضيق الغرفة ، وأرخيت العنان لأفكاري فانسابت على مهل ...

* * *

ولبثت ساهراً وحدي وقد نامت النجوم على فرش المُزْن الرقراق ، ونامت الجبال على أكتاف الأودية وحوافي السهول ، ونامت الغوطة في أحضان قاسيون ، ونامت الأشجار في جنان الغوطة ، حتى بردى فإنه يمشي نائماً فِعْلَ الجند وهم قافلون من سفر بعيد متعب ، وقد ملّ من طول السفر ، وبعد الغاية التي لم يصل إليها ، وهو يمشي نحوها منذ ألف ألف سنة ، وكاد يخالطه اليأس من بلوغها ،ولم يبق ساهراً معي إلا هذه الأضواء الكليلة التي ترتجف من الوحدة

والخوف ، وتنظر بعيونها (الزرقاء) خلال الظلام فلا تبصر الطريق

وجعلت أفكر فأرى الطبيعة ظاهرها كباطنها ، لا يضمر الجبل نفاقاً ، ولا السهل يبطن حقداً ، ولا السحاب ينطوي على مكر ، ثم انظر إلى هذه السقوف ، التي كانت تبدو بهية براقة ، يقطر منها النور ، بعد ما اغتسلت بضياء القمر ، فأفكر فيها .. . ماذا تحت هذه السقوف ؟

كم تحتها من خبايا وعجائب ، ومؤتلف ومختلف . كم من معبد لمتهجد متنسك ، إلى جنب مخدع لمستهتر متهتك ؛ هذا خلا بربه ، وذاك بحبه ، فتجاورت منها الظلمة والنور . وكم من سرير لميت يحف به أهله يبكون ، ومضجع لعروسين أحاط بهما الأقرباء يضحكون ، ومن يبيت يتبرم بالولد ، ومن يتألم من العقم ، وشاك من التخمة ، وباك من الجوع ، ومسرور يتمنى لو طال الليل ، ومنكود موجع ينتظر النهار . وكادح للعيش ناصب لا يستريح نهاره ولا يكاد ينام ليله ، همه المال يجمعه ويكنزه ، قد حرم نفسه من أجله الطيبات ، ولو كشف له الغطاء لعلم أنه إنما سخره الله لآخر فهو يجمعه له ، ويكدح من أجله ، وذاك نائم لا يفكر فيه ، ولا يباليه ، حتى يجيء وقته فيأتيه . . .

وتلميذ ذكي قد أثقل جفنيه النعاس ، وهدّ جسده التعب ، وهو مقبل على كتبه ودفاتره ، وآخر كسلان يغطّ غطيط البكر ، ولو اطلعا على الآتي لرأيا أن هذه الدنيا سترفع الجاهل الخامل ، وتخفض العالم العامل ، تفيض على الأول المجد والمال ، وتحرم الثاني ، ولا يدري الحكمة في ذلك إلا الله .

وكم من زوجين باتا متنافرين ، يتمنى كلٌ لو كان عزرائيلَ وو ُكـِّل بقبض روح صاحبه ، وما ثمّة من سبب إلا أن الزوج راح إلى الدار متألماً من أمر أصابه ، يبتغي الراحة عند زوجه إذ تقبل عليه مواسية مسلية ، بوجه

طلق وفم باسم ، وأن الزوجة كانت تنتظره وقد أناخ عليها الملل ، وترقب دخوله ضاحكا مرحاً ، فلما رأته مُرْبَدّ الوجه خاب أملها فيه فتألمت وأعرضت ، ولما رآها معرضة ضاع رجاؤه منها فزوى وجهه عنها ، وأمل كلٌ أن يبدأه الآخر بالصلح لأنه عند نفسه لا ذنب له ، فلما طال الوقت وهما متنافران يتراميان بالنظرات شزراً كالقطط في عراكها ، استحكمت العقدة فلم يبق إلا الطلاق !

وكم من سجين يتقلب في السجن على مثل الابر ، يذكر أهله الذين لا عائل لهم سواه ، وقد حبس في تهمة ، وقاضيه في النادي يضارب على المائدة الخضراء بالمال الذي قبضه رشوة من خصمه ليحكم عليه .

وتائبة تجول في الطرقات الخالية مع الكلاب ، ولا تجد من يمن عليها بكسرة خبز إلا إن دفعت ثمنها من جسدها لأنها زانية ملعونة لا تقبل لها توبة ، والذي أفسدها وأغواها يتصدر المجالس ، لا يذكر الناس خطيئته التي استزلته الشيطان إليها في شبابه لأنه تاب منها ، ومن تاب تاب الله عليه .

وكم من أديب ، أديب حقاً ، قد طاعت له عَصِيّات الكلم ، وذلت له العوالي من قطوف البلاغة ، قد انزوى في خُصّه لا يدري به أحد ؛ ودعيّ جاهل ، لص معانٍ ، وصفّاف كلمات ، قد جمع له المجد الأدبي من أطرافه وكان له الاسم السائر ، والمال الوافر .

ومتمشيخ قد لبس مسوح الزهاد ، واتّزر بإزار الصالحين ، قد عرّض لحيته ، وكوّر عمامته ، وأدلى عذبته وطوّل سبحته ، ودعا الناس إلى الزهد في الدنيا ، ونبذ الأموال ، ورمي النقود في الطرقات لأنها وسخ الدنيا ، فلما أطاعوه ورموها خالفهم إليها فالتقطها .

وكم من أزواج قد باتوا في الفراش مع نساء لا يفضلن زوجاتهم في جمال ولا كمال ، ولكنه شرع إبليس لا لذة فيه إلا مع الحرام .

وكم من نساء تركن أزواجهن وارتمين في أحضان الملاعين من لصوص الأعراض .

* * *

كم تحت هذه السقوف من شاعر يعتقد الناس أنه خلق روحاً بلا جسم، وأنه يتغذى بالحب ، ويأكل العواطف ، قد أغلق عليه بابه ، وطفق يعد نقوده التي يستوحيها الخيال ، ويستلهمها الشعر ، فلما رآها قليلة لا تزال ، انصرف إلى نظم قصيدة جديدة يستدر بها المال .

ونصير للفضيلة ، سخر صحيفته لها ، ووقفها عليها ، قد هرب من بيته وانصرف في تلك الساعة الى عشيقته ليقرأ عليها مقالته الجديدة في ذم العشق ، وامتداح الوفاء الزوجي

وفلاح عاكف على لبنه يخلطه بالماء ، وكلما صب فيه شيئاً نظر اليه وذاقه ، فلما اطمأن الى أنه لم يعد يحتمل زيادة ، جعل يفكر في أيمان جديدة يحلف بها غداً على أن اللبن خالص لم يمسسه ماء .

وباتت عشرون ألف فتاة ينتظرن الزواج ، وبات عشرون ألف فتى ينتظرون الزواج ، وما حال بين الطائفتين إلا غلاء المهور ، وكثرة التكاليف ، وسخف الآباء الذين يحسبون بناتهم دواب تباع في سوق البقر ، فهم يشتطون بأثمانها ، والذين لا يمتثلون أوامر الشرع ، فيزوا البنت للخاطب الكفء ، ويطلقونهن في الطرقات متبرجات سافرات ، فيراهن الفاسق والصالح ، وكل ذي عينين حتى الحمار

وباتت الخمارات مفتحة الأبواب ، مزدحمة بالطلاب ، وبات المسجد مغلقاً قد قام خطيبه بالواجب عليه ، فخطب في ذم الخمر وألقى فيه درساً ، وانصرف لينام مطمئناً بعد ما أنكر المنكر ، وأمر بالمعروف .

وكان النواب لا يزالون مجتمعين يتباحثون ، وقد ملّ البواب ونعس ، ولكنه بقي قائماً يعلل النفس بأن البرلمان سيأتيه بقماش رخيص ، وسيكسر رجل صاحب الدار إن جاء يطلب الأجرة ، ويسقط ديونه كلها . وتخيّل الديون ساقطة فأغمض عينيه مرتاحاً ونام

وخلال ذلك عشرة آلاف شاب لا ينقصهم شيء من مال وصحة ، ولكنهم لا يزالون يشكون الملل ولا يدرون ماذا يصنعون ، فيقبلون على الملاهي أو ينتحرون ، ولو دققوا لعلموا أنهم إنما ينقصهم الايمان .

وأربعمائة ألف نسوا همومهم وناموا كالقتلى

* * *

وجعلت ألج بخيالي هذه البيوت ، وأجول تحت السقوف ، فأجد كل خبيثة لا تعرفها أصناف الحيوان ، وإن هي عرفتها ترفعت عنها وأبتها ؛ أفهذا هو الانسان سيد المخلوقات ؟ وفيم هذه السيادة إن لم تكن بالايمان والفضيلة والاستقامة والصدق والعلم ؟ أليس الانسان الذي يكفر بالذي خلقه ، ويخون وطنه ، ويسيء الى أبيه الذي رباه ، وأمه التي حملته ، ويكذب وينافق ، ويغش ويشرف ، ويكون عبد شهواته ، وأسير جهله – أليس هذا الانسان شراً من الحمار ؟

ويل لهذا الانسان ، أتته آلاف الأنبياء ، والحكماء ، والمصلحين ، وآلاف الآيات والنذر ، ولا يزال ممعناً في غوايته ، مقبلاً على شهواته . إن امرأة واحدة عارية تهدم في ساعة واحدة ما يبنيه الأستاذ المرشد المصلح الهادي في عشرين سنة

إن الصخر الأصم ليلين ويتفجر منه الماء ، وقلب الانسان لا يلين ؛ وإن الجماد ليعي النذر ويعتبر ، وهذا الانسان لا يعي ولا يعتبر .

من فكر واعتبر بهذه البيوت وكم مر عليها من ساكنين ، كم رأت من ذل بعد عز ، وعز بعد ذل ، ولم يبق من ذلك شيء ... هنالك وراء الأموي كانت (الدار الخضراء) منزل الأخلاف من بني أميـــة ، وكانت أمنع من النجم ، وأبهى من الشمس ، وكانت سرّة الارض ، من جبال الصين الى (البيرنه) ، فأضت اليوم مصبغة صغيرة حقيرة ، وسترجع المصبغة قصراً ، ثم يصير القصر مقبرة

هذه هي الدنيا ، ولكنا غافلون عن حقيقتها ، مطمئنون إليها ، ظانون أنها تدوم لنا ...

ماذا بقي من بني أمية ، ومن المماليك ، إلا هذه الجدران القائمة وهـذه القباب ؟

وماذا بقي من بني عثمان إلا (السراي) ... سلوا درج (السراي) كم رأى من صاعدين ونازلين ، ما استقر منهـم أحد ... لا ربّ القصر يخلد فيه ، ولا ساكن السجن ؛ كلهم عابر سبيل .

* * *

واستغرقت في أفكاري ، فلم أنتبه إلا وصوت المؤذن يرنُّ في هـذا السكون نقياً صافياً عذباً يقول : « الصلاة خير من النوم » . فقلت : صدق والله ، ومن السهر ، ومن المال ، ومن المجد ، لأنها هي التي تبقى ، على حين تفنى الدنيا بما فيها من مسرات وأحزان . وقمت إلى الصلاة .

إلى أخي النازح إلى باريز

نشرت سنة ١٩٣٧

يا أخي !

لمّا دخلتَ (مسابقة البعثة) أمّلت لك الفوز لما عوّدك الله من التوفيق والمعونة ، وخفت عليك الخيبة لأن (الوزارة) لا تريد إلا مبعوثاً واحداً في (العلوم الرياضية) من سورية كلها ، وأنى لك أن تكون ذاك الواحد ؟

فلما ظهرت النتيجة ، وكنت أنت الناجح في (فروع الرياضة) ، وكنت الناجح في (الطبيعة) أيضاً ، حمدت الله على هذه المنة ، وذهبت أستعجلك بالسفر

ولما عزمت أعددتُ لك ما تريد وأنا فرح مستبشر مسرور

كنت مسروراً لأني أعلم أنك ذاهب تطلب العلم ، وتخدم الوطن ، وتقوم بالواجب

ولكن لم يكد يتحقق الأمر ، ويزف الرحيل ، وأرى الباخرة الفخمة (ماريت باشا) رابضة حيال المرفأ (في بيروت) تسطع أنوارها وتتلألأ ، وألقي نظري على هذا البحر الهائل الذي يمتد في الفضاء أسود مثل الليل ، حتى يغيب في السماء ، أو تغيب فيه السماء ... لم أكد أرى ذلك حتى أدركت الحقيقة الواقعة ، وعلمت أنك مودع نازح ، فغلبت عليّ العاطفة ، وفاضت نفسي رقة وحناناً

لم أستطع أن أودّعك ، ولم أقوَ على رؤيتك وأنت في الباخرة ، ماخرة بك عباب اليمّ ، تنأى بك عني ، حتى تصير نقطة صغيرة على شاطيء الأفق ، ثم تنحدر إليه ، وتختفي وراءه ، وتختفي أنت معها ، وتصبح[1] في نظري عدماً ، لأني لا أحس لها وجوداً

والوداع ــ يا أخي ــ جماع آلام الحياة وأساسها ومصدرها ، وأشد ألوان الوداع وآلمها وأمرّهـــا وداعٌ في البحر ، ذاك الذي لا يطيقه ذو قلب

ودعتك وداعــاً عادياً ، ولبثت في مدرستي ألقي دروسي وأنا هادىء الجوارح ساكن الطائر ، ولكن في القلب مني زلزلة ، وفي الاعصاب ناراً

حتى إذا عاد أخوك ناجي[2] الذي صحبك إلى الباخرة فخبرني أنك سرت (على اسم الله) ، أحسست كأن قلبي قد هبط من هذا الزلزال كبناء هوى ، وأن هذه النار قد تركت أعصابي رماداً منطفئاً فسقطت على كرسي

لا أدري فيم هذا الضعف ، ولا أحبه من نفسي ، ولكني أدري أني أتخيلك الآن وحيداً فريداً لا ترى حولك قريباً ولا صديقاً ، تطل من شرفة الباخرة فلا ترى إلا السماء والماء ، وقد أخذك دوار البحر فلم تجد معيناً ولا مسعفاً . وأتصورك في ذلك البلد الغريب الذي لاترى فيه إلا وجوهاً تنكرها ، وأنت الذي لم يفارق بلده قط ، ولم يغب عن أهله ليلة ، ولم يسافر وحده أبداً

فلذلك ماأحزن ، وفي ذلك أفكر

* * *

ولكنها ــ ياأخي ــ خطيئة تربيتنا الاتكالية . لو أن آباءنا عودونا ، ولو أنا عودّناك على الحياة الاستقلالية الصحيحة ، وتركناك وأنت في الثانية

(١) تصبح هي لا هو (٢) القاضي الشرعي الآن

عشرة تذهب وحدك وتعود وحدك ، وعودناك حمل التبعات وأيقظنا فيك شخصيتك ولم ندعها ضائعة في شخصياتنا ، ودفعناك إلى استثمار مواهبك ولم نتركها معطلة ، لو فعلنا ذلك وأنت في الثانية عشرة ، لما خفت عليك السفر وحدك إلى باريز وأنت في طريق العشرين !

يا أخي !

إنك تمشي إلى بلد مسحور (والعوذ بالله) ، الذاهب اليه لا يؤوب ، إلا أن يؤوب مخلوقاً جديداً وأنساناً آخر غير الذي ذهب . . . يتبدل دماغه الذي في رأسه ، وقلبه الذي في صدره ، ولسانه الذي في فيه ؛ وقد يتبدل أولاده الذين هم في ظهره إذا حملهم في بطن أنثى جاء بها من هناك !

إي والله يا أخي ، هذه حال اكثر من رأينا وعرفنا (إلا من عصم ربك) ، يذهبون أبناءنا وإخواننا وأحباءنا ، ويعودون عداة لنا ، دعاة لعدونا ، جنداً لاستعمارنا . . . لا أعني استعمار البلاد ، فهو هيّن لين ، ثم إننا قد شفينا منه بحمد الله أو كدنا . . . وإنما أعني استعمار الرؤوس بالعلم الزائف ، والقلوب بالفنّ الداعر ، والألسنه باللغة الأخرى ، وما يتبع ذلك من الارتستات والسينمات وتلك الطامات ، من المخدرات والخمور ، وهاتيك الشرور

فانتبه لنفسك واستعن بالله ، فإنك ستقدم على قوم لا يبالي أكثرهم العفاف ، ولا يحفل العرض [1] . سترى النساء في الطرقات والسوح والمعابر يعرضن أنفسهن عرض السلعة ، قد أذانهن مدنية الغرب وأفسدتهن ، وهبطت بهن إلى الحضيض ، فلا يأكلن خبزهن إلا مغموساً بدم الشرف ، وأنت لا تعرف من النساء إلا أهلك ، مخدّرات معصومات كالدّر المكنون ، شأن نساء الشرق المسلم ، حيث المرأة عزيزة مكرّمة ، محجوبة مخدرة ، ملكة في بيتها ،

---

(١) والعجيب انه ليس في لغاتهم كلمة بمعنى العرض ، لأن ذلك شيء لا يعرفونه

ليست من تلك الحطة والمذلة في شيء . . . فأياك أن تفتنك امرأة منهن عن عفتك ودينك ، أو يذهب بلبك جمال لها مزوّر ، أو ظاهر خدّاع ، هي والله الحيّة : ملمس ناعم ، وجلد لامع ، ونقش بارع ، ولكنّ في أنيابها السمّ . . . إياك والسمّ !

إن الله قد وضع في الانسان هذه الشهوة وهذا الميل ، وجعل له من نفسه عدوّاً (لحكمة أرادها) ، ولكنه أعطاه حصناً حصيناً يعتصم به ، وسلاحاً متيناً يدرأ به عن نفسه ، فتحصنْ بحصن الدين ، وجردْ سلاح العقل تَوَقَّ الأذى كله . . . واعلم أن الله جعل من الفضيلة مكافأتها : صحة الجسم ، وطيب الذكر ، وراحة البال ؛ ووضع في الرذيلة عقابها : ضعف الجسد ، وسوء القالة وتعب الفكر ، ومن وراء ذلك الجنة أو جهنم

فان عرضت لك امرأة بزينتها وزخرفتها فراقب الله ، وحكّم العقل ، واذكر الأسرة والجدود . . . لا تنظر إلى ظاهرها البراق بل انظر إلى نفسها المظلمة القذرة ، وماضيها الخبيث المنتن ، أتأكل من إناء ولغت فيه كل الكلاب ؟ ؟

يا أخي !

إن في باريز كل شيء : فيها الفسوق كله ، ولكن فيها العلم . فإن أنت عكفت على زيارة المكتبات وسماع المحاضرات وجدت من لذة العقل ما ترى معه لذة الجسم صفراً على الشمال (كما يقول أصحابك الرياضيون) ، ووجدت من نفعها ما يعلقك بها حتى ماتفكر في غيرها . فعليك بها ، استق من هذا المورد الذي لا تجد مثله كل يوم . راجع وابحث وألّف وانشر ، وعش في هذه السماء العالية ، ودعْ من شاء يرتعْ في الأرض ، ويعش على الجيف المعطرة

غير أنك واجد في ثنايا هذه الكتب التي كتبها القوم المستشرقون عن العربية والاسلام ، وفي غضون هذه المحاضرات التي يلقونها ، عدواناً كثيراً على الحق ، وتبديلاً للواقع ، فانتبه له. واقرأ ما تقرأ واصغ لما تسمع وعقلك في رأسك ، وإيمانك في صدرك . لا تأخذ كل ما يقولون قضية مسلمة وحقيقة مقررة ، فالحق هو الذي لا يكون باطلاً ، وليس الحق ما كان قائله أوربياً فانظر أبداً إلى ما قيل ، ودع من قال !

* * *

ثم إنك سترى مدينة كبـــيرة ، وشوارع وميادين ، ومصانع وعمارات . . . فلا يهولنك ما ترى ، ولا تحقر حياله نفسك وبلدك كما يفعل أكثر من عرفنا من روّاد باريس . واعلم أنها إن تكن عظيمة ، وان يكن أهلها متمدنين ، فما أنت من اواسط افريقية ولا بلدك من قرى التّبّت . . . وإنما أنت ابن المجد والحضارة ، ابن الأساتذة الذين علموا هؤلاء القوم وجعلوهم ناساً ، أبن الأمة التي لو حذف اسمها من التاريخ لآض تاريخ القرون الطويلة صحفاً بيضا لا شيء فيها ، إذ لم يكن في هذه القرون بشر يدوّن التاريخ تاريخه سواهم . . . فمن هؤلاء الذين ترى ؟ إنما هم أطفال أبناء أربعة قرون ، ولكنّ أمتك بنت الدهر ، لما ولد الدهر كانت شابة ، وستكون شابـــة حين يموت الدهر

لا . لا أفخر بالعظام البالية ، ولا اعتز بالأيام الخالية ، ولكن أذكره لك لأهز فيك نفسك العربية المسلمة ، لأستصرخ في دمك قوى الأجداد التي قتلت وأحيت ، وهدمت وبنت وعلمت ، واستاقت الدهر من زمامـــه فانقاد لها طيعاً . . . إن هذه القوى الكامنة في عروقك ، نائمة في دمـك ، فليفُر هذا الدم وليثر ويضطرم لتظهر ثانية وتعمل عملها

لا تقل : ماذا يصنع طالب مثلي ضعيف في أمة قوية ، فإن الاندلس المسلمة كانت بالنسبة لعصرها أقوى ، وكان روادها من طلاب الفرنجة أضعف ، ولكنهم استطاعوا على ضعفهم أن يصنعوا (هذه القوة) التي تعجب بها أنت ، ويذوب فيها غيرك . . . إن الدهر يا أخي دولاب ، والأيام دول . وإن في الشرق أدمغة ؛ وفي الشرق سواعد ، وفي الشرق مال ، ولكن ينقص الشرق العلم فاحمله إليه أنت وأصحابك ، وعودوا إلى الشرق شرقيين معتزين بشرقيتهم الخيرة العادلة ، كما يعتز الغربيون بغربيتهم الظالمة الطاغية . واعلموا أن مهمتكم ليست ورقة تنالونها ، قد تنال بالغش والاستجداء والسرقة . . . ولكن مهمتكم أمة تحيونها

يا أخي !

إذا وجدت واسعاً من الوقت فادرس أحوال القوم وأوضاعهم في معايشهم وتجارتهم وصناعتهم ومدارسهم ، وابحث عن أخلاقهم ومعتقداتهم ، على أن تنظر بعين الناقد العاقل الذي يدوّن الحسنة لتتعلمها ، والسيئة لتتجنبها . ولا تكن كهؤلاء الذين كتبوا عن باريز من أبناء العرب ، فلم يروا إلا المحاسن والمزايا ، ولا كأولئك الذين كتبوا عن الشرق من ابناء الغرب ، فلم يبصروا إلا المخازي والعيوب ، ولكن كن عادلاً صادقاً أميناً

وأياك وهذه الحماقة التي يرتكبها بعض الكتاب من الفرنجة حين يهرفون بما لا يعرفون ، ويقولون ما لا يعلمون ، كهذا الاخرق الصفيق [1] الذي عمل أطروحة موضوعها (الحج) قدمها إلى جامعة كبرى وهو يجهل العربية ، ولا يعرف أي كتاب من كتب المسلمين بحث في الحج ، وانما جمع الأخبار من الصحف ومن أفواه العامة ؛ وكتب في نظام الريّ في الغوطة ، وزعم أنه وّفي

(١) المسيوترس أحد الجهلة الذين جعلهم الانتداب أساتذة في مدارسنا

البحث وأتمه ، وهو لا يعرف منه إلا ماخبره به ثلاثة فلاحين ، اقيهم في قرية ذهب اليها ، مع أن نظام الري في الغوطة لا يكاد يعرفه في دمشق إلا نفر قليل . . وذاك الذي كان معلماً أولياً في بلده فصار عندنا مدير دار المعلمين العالية ، فذهب مع طلابه إلى ظاهر دمشق ، فمشى ينظر على جانبي طريق (الربوة) هنا وهناك . . . فوجد في الجبل أثراً للماء ، فقال : من أين جاء هذا الماء ؟ لا بدّ أن يكون جاء من بردى ، إذ لا ماء في دمشق إلا من بردى . فماذا تكون نتيجة (البحث العلمي) في هذه المسألة ؟ هي أن بردى كان يصل الى هنا . . . إذن فقد كان عرض بردى في الماضي أربعمائة متر . . . وانطلق يقرر دائماً هذه الحقيقة !

* * *

وبعد ياأخي ، فاعلم أن أثمن نعمة أنعمها الله عليك هي نعمة الايمان ، فاعرف قدرها ، واحمد الله عليها وكن مع الله ترَ الله معك وراقب الله دائماً ، واذكر أنه مطلع عليك ، يعصمْك من الناس ويُعذْك من الشيطان، ويوفقكَ إلى الخير [١]

وفي اللحظة التي تشعر فيها أن دينك وأخلاقك في خطر ، احزم أمتعتك وعد إلى بلدك ، وخلّ (السوربون) تتنْعِ من بناها . . . وانفض يدك من العلم إن كان لا يجيء إلا بذهاب الدين والأخلاق

أستودع الله نفسك ودينك وأخلاقك ، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته

---

(١) وقد عصمه الله ووفقه ، فعاد أفضل مما كان ، ومن عليه فكان أول دكتور في الرياضيات في ديار الشام كلها ، وهو عبد الغني الطنطاوي الأستاذ في كلية العلوم في الجامعة السورية

اعرف نفسك

نشرت سنة ١٩٥٢

إنكم تسمعون كل يوم أحاديث في الجد وفي الهزل ، وفي الخير وفي الشر . أحاديث تدعو الى الوطنية ، وأحاديث تسمو بالخلق ، وأحاديث فيها متعة وفيها تسلية ؛ ولكن حديثي الليلة أهم من هذه الأحاديث كلها ، لا لأني أنا كاتبه ، أعوذ بالله من رذيلة الغرور ، بل لأنـــه أمس الموضوعات بكم ، وأقربها إليكم ، ولأنه دعوة لكم لتعرفوا أنفسكم .

لا تضحكوا يا سادة ولا تظنوا أني أهزل ، ولا تقولوا : ومن منا لا يعرف نفسه ؟ فإنه كان مكتوباً على باب معبد أثينة كلمـــة سقراط : « أيها الانسان اعرف نفسك » ومن يوم سقراط الى هذه الأيام ، لم يوجد في الناس (إلا الأقل الأقل منهم) من عرف نفسه !

ومتى تعرف نفسك يا أخي ، وأنت من حين تصبح الى حين تنام مشغول عنها بحديث أو عمل أو لهو أو كتاب ؟

ومتى تعرف نفسك وأنت لا تحاول أن تخلو بها ساعة كل يوم تفكر فيها ، لا يشغلك عنها تجارة ولا علم ولا متاع ؟

ومتى . . وأنت أبداً تفكر في الناس كلهم إلا نفسك . . وتحدثهـــم جميعاً إلا إياها ؟

* * *

تقول « أنا » فهل خطر على بالك مرة واحدة أن تسأل : « ما أنا » ؟ هل جسمي هو (أنا) ؟ هل أنا هذه الجوارح والأعضاء ؟

إن الجسم قد ينقص بعاهة أو مرض ، فتبتر رجل ، أو تقطع يد ، ولكن (أنا) لا يصيبني بذلك نقصان !

فما (أنا) ؟

ولقد كنت يوماً طفلاً ثم صرت شاباً ، وكنت شاباً فصرت كهلا ، فهل خطر على بالك أن تسأل : هل هذا الشاب هو ذلك الطفل ؟ وكيف ؟ وما جسمي بجسمه ، ولا عقلي بعقله ، ولا يدي هـذه يده الصغيرة . فأين ذهبت تلك اليد ؟ ومن أين جاءت هذه ؟

وإذا كانا شخصين مختلفين فأيهما أنا ؟ هل أنا ذلك الطفل الذي مات ولم يبق فيّ من جسده ولا فكرة بقية ؟ أم أنا الكهل الذي يلقي هذا الحديث ؟ أم أنا الشيخ الذي سيأتي على أثره بجسمه الواني وذهنه الكليل ؟ ما أنا ؟

وتقول : « حدثت نفسي ، ونفسي حدثتني » فهل فكرت مرة ، ما أنت ؟ وما نفسك ؟ وما الحد بينهما . وكيف تحدثك أو تحدثها ؟

وتسمع الصباح جرس الساعة يدعوك الى القيام ــ فقد حان الموعد ، فتحس من داخلك داعياً يدعوك الى النهوض ، فإذا ذهبت تنهض ناداك منك مناد أن تريث قليلا واستمتع بدفء الفراش ، ولذة المنام . ويتجاذبك الداعيان : داعي القيام وداعي المنام . فهل تساءلت ما هذا ؟ وما ذاك ؟ وما أنت بينهما ؟ وما الذي يزين لك المعصية ومن يصور لك لذتها . ويحرّك إليها ؟ وما الذي ينفرك منها ، ويبعدك عنها ؟ يقولون : إنها النفس وإنه العقل . فهل فكرت يوماً ما النفس الأمارة بالسوء ، وما العقل الرادع عنه ؟ وما أنت ؟

وتثور بك الشهوة ، حتى ترى الدنيا كلها مخدع الحبيب ، والحياة

كلها متعة الجسد ، وتتمنى أماني لو أعطيها شيطان لارتجف من فظاعتها الشيطان ، ثم تهدأ شهوتك فلا ترى أقبح من هذه الأماني ، ولا أسخف من ذلك الوصال !

ويعصف بنفسك الغضب حتى ترى اللذة في الأذى ، والمتعة في الانتقام . وتغدو كأن سبعاً حل فيك ، فصارت إنسانيتك وحشية ... ثم يسكت عنك الغضب ، فتجد الألم فيما كنت تراه لذة ، والندم على ما كنت تتمناه .

وتقرأ كتاباً في السيرة ، أو تتلو قصة ، أو تنشد قصيدة ، فتحس كأن قد سكن قلبك ملَك فطرت بغير جناح الى عالم كله خير وجمال ، ثم تدع الكتاب ، فلا تجد في نفسك ولا في الوجود أثارة من ذلك العالم .

فهل تساءلت مرة ما أنا من هؤلاء ؟ هل أنا ذلك الانسان الشهوان الذي يستبيح في لذته كل محرم ويأتي كل قبيح ؟ أم ذلك الانسان البطاش الذي يشرب دم أخيه الانسان ، ويتغذى بعذابه ويسعد بشقائه ؟ أم ذلك الانسان السامي الذي يحلق في سماء الطهر بلا جناح ؟ أسبع أنا أم شيطان أم ملك ؟

* * *

أتحسب أنك واحد وأنك معروف ، وأنت جماعة في واحد ، وأنت عالم مجهول ؟ كشفت مجاهل البلاد ، وعرفت أطباق الجو ، ولا تزال أنت مخفياً ، لم يظهر على أسرارك أحد . فهل حاولت مرة أن تدخل الى نفسك فتكشف مجاهلها ؟

نفسك عالم عجيب ، يتبدل كل لحظة ويتغير ، ولا يستقر على حال : تحب المرء فتراه ملكاً ، ثم تكرهه فتبصره شيطاناً ، وما ملكاً كان قط ولا شيطانا ، وما تبدل ، ولكن تبدلت حالة نفسك . وتكون في مسرة فترى الدنيا ضاحكة ، حتى أنك لو كنت مصوراً لملأت صورتها على لوحتك

بزاهي الألوان ، ثم تراها وأنت في كدر ، باكية قد غرقت في سواد الحداد . وما ضحكت الدنيا قط ولا بكت ، ولكن كنت أنت الضاحك الباكي .

فما هذا التحول فيك ؟ وأي أحكامك على الدنيا أصدق ، وأي نظريك أصح ؟ واذا أصابك إمساك فنالك منه صداع ، ساءت عندك الحياة ، وامحى جمال الرياض ، وطمس بهاء الشمس ، واسود بياض القمر ، وملأت الدنيا فلسفة شؤم إن كنت فيلسوفاً ، وحشوت الأسماع شعر بؤس إن.. كنت شاعراً . فإذا زال ما بك بقدح من زيت الخروع ، ذهب التشاؤم في الفلسفة ، والبؤس في الشعر . فما فلسفتك يا أيها الانسان وما شعرك إن كان مصدرهما فَقْد قدح من زيت الخروع .

وتكون وانياً ، واهي الجسم ، لا تستطيع حراكاً ، فإذا حاق بك خطر ، أو هبط عليك فرح ، وثبت كأن قد نشطت من عقال ، وعدوت عدو الغزال ، فأين كانت هذه القوة كامنة فيك ؟ هل خطر على بالك أن تبحث عن هذه القوة فتحسن استغلالها ؟ هل تساءلت مرة عندما تغضب أو تفرح فتفعل الأفاعيل - كيف استطعت أن تفعلها ؟

إن النفس يا أخي كالنهر الجاري ؛ لا تثبت قطرة منه في مكانها ، ولا تبقى لحظة على حالها ، تذهب ويجيء غيرها ، تدفعها التي هي وراءها ، وتدفع هي التي أمامها . في كل لحظة يموت فيك واحد ويولد واحد ، وأنت الكل ؛ أنت الذي مات وأنت الذي ولد ، فابتغ لنفسك الكمال أبداً ، واصعد بها الى الأعالي ، واستولدها دائماً مولوداً أصلح وأحسن ، ولا تقل لشيء (لا أستطيعه) فإنك لا تزال كالغصن الطري ، لأن النفس لا تيبس أبداً ، ولا تجمد على حال ، ولو تباعدت النقلة ، وتباينت الأحوال .. إنك تتعود السهر حتى ما تتصور إمكان تعجيل المنام ، فما هي إلا أن تبكر المنام ليالي حتى تتعوده فتعجب كيف كنت تستطيع السهر ! وتدمن الخمر حتى ما تظن

أنك تصبر عنها ، فما هي إلا أن تدعها حتى تألف تركها ، وتعجب كيف كنت تشربها . وتحب المرأة حتى ما ترى لك حياة إلا بها ، فما هي إلا أن تسلوها حتى تعجب كيف كنت تحبها . فلا تقل لحالة أنت فيها ، لا أستطيع تركها ، فإنك في سفر دائم ، وكل حالة لك محطة على الطريق ، لا تنزل فيها حتى ترحل عنها .

* * *

فيا أخي . اعرف نفسك ، واخلُ بها ، وغصْ على أسرارها . وتساءل أبداً : ما النفس ؟ وما العقل ؟ وما الحياة ؟ وما العمر ؟ والى أين المسير ؟

ولا تنس أن من عرف نفسه عرف ربه ، وعرف الحياة ، وعرف اللذة الحق التي لا تعدلها لذة . وأن أكبر عقاب عاقب به الله من نسوا الله أنه أنساهم أنفسهم !

مجانين

نشرت سنة ١٩٤٦

إذا رأيتم رجلاً يمشي في الطريق منفوشَ الشعر ، شارد النظر ، قد لبس معطفه على القفا ، ومشى على غير هدى .. قلتم إنه (مجنون) ... وقد يكون (مجنوناً) ، ولكنه قد يكون فيلسوفاً ... او شاعراً ... أو رياضياً ...!

وإذا سمعتم أن رجلاً لا يفرق بين السراويل والقميص ، ولا بين الجمعة والخميس ، قلتم إنه « مجنون » ... ولكن (أناتول فرانس) ، والعهدة على الراوي (جان جاك بروسّون) دعي الى وليمــة يوم الأحد ، فذهب يوم السبت ولبث ينتظر متعجباً من تأخر الغداء ، ولبثتْ ربّة الدار تنظر متعجبة من هذه الزيارة المفاجئة ، ثم لم يرض أن يصدق أنه يوم السبت ... فهل كان (أناتول) نابغة قومه في البلاغة وباقعة العصر مجنوناً ؟!

وإذا شاهدتم رجلاً يعتزل في كوخ ، أو ينفرد في غار ، ولا يقبل على الدنيا ، ولا يكلم الناس قلتم إنه (مجنون) ، ولكن (الغزالي) عاف الدنيا وقد اجتمعت له ، والمجد وقد أقبل عليه ، والرياسة وقد أتته منقادة تسعى إليه ، وحبس نفسه في أصل منارة الجامع الأموي في دمشق ، فهل كان (الغزالي) حجة الاسلام وعلم الأعلام مجنوناً ؟!

واذا بلغكم أن إنساناً نسي اسمه قلتم إنه (مجنون) ، ولكن (الجاحظ)

نسي كنيته وطفق يسأل عنها حتى جاءه ابن حلال بالبشارة بلقياها ، فقال له : أنت أبو عثمان ! فهل كان (الجاحظ) عبقري الأدب ، ولسان العرب مجنوناً ؟

* * *

ونيوتن ... وقد كانت في داره قطة ، كلما اغلق عليه بابه ، وقعد الى كتبه ومباحثه ، أقبلت تخرمش الباب وتخشخش بأظفارها فتشغله عن عمله حتى يقوم فيفتح لها ، فلما طال عليه الأمر كدّ ذهنه ، وأطال بحثه ، فاهتدى إلى المخلص ... ففتح في أسفل الباب فتحة تمرّ منها فاستراح بذلك من شرها ... ثم ولد لها ثلاث قطيطات ففتح لكل واحدة منها فتحة ... لم يستطع هذا العقل الكبير الذي وسع قانون الجاذبية أن يتسع لحقيقة صغيرة : هي أن الفتحة تكفي القطة الأم وأولادها !

وأمبير ... وقد كانت تعرض له مسائل في الطريق ، فلا يجد قلماً لها وورقاً ، فحمل معه حوّاراً[1] ، فكلما عرضت له مسألة ، ورأى جداراً أسود ، وقف فخط عليه ، فرأى مرة عربة سوداء واقفة ، فجعل يكتب عليها أرقامه ورموزه ، واستغرق فيها ، حتى سارت العربة ، فجعل يعدو خلفها وحوّاره بيده ، وهو لايدري مايصنع !

وهنري بوانكاريه ... وقد دعا قوماً الى وليمة في داره ، وضرب لها الساعة السابعة موعداً ، فلما حل الموعد وجاء القوم ، كان مشغولاً ... فدعوهُ فلم يسمع ، وألحوا عليه فلم ينتبه ، وكانوا يعرفون شذوذه ، فأكلوا وانصرفوا ... وقام بعد ساعتين فأمّ غرفة المائدة ، فرأى الصحون الفارغة

(١) الحوار : (الطباشير) لا بأس بعربيتها لأن التحوير هو التبييض .

والملاعق المستعملة وبقايا الطعام ، فجعل يفكر : هل أكل أم هو لم يأكل ؟ ثم غلب على ظنه أنه قد أكل ، فعاد الى عمله !

وأمر الله أفندي ... العالم التركي المشهور صاحب المعلمة التركية[1]، وقد كان يركب البحر كل يوم مابين داره في (اسكدار) وعمله في (اسطامبول) ، فركب يوماً وكان الى جنبه موظف كبير في السفارة البريطانية ، وكان في جيبه فستق حلبي ، وكان (أمر الله أفندي) مشغول الفكر ، فجال بيده وهو لايشعر ، فسقطت في جيب البريطاني ووقعت على الفستق فأخرج منه فأكل ، وظنّ الرجل أنه مزاح ، فسكت ، ولكن الشيخ عاد وأوغل في الأكل حتى كاد يستنفد الفستق كله ، وكان الفلك مزدحماً مافيه مفر للبريطاني من هذه الورطة ، فأحبّ أن يتلطف بالشيخ حتى يكف ، فسأله : كيف وجدت الفستق ؟ قال : « عال ! » وعاد الى تفكيره وأكله ؛ فقال له : ولكن ليس في جوار الدار مثله أشتريه للأولاد ، واذا دخلت عليهم من غير فستق بكوا ... قال الشيخ : « عجيب » ! وعاد الى الأكل والتفكير ، فقال له : أفلا تتكرم بإبقاء شيء لهم ؟ قال : « بلى ، بكل امتنان » ، وأخرج طائفة من الفستق فدفعها الى الانكليزي وأكل الباقي !

وقد وُلّي وزارة المعارف وأعطي سيارة ، فكان كلما بلغت به السيارة المنزل ، وفتح له السائق الباب ، أخرج كيسه وسأله : كم تريد ؟ فيقول له : ياسيدي هذه السيارة لمعاليك ، فيتذكر ويقول : طيب .

وقد سألته امرأة مرة ، وكان يمشي أمام داره : أين دار وزير المعارف ياسيدي ؟ فقال لها : ومن هو وزير المعارف الآن ؟

وصديقنا اللغوي العراقي عبد المسيح وزير[2] ... وقد دخل مرة غرفة

---

(١) أي دائرة المعارف ، وياليتهم سموها (معلماً) على وزن (معجم) .

(٢) وخبرت أنه وضع كتاباً في ذهول العلماء ولم أره ، وأشكر أحد تلاميذي في العراق اذا تكرم فأهداه إلي .

غير غرفته في وزارة الدفاع ، وكان (طاب ذكره) من كبار موظفيها ، فرأى أثاثها على خلاف ما كان يعهد ، فغضب ودعا الفرّاش ، وقال له : حوّلْ هذه المنضدة ، انقل هذا الهاتف [١] ، اعمل كذا ، افعل ذاك ... فلما استوت له كما يريد ، نظر فقال : أهـذه غرفتي ؟! قال : لا يا سيدي . فانتقل الى غرفتـه !

وكنا نزوره انا وأنور ، فدعا لنا مرة بشاي وتدفق بالحديث ، وهو يشرب كأسه ، فلما فرغت ، وضعها وتناول كأس الاستاذ العطار فشربها ، ثم ثلّثَ بكأسي ، فلما جاء الفراش يأخذ الكؤوس ، قال : سألتكم بالله ، هل تريدون كأساً أخرى ؟!

وشيخ الشام ومربي الجيل الشيخ الطاهر الجزائري ، وقـد حدثني الشيخ قاسم القاسمي أنهـم احتالوا عليه حتى اشتروا له جبة جديدة وألبسوه إياها ، وذهبوا به الى دمّر فجلسوا حول البركة العظيمة في منزل الأمير عمر ، وكان في المجلس الشيخ عبـد الرزاق البيطار ، والشيخ جمال الدين القاسمي ، وجلّة العلماء ، فما كان من الشيخ طاهر إلا ان قام فنزع الجـبة ، وجعل يغمسها في البركة ، ثم يدلكها بالتراب ، ثم يغمسها ، ثم علقها على غصن حتى جفت وتكرّشت فلبسها وقال : الآن استرحت ، إن الجبة الجديدة تشغل فكر صاحبها ، فأما العتيقة فإنه لا يبالي بها فينصرف الى تفكيره ...

وصديقنا الكبير سامي بك العظم مفتش العدلية العام [٢] ، وقد حدثني من فمه أنه دعا (فلاناً) وكان رئيساً للوزارة الى الغـداء في داره في أقصى المهاجرين ، فلما كان اليوم الموعود جاء الرئيس بسيارته الى باب المنزل ، فنزل منها وصرف السائق لئلا يطول عليه الانتظار ، واجتاز الحديقـة الممتدة ، وصعد الدرج العالي ، وقرع الباب ، فلم يرد أحد عليه ، فعاد الى البلد ماشياً

(١) لا يعرف التلفون في الشام إلا بالهاتف . (٢) يوم نشر هذا الفصل

في شمس الهاجرة من آب[1] . أما سامي بك ، فقد نسي الموعد ، ولم يكن في الدار أحد ، لأن أسرته في القاهرة ، فذهب فتغدى في المطعم !

وصديقنا الأديب العالم الراوية عز الدين التنوخي ، وقد دعا للبحث في إعداد مهرجان المتنبي من سنين جمهرة من أدباء البلد الى المجمع العلمي يوم كان أمين سرّه ، فلما جاءوا وجدوا المجمع مغلق الباب ، فذهب بعضهم الى دار الاستاذ يسأل عنه خشية ان يكون به مرض ، واذا هو يشتغل بتحقيق كتاب أبي الطيب اللغوي ، واذا هو يحدثهم عن الكتاب ، أما حكاية الدعوة ، فقد نسيها من أساسها !

* * *

أفكان هؤلاء ، وفيهم كل عبقري علَم ، وكل نابغة إمام ... أكانوا كلهم مجانين ؟

أما في رأي العامة ، فنَعَمْ !

ذلك لأن القافلة تمشي ، فمن سايرها عدّه أهلها عاقلاً ، ومن تقدم عنها يسلك طريقاً جديداً قد يكون أقرب وآمن ، عدّوه مجنوناً ، كمن تأخر عنها ليتيه في مجاهل الصحراء !

لكن ذاك جنون العبقرية ، وهذا جنون المارستان !

إن العبقري شغل بالعلم فكره كله ، فلم يبق منه شيء لفهم الحياة ، فصار عند أهلها مجنوناً !

وبين جنون العبقرية وجنون المارستان نوع ثالث ، ألا وهو جنون الغرام :

وكل الناس مجنون ولكن على قدر الهوى اختلف الجنون

والهوى ... يا ويح الهوى ، ما أكثر شعابه ، وما أضلّ أوديته !

---

(١) أغسطس .

الهوى ... ومنذا الذي لم يته في واد من أوديته ، ولم يسلك شعباً من شعابه ؟

إن من لم يهوَ الغيد الحسان ، هَوِيَ الرياض والجنان ، او الأصفر الرنان ، ومن لم تفتنه العيون التي في طرفها حور ، فتنته الشهرة واستهواه الجاه ... كل الناس مجنون ، ولكن أخطر المجانين : مجانين الغرام !

* * *

وهل في الدنيا أشد جنوناً ممن ينكر الحياة ويعرض عنها ، لا يريد ان يبصر وجهها ، ويراها سوداء في عينيه لا تنيرها الشمس ولا يضوّئها القمر ، كل ذلك لأن (امرأة) لم تمنحه قبلة ... يا حفيظ ! اللهم إنا نسألك السلامة !

أما عرفتم مجنون « ليلى » ؟ هـــذا الذي زهد في المجد والجاه والعلم والمال والجنة ... واجتوى حياة البشر ، وهام مع الوحش في البرية ، وملأ ايامه حسره وكآبة وغماً ، لأن .. لأن الله خلق عيني ليلى سوداوين فتانتين ، وجعل انفها رقيقاً دقيقاً ، وبرأ فمها احمر كالوردة ، حلواً كالسكر ، صغيراً لا يعرف إلا لغة القبل ...

نعم ، إنه جُنّ لأن الله لم يخلق ليلى هذه قبيحة شوهاء !

لقد كان يعيش قبل أن يعرف ليلى كما كان يعيش سائر أبناء آدم ، وكانت حياته كاملة سعيدة من غير ليلى ، فاشتهى يوماً ان يدنو من امرأة كما يشتهي كل رجل ، فقادته المصادفـــة الى ليلى ، فأرادها ... فلم يصل إليها فجُنّ ... ولو كان عاقلاً لرأى في كل امرأة في الدنيا غناء من ليلى ... إن مثلَه مثل رجل اراد ان يدخل بيتاً له مئة باب ، فطرق باباً منها وعالجه ، فلم يفتح له ، فوقف يبكي وينتحب ، شوقاً الى الدخول ، ويضرب الجدار برأسه ، والأبواب التسعة والتسعون مفتحة أمامه !

وإن لكل رجل (ليلى) :

كل يغـــني على ليلاه متخذاً ليلى من الناس او ليلى من الخشب

فإن فاتته ليلى الناس أجزأت عنها ليلى الخشب ، فما بال قيس ؟ او لم يخلق الله في النساء جميلة إلا ليلاه ؟ او ليست المصادفة هي التي ألقتها بين يديه ، ولو كان رأى سعدى او سلمى ، لكان مجنون سلمى او سعدى ؟

* * *

وهذا مجنون آخر هو ستيفن مجنون ماجدولين :

ولقد عرفته مذ نقله الى الشرق إمام الكاتبين المنفلوطي رحمة الله على روحه ، ثم رأيت وجهه الفرنسي الأصيل في يوم كنت فيـــه انا ايضاً مجنوناً يفكر بأعصابه لا بدماغه ، ويرى الدنيا كلها خلوة من خلوات الحب ، والحياة قصة من قصص الغـــرام ، والوجود كله وجه فتاة فتانة ... وقاتل الله الصبا وحماقات الصبا ... عـرفته يومئذ فرأيته (بجنوني) بطلاً من ابطال الحب ، وشهيداً من شهداء العاطفة ، ولكني عدت اليه اليوم ، وقـــد عقلت ، او كدت ، فإذا هو ... أعوذ بالله !

يقول المجانين : إن الحب يطهر النفوس ويزكيها ، ويوسـع آفاقها وينميها ، ويسمو بها ويعليها ، فتعالوا اسمعوا حديث هـــذا المحب الفرنسي ماذا صنع به الغرام :

هجر اباه وتبرأ منه ، وأنكر حق أبوته ... ثم ذهب اخوه الى المعركة وخاف ان يسقط عن سرجه ، فبعث اليه يسأله ثمن سرج جديد ، فلم يرد عليه ، لأنه يحتاج الى المال لينفقه فيما هو أهم ، يريد ان يستأجر به مقعداً في المرقص يرى منه وجه ليلاه ، أي ماجدولينته ، فسقط اخوه عن سرجه ، ومات في المعركة ... ثم فارق اباه وبقي في العـراء ، فأحسن إليه واحد من اقربائه ،

واعطاه ما يبتغي من المال ، فكانت مكافأته إياه على إحسانه أن سرق ماله ، ودفع في صدره ، فعجل موته . . .

فعل ذلك كلـه من أجل امرأة ، أضاع كل شيء ليجدها ، ولكنها أعرضت عنه ، ومالت الى غيره . . . الى صديقه الذي قاسمه خبزه ، وشاركه فراشه ، صديقه الذي سلبه سريره من تحته ، فباعـه لينفق ثمنه على مآربه وهواه ، وهذا المجنون المغفل لا يحس ولا يدري ، لأن الحب اعماه وأصمه . وهل رأيتم محباً له بصر ؟ أعرضتْ عنه ، ولهـا الحق في الاعراض . . . هل تتزوج مجنوناً ؟ إن الزواج اذا بني على هـذا الجنون الذي يسميه اصحابه « حباً » ، صار البيت من بعـده مستشفى مجاذيب ، ومارستاناً من المارستانات ! !

تزوجت بغيره ، فذهب ينتزعها من زوجها الشرعي ، ويرى أنه أحق بها ، لأن اسمه واسمها منقوشان على شجرة زيزفون . . .

ما شاء الله كان ! إنك تستطيع ان تأخذ المرأة من بين ذراعي زوجها ، لأنك حفرت اسمها مع اسمك على شجرة ! اسمعوا يا عقلاء (وأين العقلاء) شريعة المجانين . . . اسمعوا منطق الحب !

هـذا هو الحب الفرنسي : تفريط بحق الأسرة ، واستهانة بواجبات الشرف والدين ، واستئثار قاتل يمحو من الحياة أسمى فضائلها ، لهذه اللذة التي ينالها ، ويفقر النفس العامرة بالايمان والفضيلة والمجد ، ولا يبقى فيها إلا صورة الحبيب ، يراه العاشق في الأفق اذا نظر إليه والشمس واقفـة للوداع ، وفي السماء اذا تأمل فيها ونجومها تتوقد في هدأة الليل ، وفي صفحة الماء وفي الروض البهيج ، وفي كل كتاب يقرؤه ، ومشهد يراه :

أريد لأنسى ذكرها فكأنما　　تمثل لي ليلى بكل سبيل

فيا رحمتا لهؤلاء المجانين ! إنهم عُمْي لا يبصرون من الدنيا إلا وجه امرأة واحدة ... صُمّ لا يسمعون إلا صوتها... بُلْه لا يشتغلون إلا بها... مجرمون لا يبالون بكل رذيلة اذا أوصلتهم اليها ... أذِلاء لأنهم فقدوا الرجولة والكرامة ، وغدا المثل الأعلى لهم ان يطيعوا هذه الرعناء الطائشة... لأن لها عيناً بلون السماء وزرقة البحر ...

هذا هو الحب يا ايها الشباب الصغار !

* * *

كل عاشق هو (ستيفن) ، ولو تناءت الديار ، وتباعدت الأزمان ، فاقرأوا سيرة ستيفن تقرأوا سيرة كل عاشق ...

لقد ارتضى ان يخسر كل شيء ليربح ماجدولين ، فلما خسرها لم يبق له شيء ... لقد غدا مجنوناً ... وهل يمكن ان يكون محب عاقلا ؟ ها هو ذا يحرق الورقة المالية التي لا يملك غيرها ... ليقرأ على ضيائها رسالة الشيطانة ... أعني الحبيبة ، ويبقى من بعدها طاوياً يتضور جوعاً ، لا يدري ان احلام الحب وحماقاته لا تملأ المعدة الفارغة ، وأن الرغيف الواحد أثمن عند الجائع من كل ما في الأرض من ليليَات وماجدولينات ... لقد غدا تائهاً يدور في السبل والطرقات ... وينام حيث يدركه المنام ... لقد صيّره الحب موجوداً كالمعدوم ... صار عضواً من الأمة أشلّ لا ينفع ولا يضر ، بل إنه يضر ولا ينفع !!

لقد سَدّ في وجهه طرقَ المجد ، وحجب عن باصرتيه نور الشمس ، فلم يبق فيه فائدة لنفسه ولا للناس ، بل لقد صار هُزْأه وغدا مَسْخَرة ... وكذلك يكون العاشقون !

وينال هذا المجنون خمسة عشر ألفاً يستطيع ان يصنع بها الجلائل ، ويرفع بها لنفسه ولأمته مجداً .. فماذا صنع بها ؟ دفعها الى عابر سبيل

لا يعرفه ... فما أكرم هؤلاء العشاق الذين يمنحون ثروتهم كلها الى من لا يعرفون ، ويضن الواحد منهم على أخيه بثمن مرج لفرسه ، ويتركه يموت في المعركة ...!

ثم يأتيه المال الوفير ، فينفقه في أتفه الأمور وأحط الرذائل ، يستأجر مقاصير المسرح كلها ، ويرى الرواية وحده ... لماذا ؟ ليغيظ المرأة التي أحبها فتزوجت بغيره ، لأنها تريد ان يكون زوجها رجلاً مثل الرجال ، لا امرأة لها شاربان ولحية ولا عقل لها ، ثم يترقى سنتين في فضائل الحب ، فينتهي الى الغصب والنهب من حانة ... ويعلن جنونه ليهدم به الحياة البشرية ، فيزعم ان الحب أقدس الواجبات ، والزواج شر الرذائل ، ثم تختم هـــذه الحياة النبيلة ... السامية ... بجريمة القتل !

هذا هو مجنون ماجدولين ، وذاك مجنون ليلى ... أما سـائر المجانين ، فهم بقية العاشقين !

* * *

فإذا كان في الدنيا جنون عبقرية ، وجنون مارستان ، فإن جنون الهوى هو جنون الاجرام ، لا سيما اذا كان هوى على الطريقة الفرنسية ...

فيا أيها الشباب الصغار ! اذا لم يكن بدّ من الجنون ، فلنجنّ بالمعالي والمكارم والعلم والفن ، أو لنسكن المارستان ..

أما المرأة ، فصدقوني اذا قلت لكم : إنها لا تستحق أن يُجنّ بها أحد ! ورجائي من القراء ، ألاّ يخبروا بهذا احداً من النساء !!

بيني وبين نفسي

نشرت في مستهل عام ١٩٣٧

نظرت من النافذة فاذا كل شيء أراه نائم ، هذه النخلة التي تقوم حيال شباكي ، وقبة الأعظمية التي تبدو من ورائها في عظمة وجلال ، ودجلة التي تجري صامتة مهيبة ، والقمر الذي يغسل ماءها بشعاعه . .

واذا على الطريق شبح يسير منهوكاً !

* * *

على الطريق الذي لا يمتد في سهل ولا وعر ، ولا يسير على سفح جبل ، ولا شاطىء بحر ، ولا يسلك الصحراء ، ولا يخترق البساتين . . . ولكنه يلف السهل والوعر ، والجبل والبحر ، والصحراء والبساتين وكل ما تحتويه ، ومن يكون فيها . . .

على الطريق الطويل الذي يلوح كخط أبيض ، يغيب أوله في ظلام الأزل ، ويختفي آخره في ضباب الأبد . . .

رأيت شبحاً يسير على . . . طريق « الزمان » !

* * *

وسمعت صائحاً يصيح بالدنيا النائمة : تيقظي . . إن العام يرحل الآن !

ففتحت النخلة عينيها ونظرت ، فلما رأته قالت : قد رأيت عشرات مثله تأتي وتذهب ، فلم تبدل شيئاً ... الفأس لاتزال باقية ، وهذا الوحش البشري لايزال ينتظر تمري ليسلبنيه ، ثم إذا قنط مني كافأني بلذع النار . . . فما لي وللعام الراحل ؟

وأغمضت عينيها فنامت ، ولم تكترث !

ونظرت القبة ، فلما أبصرته قالت : قد رأيت مئات مثله تجيء وتروح ولم تبدل شيئاً فهذا النخيل قائم حولي كما كان ، والشمس تطلع عليّ كل يوم وتغيب ، والنجوم تسطع فوقي كل ليلة ، والأرض تنتظرني ، تريد أن أهرم فتجذب أحجاري اليها وتأكلني ... وكل شيء على حاله ، لم يتبدل إلا الانسان : كان الخليفة يمشي تحتي ، ويخطر بين أساطيني في حلل المجد وأردية الجلال ، إن أمر أطاعت الدنيا وإن نادى لبّى الدهر ، وإن مال مالت الأرض ، وكان الناس يطيفون بي أجلة أمجاداً ، عباداً أذلاء لله ، وملوكاً أعزة على الناس ... فأصبحت وحيدة منعزلة ، لا أرى إلا هذه الفئات من العامة المساكين الذين تعرّوا من كل جاه الا جاه العبادة ، ومجد إلا مجد الآخرة . . . فمالي وللعام الراحل ؟ وأغمضت عينيها ، وعادت تحلم ، ولم تكترث !

وتنبهت دجلة ونظرت ، فلما رأته قالت : قد رأيت ألوفاً مثله تمر في هذ االطريق فلم تعمل في الكون شيئاً ولم تغيّر إلا الانسان ، كانت تقوم على شاطئيّ القصور الفخمة ، تتوج هامها العظمة ، ويحل أرجاءها الجلال ، ويمثل في أبهائها المجد ، ويقف على بابها التاريخ ، يصدر عنها ويكتب حديثها ، وتنبثق منها اشعة الحضارة والفن ، وتسطع منها أنوار العلم والأدب ، وتومض في شرفاتها وأروقتها العمائم التي كانت على أشرف رؤوس وأحفلها بالفضائل والعلوم . . . فلم يبق من هذا كله إلا أطلال ، يريدون أن يطمسوا اليوم

آثارها ويغطوا عليها بقبعة . . . ولكن ذلك لن يدوم ، إن طريق الزمن لا يزال مسلوكاً . . . ثم صمتت وعادت تجري كما كانت تجري ولم تكترث!

وأنصت القمر وأطلّ ينظر ، فلما رأى العام الراحل قال : لقد رأيت ملايين مثله وقد مللت مرّ السنين وكر العصور . فمالي وله ؟ وعاد يفيض نوره على الكون ولم يكترث !

وبقيت وحدي !

* * *

بقيت وحيداً . . . فنظرت في نفسي :

لقد صحبت تسعاً وعشرين قافلة من قوافل الزمان . . . فهل اقتربت من آمالي ؟ هل دنوت من الغاية التي أسعى اليها في سفري ؟

ثم سألت نفسي : ما هي الغاية التي تسعَيْن إليها ؟ أتسيرين إلى غير مانهاية ؟ كلما مرّ عام تعلقت به فسرت معه حتى يضيق بك عام من الأعوام فيقذف بك إلى وادي الموت ؟ ألا تعلمين أين المسير ؟

ولم تكن النفس ترقب مثل هذا السؤال ، فاضطربت اضطراباً شديداً ، وكثرت فيها الآراء ، واشتد بين أعضائها الخلاف ، ثم انشقت انشقاقاً ، وانقسمت أحزاباً ، وانتثرت نفوساً .

* * *

قالت النفس الأولى : الغاية ياصاحبي واضحة ، إننا نسعى لخدمة هذا الجسم الذي نحمله ، نحيا لسدّ حاجاته ، وإجابة رغباته ، وإمتاعه بلذاته

قالت الثانية : خسئت أيتها « النفس الفاجرة » إننا لم نسخر من أجل هذا العنصر الأجنبي ، إن الجسم ليس منا

قالت الأولى : أفهو إذن من غيرنا ؟ وقهقهت ضاحكة

قالت : اسخري من نفسك . انه لو كان منا ، لما عشنا إلا فيه ولم نعش بعده ، إنه ثوب نلبسه ونخلعه ، أفيكون الثوب جزءاً من اللابس ؟

قالت الأولى : إنني لم أفهم فلسفتك ، أتزعمين أن يدي ورجلي ليستا مني ؟

قالت : نعم ، إن المرء لو قطعت يده او رجله ، او ذهب سمعه او بصره , لا تنقص نفسه شيئاً ، بل لقد يكون الأعمى الأصم اكمل نفساً واقوى عقلا واسمى روحاً ، من السميع البصير ، وإنك لتعلمين هذا ولكنك « نفس سوء » تريدين الاستمتاع بشهواتك ، ونحن لا نحيا لنيل الشهوات !

قالت الأولى : فلم إذن نحيا يا أيتها « النفس المفكرة ؟ »

قالت : نحيا لنكشف خبايا الوجود ، لنستطلع طلع الكائنات ، لنعرف نواميس الكون واسرار الطبيعة . . . من أجل هذا نحيا

* * *

فانبرت لها نفسي الثالثة . . . فقالت :

ـ كنت أظنك عاقلة تفهمين وتعرفين ، فإذا أنت جاهلة . ويحك ! ما نحن والوجود ؟ مالنا وللطبيعة ؟ ماذا يعنينا أكانت المجرة نهراً في السماء ، أم كانت مجموعة من الكواكب وماذا ينفعنا أن يكون في المريخ ناس ، او يكون مقفراً لا ناس فيه مالنا ولهذا الفضول؟

قالت الثانية : إنك « نفس شاعرة » تنكرين قيمة العلم

قالت : إن هذا العلم خسران لك يا حمقاء ! إنك كنت ترين في الكسوف حادثاً غريباً مليئاً بالأسرار يبعث فيك عالماً من العواطف ، فلما علمت أنه حادث طبيعي : كوكب يقوم بحذاء كوكب ، ضاع معناه ، وانتفت اسراره ، ولم يعد يثير فيك عاطفة او يهيج فيك حساً

قالت الثانية : وماقيمة العاطفة ؟ أتريدين أن ندع العلم من اجل العاطفة ؟

قالت الثالثة : لا بل تعلمي ، ولكن تعلمي ما تحتاجين اليه ؛ العلم دواء يؤخذ بمقدار الحاجة ، ولكن الشعور غذاء لا يستغني عنه ، فنحن نحيا لنرى الجمال ونستمتع به ونتذوقـــه في الطبيعة وفي الانسان وفي الفن . . . من أجل هذا نحيا

* * *

فوثبت النفس الرابعة « النفس المؤمنة المطمئنة » فقالت : ياللسخف

قالت الثالثة وقد غاظها ماقالت : أي سخف ترين من فضلك ؟ اذا كنا لا نرى الجمال فلم نحيا ؟

قالت الرابعة متهكمة : كأنـــك تحيين الآن ! إنك ياسيدتي سجينة فاسعي لتتخلصي من قيود السجن ، ثم انطلقي في فضاء الحرية ، فعيشي في الحياة الأخرى : حياة الانطلاق

ورأيت أن المناقشة قد طالت وغدت مملـــة ، و تشعبت فيها الآراء فأسكتتهن ورجعت افكر وحدي .

* * *

قلت : إنني لا ادري لماذا احيا ! ولا أعرف ماهي صلتي بالكون !

كنت أنظر الى الدنيا من خلال الكتب ، واشرف عليها من نافذة المدرسة ، فأراها صغيرة كقبضة الكف . فحسبت أني اذا خرجت من المدرسة وحزت الشهادة قبضت عليها بيدي

وعشت بهذا الأمل ، لم اعرف حقيقة الحياة ، ولم اعد لها العدة ، ولم اجد من يخبرني خبرها إلا هؤلاء الاساتذة . وهم قوم مخادعون ، لا يبصرون التلميذ بالدنيا كما هي في ذاتها ، بل كما يريدون هم أن تكون . . .

وخرجت من المدرسة وهبطت من سماء الخيال الى ارض الحقيقة ، فإذا الطريق مزروع بالشوك ، فانطلقت امشي واجاهـــد بهمة الشاب القوي الطموح ، فمـــا قطعت من الطريق الا قليلاً حتى وجدت هذه (الطفيليات البشرية) تتعلق بكتفي وتستمسك بي ، حتى اذا دنوت من اول منزل وهممت أن استريح فيه وثبت فسبقتني اليه ، فسرت اجاهـــد وانقدم ، أؤم منزلاً آخر ، حتى هدني التعب ، ونال مني النصب ولم اصل الى شيء .

ولاح لي فجأة قصر عظيم على الطريق ، تلمـــع قبابه المغشاة بالذهب ، وتشرق جدرانه المغطاة بالفضة ، وتضيء نقوشه وزخارفه في شعاع الشمس ، ويقرأ على بابه بأحرف من النور ، « هـــذا قصر اليأس » فراعني مظهره ، وهممت أن احيـــد عن الطريق فأدخله ولكنني نظرت اليه اولا ، فإذا هو موحش مظلم في وسطه قبر مفتوح مملوء بالأساود والأفاعي . . . واذا هو خال من البشر ، ليس فيه إلا جماعة الشعراء البائسين ، يعدّون قصائدهم لتدفن معهم في هذا القبر الأسود فلا يدري بها احد .

فوليت هارباً ، وآثرت العودة الى مقارعة الشوك ، وجهاد الحياة .

عدت فقارعت وجاهدت ، فـــلم اصل الى شيء . . . فسألت نفسي : هل أيأس ؟

* * *

سألتها وحدثتها ، ولكني جهرت بالحديث فأيقظت النائمين . . .

أطلت عليّ النخلة فقالت : إلام تجاهد وتناضل ؟ ماذا تريد أيها الرجل ؟ ألا تقنع مثلي بأن تقف في مكانك حتى يأتيك الموت ؟

قلت : لا ، إن لي غاية واحدة ، هي ان ابقى دائماً اجاهد واناضل !

فضحكت وقهقهت اوراقها وعادت الى منامها .

ومدّت القبة رأسها فقالت : ألا تنام مثلي أيها الفتى وتحلم ؟ لماذا تعدو في طريق القبر ؟ قلت : إني احب أن اصل الى القبر لأني سأخرج منه الى الفضاء الواسع ، سأخلع فيه ثوبي الجثماني ثم انطلق صعداً

فذهبت وهي تحدث نفسها : ينطلق صعداً ؟ أنا هنـــا منذ الف ومائة سنة ولم انطلق صعداً ، ثم رجعت الى المنام

وقالت دجلة وقد صفّق لي ماؤها سروراً :

إمض أيها الغلام امض ؛ إن طريقك طويل ولكنك قوي ، إنك لا تمشي الى القبر لتفنى ولكن تدخل من باب القبر الى عـــالم الخلود ، هأنا قد بلغت من العمر سبعمائة وخمسين الف سنة ولكنك قد ولدت بعقلك قبـلي ، وستعيش بروحـك من بعد أن تموت الجبـال ، وتغرق البحار ، ويختنق الهواء . . . وتدفن الصحراء !

وأمّن القمر على كلامهـا ، واطلّ عليّ من النافــذة فصافحني بشعاعه وقال :

لقد صدقت ! إنك تعيش الآن لتعد العدة للحياة . . . حين تنطلق من قيود الجسم

ثم صمت . . . وصمت !

* * *

وكان العام يقطع اللحظة الأخيرة . . . فصحت به :

أنا الذي يهتم بك أيها العام . . . أنا الذي يودعــك ويستقبل غيرك ، لا النخلة ولا القبة ولا دجلة ولا القمر . . . تلك للفناء وانا للبقـاء . . . تلك تنتظر الموت ، وانا انتظر الحيـاة . . . انا امشي على هام السنين الى الحياة الأخرى !

شهيد العيد

نشرت سنة ١٩٤٦

كلفتني محطة الشرق الأدنى أن اكتب قصة لتذاع عني اول يوم من عيد الأضحى ، وهذا هو العيد قد حلّ حلّت عليكم فيه البركات والخيرات ، ولكن القصة لم تكتب . . . إن لها قصة ياسادة فاسمعوا قصتها . . .

* * *

انا رجل من طبعه التأجيل والتسويف ، أؤخر الأمر مادام في الأجل فسحة وارجئه الى آخر لحظة منه ، ثم اقوم كالمجنون أنطّ (١) قافزاً مثل الأرنب الذي زعم (اخونا . . .) لافونتين أنه نام حتى سبقته السلحفاة ، وإن لم اكن قد رأيت في عمري سلحفاة تسبق ارنباً . . .

فلما ورد عليّ كتاب المحطة نظرت فإذا بيني وبين موعد الاذاعة امد طويل فاطمأننت ونمت ، حتى اذا كانت ليلة العيد ، ولم يبق امامي الا ساعات معدودة اكتب فيها القصة وألحق بها البريد الجوي ، اخذت قلمي وصحيفتي لأكتب فسدت عليّ ابواب القول ومنافذه وكواه . . . وعدت مرتجاً عليّ محبوساً لساني كأني ما مارست الكتابة قط ، وكذلك نفس الأديب ياسادة تنفتح تفتّح الينبوع الدفاق ، ثم تشح شحّ الصخرة الصماء ماتبض بقطرة ماء ، ولكن الناس لايصدقون ذلك : إنهم يحسبون الكاتب يخرج المقال من نفسه

---

(١) نط في الأرض : ذهب . وهي من العامي الفصيح

كما يخرج التاجر البضاعة من دكانه ، لا يدرون أن هذا الكلام يجيء احياناً حتى مايقدر الأديب على ردّه ، ويعزب حيناً حتى لايلقاه ، وأنه يعلو ويصفو وينزل ويتعكر ، وماعجزت الليلة عيّاً ولا فهاهة ، فأنا اكتب في الصحف من عشرين سنة ، ولكن الكتابة بالأجرة بيع وشراء ، ولكل مبيع ثمن ، وانا احب أن انتصف وانصف النـــاس من نفسي ، لذلك رأيتني كلما سقطت على موضوع وزنته فوجدته لايساوي الثمن الذي تدفعه لي المحطة فتركته وفتشت عن اغلى ، وكلما خطرت لي فكرة طمحت الى اعلى ، حتى كاد يمضي الوقت ولم اصنع شيئاً ، ونزل بي مانزل بالأستاذ توفيق الحكيم لما كلفوه أن يضع حواراً للفلم وجعلوا له جعلاً ضخماً ، فحصر فيه فكره ، وحشد له قواه ، وفرّ لأجله من داره . ثم انتهى به الأمر أن ألّف كتاب (الحمار) ولم يضع الحوار .

عند ذلك ايست ولبست ثيابي ، وهربت الى الأسواق .

* * *

جلت في الأسواق ، واسواق دمشق ليـــلة العيد كأنها المحشر ، قد اوقدت فيها المصابيح ، وفتحت المخازن ، وانتشر الباعة ، وتدفق عليهـا اهل البلد والفلاحون ، بالأزياء المختلفة واللغات المتباينات ، وكل بائع ينادي برفيع صوته ، وكل مشترٍ يصيح ، وكل مجتاز يتكلم ، والبضائع معروضات من كل مأكول وملبوس ومفروش ومنظور ومشموم ، وكلٌ يريد أن يعدّ الليلة عدته للعيد فيشتري فيها طعامه ولباسه . . .

وكنت اسير في هذا الزحام شارد الذهن ، نازح الفكر ، اعمل عقلي في هذه القصة . . . التي وعدت بها المحطة ، فأعلنت عنها وبشرت بها ، ثم لم استطع أن اكتبها ، حتى ، وصلت الى (باب المصلى [1]) ؛ فإذا انا بحشد عظيم من

---

(١) حي في اول (ميدان) الحصى في دمشق ، كان فيه مصلى العيد ، لما كان الناس يعرفون السنة فيصلون العيدين فيه لا في المساجد .

الناس قد احتشد حيال دكان ، فدفعني الفضول الى معرفة الخبر ، فأقبلت ادفع الناس بكتفي ، واشق طريقي بيدي كلتيهما واطأ اعقاب الناس وأقدامهم ، واصغي الى هذا الفيض العجيب من . . . النثر الفني . . . الذي جادت به قرائحهم ، فتدفق عليّ من ألسنتهم ، حتى بلغت المشهد ونظرت . . .

* * *

نظرت ، فرأيت اثنين يختصمان ويعتركان ، اما احدهما فكان مسكيناً قميئاً اعزل عاجزاً ، واما الآخر فكان ضخماً طوالاً كالح الوجه ، مفتول العضل ، وسخ الثوب ، قد حمل سكيناً في يده طويلة النصل ، حديدة الشفرة ، وهجم بها على صاحبه والناس ينظرون ولا ينكرون ، وصاحبه المسكين يصرخ ويتلفت تلفت المذعور ، يطلب الغوث ولا يغيثه احد ، ويبتغي المهرب فيسد عليه الناس طريق الهرب . . .

وإني لأفكر ماذا اصنع . . . واذا بالخبيث العاتي يذبحه والله امامنا ذبحاً ، ويتركه يتخبط بدمه ، ويوليه ظهره ويمضي الى دكانه متمهلا ، فيعالج فيها شأنه على عادته ، كأنه لم يرتكب جرماً ولم يأت الأمر النكر جهاراً !

وكدت اهجم عليه ، واسلمه الى الشرط . ثم ذكرت أن الشجاعة في مثل هذا الموطن تهور وحماقة ، وأن المجرم بيده السكين لا يمنعه شيء أن يجأ بها من يريده بشرّ ، وطمعت أن يتحرك احد الواقفين فيقدم عليه فأتبعه واشد ازره ، فلاوالله ماتحرك احد منهم ، ولا جرؤ على ذلك ؛ بل لقد تكلم واحد منهم ، فلما رفع القاتل رأسه ونظر اليه رأيته يجزع منه ويفزع ، ويقول له بصوت مضطرب متلجلج : « الله يسلّم يديك » !

وحرت ماذا اعمل : أأبلغ الشرطة ، او ادعهم وامضي الى

داري لا عليّ ولا لي ؟ ثم رأيت أن خير ما افعل أن اكتب وصف ما رأيت ، وابعث به ليذاع ويعرفه الناس .

* * *

وهأنذا اتهم هذا الرجل بالقتل ، وادعو الحكومة الى القبض عليه حتى يعاقب ويكون عبرة لمن يعتبر . ولا يحسبن احد أنه فرّ ، او أن القصة متخيلة او مكذوبة ، او أنها من اساطير الأولين ، او من اخبار العصور الخوالي ، فالقاتل موجود في دكانه ، يغدو اليها ويروح الى بيته ، والقصة صحيحة رأيتها بعيني رأسي وانا سالم العقل غير مجنون ولا معتوه ، متيقظ غير نائم ولا حالم ، صاحٍ غير مخدّر ولا سكران ، ثم أني رأيتها الليلة البارحة !

* * *

هذه هي الحادثة الفظيعة التي كتب الله ان تكون هي موضوع قصتي التي فكرت فيها واطلت التفكير فكيف رآها الناس فلم يحفلوا بها ولم يأبهوا لها ؟ أفسدت الأخلاق ، وضاعت المروءات حتى لاننكر الأمر المنكر ، ام خارت العزائم ، وانخلعت القلوب حتى لا نجرؤ على المجرم الظالم ؟ وهل نامت الحكومة في الشام نومة اهل الكهف حتى ماتدري بالدم يسيل في شارع من اكبر شوارع دمشق ؟

لقد سكت الجميع ، حتى أن انسباء القتيل قد ناموا عن دمه ، وقعدوا عن الثأر له ، ولم يتقدم احد منهم شاكياً ولا مدعياً لأن القاتل كما قالوا ، عازم على ذبحهم كلهم إن قدر عليهم ، وماضيه حافل بمثل هذه الجرائم .

فما سر هذا السكوت ؟

لقد علمت السرّ بعدُ ياسادة . . .

ذلك أن المسكين الشهيد كان خروفاً من خرفان الضحية ، وأن القاتل كان جزّار الحارة ، وان الناس شاركوه في جرمه ، فأكلوا لحم الذبيح مشوياً ومقلياً ومطهياً واكلت معهم ، ونسيت من طيب اللحم هذا المشهد

هذه هي سنة الحياة ، يموت المسكين لنستمتع نحن بأكلة طيبة .

فكلوا منه انتم ايضاً هنيئاً ، واشربوا مريئاً ، واشغلوا بالأكل عن مطالبتي بالقصة . وكل عام وانتم بخير !

أعرابي في حمّام

نشرت سنة ١٩٣٥

صحبنا في رحلتنا الى الحجاز ، دليـــل شيخ من أعراب نجد يقال له صَلَبى ماراأيت أعرابياً مثله قوةَ جَنَانٍ ، وفصاحةَ لسان ، وشدة بيان ولولا مــكان النبرة البدوية من لسانه لحسبته قد انصرف الساعة من سوق عكاظ ، لبيان لهجته، وقوة عارضته ، وكثرة مايدور على لسانه من فصيح الكلام . وكان أبيّ النفس ، أشمّ المعطس ، كريم الطبـاع ، لكن فيه لوثة وجفاء من جفاء الأعراب ، رافقنا أيامـاً طويلة ، فما شئنا خلة من خلال الخير الا وجدناها فيه ، فكان يواسينا اذا أُصِبنا ، ويؤثرنا اذا أَضقنا ، ويدفـع عنا اذا هوجمنا ، ويفتدينا اذا تألمنا ، على شجاعة نادرة ، ونكتة حاضرة ، وخفة روح ، وسرعة جواب ، قلنا له مرة :

ــ إن (صَلَبَة) في عرب اليوم ، كباهـلة في عرب الأمس ، قبيـلة لئيمة يأنف الكرام من الانتساب اليها ، وانت فيما علمنـا سيّد كريم من سادة كرام، وليس لك في هذه القبيلة نسب ؟ فمالك تدعى صَلَبى . فضحك وقال :

ــ صدقتم والله ، ما أنا من صلبة ، ولا صلبة مني ، واني لكريم العم والخال ، ولكنّ لهذا الاسم نكتة أنا مخبركم بها .

قلنا : هات . قال :

ــ كان أبواي لا يعيش لهما ولد ، فلمـا ولدت خشيا عليّ الموت فسمياني صلبى . قلنا : ائن سمياك صلبى عشت ? قال :

- ان عزرائيل اكرم من أن يقبض روح صلبي

وسألناه مرة : هل انت متزوج يا صلبي ؟ قال :

- لقد كنت متزوجاً بشرّ امرأة تزوجها رجل ، فما زلت أحسن اليها وتسيء اليّ ، حتى ضقت باحتمالها ذرعاً فطلقتها ثلاثاً وثلاثين .

قلنا : انها تبين منك بثلاث ، فعلام الثلاثون ؟

فقال على الفور : صدقة مني على الأزواج المساكين !

وطال بنا الطريق الى تبوك ، وملّ القوم ، فجعلوا يسألونه عن تبوك ، ويكثرون عليه ، 'يتذمرون من وبعدها ، حتى اذا اكثروا قال لهم :

- مالكم تلومونني على بعدها ؟ والله لم أكن انا الذي وضعها هناك

ولم يكن صلبي يعرف المدن ، ولم يفارق الصحراء قط الا الى حاضرته تبوك (وتبوك لا تزيد عن خمسين بيتاً ...) فلما بلغنا مشارف الشام أغريناه بالابلاد [1] ودخول المدينة ، وجعلنا نصف له الشام ، ونشوقه فيتأبى ، وكنت صفيّه من القوم وخليله ونجيّه فجعلت أحاوله واداوره ، وبذلت في ذلك الجهد فلم أصنع معه شيئاً لما استقر في نفسه من كراهية المدن واساءة الظن بأهلها ، وكان عربياً حراً ، ومسلماً موحداً ، لا يطيق أن يعيش يوماً تحت حكم « الروم » أو يرى مرة مظاهر الشرك ...

فودعناه وتركناه ...

* * *

وعدت الى دمشق ، فانغمست في الحياة ، وغصت في حمأتها أكدّ للعيش ، وأسعى للكسب ، فنسيت صلبي وصُحْبته ، وكدت أنسى الصحراء وأيامها ، ومرّت على ذلك شهور ... وكان أمس فاذا بي ألمح في باب الجابية وسط الزحمة الهائلة ، وجهاً أعرفه فلحقت به اتبيّنه فاذا هو وجه صلبي ، فصحت به :

(١ أبلد دخل البلد ، كأنجد وأبحر وأصحر ، ومثلها أصبح وأمسى وأظهر

ـ حلبي !		قال : ـ لا حلبي ولا مثلبي

قلت : ولم ويحك ؟ قال : انا في طلبك منذ ثلاث ثم لا تأتي الحيّ ولا تلقاني ؟

فقلت له ضاحكاً : ـ وأي ثلاث وأي أربع ؟ أتحسبها تبوك فيها اربعمائة نسمة ؟ انها دمشق يا حلبي ، فيها اربعمائة الف انسان ، فأين تلقاني بين أربعمائة الف ؟

قال : ـ صدقت والله .

قلت : هلم معي . فاستخرجته من هذه الزحمة الهائلة ، وملت به الى قهوة خالية ، فجلسنا فيها ودعوت له بالقهوة المرة والشاهي ، فسر ، وانطلق يحدثني قال :

ـ لما فارقتكم ورجعت وحيداً ، أسير بجملي في هذه البادية الواسعة ، جعلت نفسي تحدثني أن لو اجبت القوم ورأيت المدينة . . . فلما كان رمضان مرّ بنا بعض الحضريين فدعوني الى صحبتهم لأرشدهم الطريق ، ثم أغروني كما أغريتموني ، وحاوروني كما حاورتموني حتى غلبوني على امري ودخلوا بي دمشق ، فما راعني والله يا ابن أخي الا سيارة كبيرة كسيارتكم هذه ، لكنها أهول وأضخم ، لها نوافذ وفيها غرف ، وقد خطوا لها خطين من حديد فهي تمشي عليهما ، فأدخلوني اليها ، فخشيت والله وأبيت ، فأقسموا لي وطمأنوني ، فدخلت ويدي على خنجري ان رأيت من أحد ما اكره وجأته به ، وعيني على النافذة ان رابني من السيارة أمر قفزت الى الطريق ، وجلست ، فما راعنا الا رجل بثياب عجيبة قد انشق ازاره شقاً منكرا ، ثم التف على فخذيه فبدا كأنما هو بسراويل من غير إزار ، وعمد الى ردائه فصف في صدره مرايا صغيرة من النحاس ، ما رأيت اعجب منها ، فعلمت انه مجنون وخفت أن

يؤذينا ، فوضعت كفي على قبضة الخنجر ، فابتسم صاحبي وقال : هو الجابي .

قلت : جابي ماذا ، جبّ الله (. . .) !

قال : اسكت ، انه جابي (الترام) أعني هذه السيارة .

ثم مدّ يده اليه بقرشين اثنين ، اعطاه بهما قتادة ورق ، فما رأيت والله صفقة أخسر منها ، وعجبت من بلاهة هـذا الرجل اذ يشتري بقرشين ورقتين لا تنفعان وجلست لا أنبس ، فلم تكن الا هُنَيَّة حتى جاء رجل كالأول له هيئة قِرْدية الا انه أجمل ثياباً ، وأحسن بزّة ، فأخذ هذه الأوراق فمزقها ، فثارت ثائرتي ، وقلت : هذا والله الذل ، فقبح الله من يقيم على الذل والخسيفة ، وقمت اليـه فلبّبته وقلت له :

ـ يا ابن الصانعة ، أتعمد الى شيء اشتريناه بأموالنا ، ودفعنا فيه قروشنا فتمزقه ، لأمزقنّ عمرك .

وحسبت صاحبي سيدركه من الغضب لكرامته ، والدفاع عن حقه مثل ما ادركني فاذا هو يضحك ، ويضحك الناس ويعجبون من فعلي ، لأن عمل هذا الرجل ـ فيما زعموا ـ تمزيق اوراق الناس التي اشتروها بأموالهم . . .

ولما نزلنا من هذه الآفة ، قال لي صاحبي : هلمّ الى الحمام . قلت : وما الحمام يا ابن أخي ؟

قال : تغتسل وتلقي عنك وعثاء السفر .

قلت : ان كان هذا هو الحمام ، فمالي فيه من مأرب ، حسبي هذا النهر أغطس فيه فأغتسل واتنظف .

قال : هيهات . . . ان الحمام لا يعدله شيء ، أو ما سمعت ان الحمام نعيم الدنيـا ؟

قلت : لا والله ما سمعت   قال : اذن فاسمع وره

وأخذني فأدخلني داراً فوراء في وسطها بركة عليها نوافير يتدفق منها الماء ، فيذهب صعداً كأنه عمود من البلور ثم يتثنى وينكسر ويهبط كأنه الألماس ، له بريق يخطف الأبصار ، صنعة ماحسبت أن يكون مثلها الا في الجنان ، وعلى أطراف الدار دكك كثيرة ، مفروشة بالأسرة والمتكآت والزرابي كأنها خباء الأمير ، فلم نكد نتوسطها حتى وثب الينا اهلوها وثبة رجل واحد ، يصيحون علينا صياحاً غريباً ، فأدركت انها مكيدة مدبرة ، وانهم يريدون اغتيالي ، فانتضيت خنجري وقلت : والله لا يدنو مني أحد الا قطعت رقبته ، فأحجموا وعجبوا ورعبوا ، وغضب صاحبي وظنني أمزح ، ومال علي يعاتبني عتاباً شديداً . فقلت له : ويحك أوما تراهم قد احاطوا بنا ? قال :

انهم يرحبون بنا ويسلمون علينا . فسكت ودخلت . وعادوا الى حركتهم يضحكون من هذا المزاح ، ويدورون حولنا بقباقيبهم العالية ، ويجيئون ويذهبون ، وانا لاأدري ما هم صانعون حتى قادونا الى دكة من هذه الدكك ، وجاءوا ينزعون ثيابنا فتحققت انها المكيدة ، وانهم سيسلبونني خنجري حتى يهون عليهم قتلي ، فقد عجزوا أن يقاتلوني وبيدي الخنجر ، فأبيت وهممت بالخروج ولكن صاحبي ألح علي وأقسم لي ، فأجبت واستسلمت وان روحي لتزهق حزناً على اني ذللت هذا الذل حتى اسلمتهم سلتي يسلبونني وأنا حي . ولو كنت في البادية لأريتهم كيف يكون القتال . . . حتى اذا تم أمر الله ولم يبق علي شيء ، فقلت : أما من مسلم ? أما من عربي ? أتكشف العورات في هذا البلد فلا يغير أحد ، ولايغضب انسان ?

فهدأ صاحبي من ثورتي وقال : أفتغتسل وأنت متزر ? قلت : فكيف أتكشف بعد هذه الشيبة وتذهب عني في العرب فتكون فضيحتي الى الأبد ?

قال : ومن أنبأك انك ستنكشف ؟ هلاّ انتظرت

فانتظرت وسكت فاذا غلام من أغلمة الحمام، يأخذ بيده ازاراً فيحجبني به حتى أنزع عني ازاري واتزر به ، فحمدت الله على النجاة ، وكان صاحبي قد تعرّى فأخذ بيدي وأدخلني الى باطن الحمام ، فاذا غرف وسطها غرف ، وساحات تفضي الى ساحات ، ومداخل ومخارج ملتّفة ملتوية ، يضلّ فيها الخرّيت ، وهي مظلمة كأنها قبر قد انعقدت فوقها قباب وعقود ، فيها قوارير من زجاج تضيء كأنها النجوم اللوامع ، في السماء الداجية ، وفي باطن الحمام أناس عري جالسون الى قدور من الصخر فيها ماء ، فتعوذت بالله من الشيطان الرجيم ، وقلت هذه والله دار الشياطين وجعلت ألتمس آية الكرسي فلااذكر منها شيئاً ، فأيقنت انها ستركبني الشياطين لما نسيت من آية الكرسي ، وجعلت أبكي على شيبتي أن يختم لها هذه الخاتمة السيئة ، واني لكذلك ، واذا بالخبيث يعود اليّ يريد أن ينزع هذا الازار الذي كسانيه ، فصحت به : يا رجل ، اتق الله ، سلبتنى ثيابي وسلاحي، وعدت تجردني وتعريني ، الرحمة يامسلمون ، الشفقة أيها الناس ! فوثب اليّ الناس ، وأحدقوا بي ، وجعلوا يضحكون ، فقال صاحبي :

ـ ماهذا ياصلبى ، لا تُضْحك الناس علينا ، اعطه الازار . قلت : وأبقى عرياناً ؟ قال : لا ، ستأخذ غيره ، هذا كساء يفسد اذا مسّه الماء ، وان للماء كساء آخر .

ونظرت فاذا عليه هيئة الناصح ، واذا هو يدفع اليّ ازاراً آخر ، فاستبدلته به مكرهاً وتبعت صاحبي الى مقصورة من هذه المقاصير ، فجلسنا الى قدر من هذه القدور ... وانا أستجير بالله لا أدري ماذا يجري عليّ ، فبينما انا كذلك واذا برجل عار ، كأنه قفص عظام ، له لحية كثة ، وشكل مخيف

وقد تأبط ليفاً غليظاً يا شرّ ما تأبط ، وحمل ماعوناً كبيراً ، يفور فوراناً ، فاسترجعت وعلمت أنه السمّ وانه سيتناثر منه لحمي ، فقصد اليّ ، فجعلت أفرّ منه وأتوثب من جانب الى جانب وهو يلحقني ويعجب من فعلي ، ويظن أني أداعبه ، وصاحبي يضحك ويقسم لي انه الصابون ، وانه لا ينظف شيء مثله .

قلت : ألا شيء من سدر ! ألا قليل من أشنان ؟

قال : والله ما أغشك ، فجرب هذا إنه خير منه

فاستجبت واستكنت ، وأقبل الرجل يدلكني دلكاً شديداً وانا أنظر هل تساقط لحمي ، هل تناثر جلدي ، فلا أجد الا خيراً فأزمعت شكره اولا أني وجدته يتغفلني فيمد يده من تحت الازار الى فخذي ، فيدلكه ويقرصه ، فقلت هذا ماجن خبيث ، ولو ترك من شره أحداً لترك لحيتي ، ولصرفته عني شيبتي ، وهممت بهشم أنفه وهتم أسنانه ، ولحظ ذلك صاحبي فهمس في أذني انه ينظفك وكذلك يصنع مع الناس كلهم ، فلما انتهى وصب عليّ الماء ، شعرت والله كأنما نشطت من عقال ، واحسست الزهو والخفة ، فصحت فأنكرت صوتي فقلت : ما هــذا ، أينطق على لساني مغنٍ من الجنّ ؟ وأعدت الصيحة فازددت لصوتي انكاراً . واستخفني الطرب ، فجعلت أغني وأحدو ، فقال صاحبي : لعلك استطبت صوتك ؟

قلت : إي والله . قال : أفأدلك على باب القاضي ؟

قلت : وما أصنع في باب القاضي ؟ قال : ألا تعرف قصة جحا ؟

قلت : لا والله ، ما أعرف جحا ولا قصته .

قال كان جحا عالماً نحريراً ، وأستاذاً كبيراً ، لكن كان فيه فضل نادرة ، وكان خفيف الروح ، فدخل الحمام مرة فغنى فأعجبه صوته ـ وكان أقبح رجل صوتاً ـ وراقه حسنه ، فخرج من فوره الى القاضي ، فسأله أن

ينصبه مؤذناً وزعم أن له صوتاً لا يدخل أذناً إلاّ حمل صاحبها حملا فوضعه في المسجد ... فقال القاضي : اصعد المنارة فأذنْ نَسمعْ

فلما صعد فأذن ، لم يبق في المسجد رجل إلاّ فرّ هارباً . فقال له القاضي : ي صوت هذا ، هذا هو الصوت الذي ذكره ربنا في الكتاب :

قال : أصلح الله القاضي ، ماينعك أن تبني لي فوق المئذنة حماماً ؟ !..

* * *

ولمح الاعرابي صديقاً له من أعراب نجد ، قد مرّ من أمام القهوة ، فقطع عليّ الحديث وخرج مهرولاً يلحق به .

أعرابي في سينما

نشرت سنة ١٩٤٠

وطالت غيبة « صَلَبي » ، فنسيته وطرحت همه عن عاتقي ، وعدت أدور مع الحياة كما تدور الساقية ، مغمض العينين ، أطوف في مفحص قطاة ، فلا غاية أبلغ ولا راحة أجد ، أغدو إلى كدّ العقل وعذاب النفْس ، وجفاف الريق وانقطاع النفَس ، وأروح ، وما بقي فيّ بقية لعمل ، ولا طاقة على كتابة ، فألقى بنفسي على كرسيٍ أو سرير ، أنتظر عذاب اليوم الجديد ..

وإني لغادٍ إلى المدرسة ذات يوم ، وإذا أنا بأعرابي في شملته يشير إليّ .. وهو يسير بين تلك المواخير : تريانون وليدو ولوازيس ـ حائراً يتلفت ... فقلت : لعلّه ضال أحب أن يستهديني ووقفت له ، فلما دنا وتبينته ، لم أملك من الفرح فمي ... فصحت في السوق وسط الناس . ومالي لا أصيح وقد وجدت « صلبي » بعد طول الغياب ... وحييته وحياني تحية ذاكر للصحبة ، حافظ للود ، وطفق يحدثني حديثه ...

قال : أتذكر ياشيخ ما ابتلاني به الله من أمر الحمام ؟ لقد وقعت في داهية أدهى ... ولقد والله كرهت الحضر ، وعفت المدن ، وأصبحت أخشى فيها على نفسي ، فما أدري ماذا سيكون من أمري بعد الذي كان ؟..

... قدمت الشام قدمة أخرى ، فكان أول ماصنعت أن قصدت صاحبي ، وكنت قد عرفت داره في (الميدان) .. فأكرمني وأحسن استقبالي ،

أحسن الله إليه ، وذبح لي خروفاً ،ولم يكتف بذلك من إكرامي بل أزمع أن يأخذني إلى سنمة ... قلت : ولكني لا أعرف سنمة هذا ، ولا أدري من هو ، فكيف تأخذني إليه ؟ قال : لابد من ذلك . فاستحييت منه وكرهت أن أخالفه بعد الذي قد صنع في إكرامي ... وقلت في نفسي : لولا أن سنمة هذا صديق له ، عزيز عليه ، ماسار بي إليه . ولقد قال المشايخ من قبلتنا : صديق صديقك صديقك ... فرضيت وقلت له : على اسم الله !

* * *

ولكن الرجل لم يسر بل أدركه لؤم الحضر فصاح بابنه أن هات الجرائد حتى نرى الرواية ، فتوجست خيفة الشر ، وقلت : إن الرجل قد جنّ ، وإلا فما بال الجرائد ؟ وهل تراه يضربني بها ؟ إذن والله لأريته عز الرجال واضربه ضرباً يبلغ مستقر اللؤم في نفسه ... وخشيت أن أتريّث أو أتلوّم فأخيب وأفشل ، وذكرت حكمة حَمَدْ بن عَلوي : « الغلبة لمن بدأ » فشد ذلك من عزمي وصرخت : « ياهُو ... » ووثبت وثبة أطبقت بها على عنقه ، وقلت : سترى لمن الجرائد والسياط ، ألابن المدينة الخوار الفرار ، أم لابن البر الحر ؟

فارتاع وأبلك وجعل يصيح من جبنه : ادركوني ، أنقذوني !النجدة، العون ، يافلان (لابنه) أقبل ... ويلك ياصُلَبي ، يامجنون ، كف عني ، ويلك ماذا اعتراك ؟

فأخذتني به رأفة فكففت عنه ، وقعدت محاذراً أرقب أهل المنزل ، وقد اجتمعوا ينظرون إلي بعيون من بهم بفرى جلدي . فقال لي : ما أردت بهذا ويلك ؟ وبم أسأت إليك حتى استحققت منك هذا الصنيع ؟ قلت : بالجرائد ... أمثلي يضرب بالجرائد ، لا أم لك ؟

فضحك والله وجعل يكركر حتى لقد شبهت بطنه بقربة جوفاء أدخلتها الماء . وضحك كل من كان حاضراً من أهله وبنيه ضحكاً ماشككت معه أن القوم قد أصابهم طائف من الجن ، فقلت : قبحكم الله من قوم ، وقبحني إذ أنزل بمثلكم وهممت بالانصراف . فصاح بي وعزم عليّ إلا مارجعت ، فبررت بيمينه وقفلت راجعاً فقال لي :

وأنت حسبت الجرائد مما يضرب به ؟ ألم تبصر جريدة قط ؟ قلت : ويحك فكيف إذن ؟ أنا من بلاد النخيل ، تبوك حاضرتي ، قال : وتحسبها جرائد نخيل ؟ قلت : إذن فجرائد ماذا ؟ قال خذ ؛ هذه هي الجرائد .

وألقى إلي صفحاً سوداً بها من دقيق الكلم مثل دبيب النمل ، فعجبت منها وسألته أن يقرأ عليّ مافيها فأستفيد علماً ينفعني في آخرتي ، فإن الرجل لايزال عالماً ماطلب العلم ، فإذا ظن أنه قد علم فقد جهل . ولقد سمعت أنه جاء في الأثر « كن عالماً أو متعلماً أو مستمعاً ولا تكن الرابعة فتهلك » .

فضحك وقال : وهل تظنها كتب علم ؟ قلت : فماذا فيها مما ينفع الناس ؟ قال فيها أخبار البشر ، من سافر منهم أو حضر ، أو تزوج أو ولد له ولد ، فما يصنع أحد من شيء إلا دوّن فيها ، ولا ينبغ من عالم أو أديب أو يقدم مغنٍّ أو تجيء قينة أو تأمر الحكومة أو تنهى إلا ذكر ذلك فيها ، حتى إن فيها صفة الخمر والاعلان عن الميسر ، وأخبار دور الدعارة ، والدعوة إلى الروايات الخليعة ...

فلما سمعت ذلك طار عقلي وأخذت هذه الجرائد فمزقتها شرّ ممزّق ،

وعلمت أن الله مهلك هذه القرية ، وعزمت على مفارقتها ونويت ألا أعود إليها بعد الذي سمعت من خبر جرائدها ... وما ظننت أن مثل ذلك يكون ، ولم يجتزىء صاحبي بما أعلمني من علمها حتى وصف لي أخرى تكون في أيدي الصبيان والبنات فيها صور قوم عراة تبدو عوراتهم ، ونساء مايسترهن من شيء إلا شيئاً ليس بساتر ، قلت : فهل يرضى الحضري بها ؟ قال : نعم ، فسقط والله من عيني وقلت ، هذا القرنان الذي لا تأخذه على أهله غيرة ، وما كنت أحسب أن رجلاً يؤمن بالله واليوم الآخر يفعل ذلك .

* * *

ولست مطيلاً عليك الحديث ...

... وذهبنا نزور سنمة فسرنا حتى بلغنا قصراً عظيماً على بابه خلق كثير ، وله دهليز تسطع فيه الأضواء ، فقلت ، هذا قصر أمير البلد ، هذا الذي يدعونه رئيس الجماهير ... وألهاني ما رأيت وشغلني ففقدت صاحبي وسط الزحمة ... ولكني لم أبال ، وأقبلت أصعد الدرج فمنعني أغلمة بثياب ضيقة حمر مارأيت مثلها ، وعلى رؤوسهم كُمَم لها رواق من فوق عيونهم كالذي يوضع على عيني بغل العجلة ... وأفخاذهم مكشوفة فعل أهل الفسوق والتهتك ، فهممت أن آخذ ثلاثة منهم فأكركبهم على الدرج فأزحلق مِعَدهم عن مواضعها ، ثم قلت ، ترفق ياصُلَبي لا تجن ، فما أنت في البادية ، أنت في قصر الأمير وهؤلاء مماليكه وإنك إن مسستهم لم تجد أمامك إلا ضرب العنق ... ووضعت يدي على عنقي أتحسسها فعلمت أني لا أزال أحتاج إليها .

ولو أنني في السوق أبتاع مثلها وجدك ما باليت أن أتقدما

وسألت الغلمان الكاشفي الأفخاذ ماذا يريدون مني أن أصنع ، فأشاروا إلى كوّة ازدحم عليها الناس ، فعلمت ان الدخول من هناك ، واقبلت ازاحم وأدافع وهم يردونني حتى بلغت الكوة . فإذا هي غرفة ضيقة كأنها القفص وإذا فيها رجل محبوس والناس يتصدقون عليه ، فقلت في نفسي : هذا رجل ضرب مماليك الأمير فحبسه هنا لتضرب عنقه في غداة الغد ، وحمدت الله على السلامة ، وتوجهت بوجهي إلى رجل توسمته أسأله : متى تضرب عنق السجين ؟ فنظر إليّ ولم يجب ، ثم ولاني قفاه وانصرف ، فعلمت ان الأمير يمنع الناس من الكلام في هذا ، ولولا ذلك لأجابني . ودنوت من كوّة السجين فأعطيته قروشاً كانت معي وقلت له : هذه لأولادك من بعدك ، لهم الله فلا تحزن ، فلم يقبضها حتى عدّها فرآها كثيرة فرد إليّ بعضها وقبل بعضاً ، فلم ألحف عليه واخذتها منه واخذت معها ورقة صفراء اعطانيهـا لم أدر ماهي ، ولكني لم أشأ كسر قلبه بردّها ، ووضعت ذلك كله في كمي وعمدت الى الكوة لأدخل منها فوجدتها عالية ، فوثبت فأصبت بقدمي وجه رجل ممن كان هناك ، فما باليته وقلت سأعتذر إليه ، وقد رأيت اهل المدن يؤذون إيذاء العدو ، ثم يعتذرون اعتذار الصديق . وادخلت رأسي في الكوة ، فصاح السجين صياحاً ارعبني والله ، شبهته بصراخ كلب ديس على ذنبه ، واجلب الناس ، وطفقوا يشدون برجلي وثيابي ، وأنا ارفس بقدمي رفساً لا أبالي موقعه من اجساد الناس ، والسجين اللئيم الذي احسنت اليه يدفع برأسي ويشد بشعري ، ولم يكن عضو من اعضائي الا وهو مشغول ، فيداي اتمسك بهما ، ورجلاي اذود بهما عن نفسي ، ولم اجد ما ادفع به أذاه عني إلا ان بصقت في وجهه ، فأقبل يضربني فعضضت يده ، ثم دنوت من وجهه فعضضت أنفه ... وكان أنف ذليل لايزال خبث طعمه على لساني ...

... ثم أخرجوني قسراً وجبراً ، وجاء مماليك السلطان فحجزوا بيني وبينهم ، واخذوا الورقة الصفراء ، وأدخلوني من باب كان هناك الى بهو واسع صح معه ما كنت قدرت من أن سنمة هذا سلطان البلد ، ورأيت الناس قد صفوا كراسيهم كصف الصلاة ، وإذا بعضهم يولي بعضاً دبره ، فقلت : ما ألأم أهل المدن ، والله ما كنت موليا مسلماً ظهري إلا في الصلاة . وعمدت إلى الكرسي لأديره فإذا هو مثبت بمسامير من حديد ، فتركته واستدرت أنا ، فجلست على قفاه ، وجعلوا يضحكون مني ، فما القي لهم بالاً ، حتى جاءت امرأة ، فجلست قبالتي ، فقلت : يا أمة الله استتري . فأقبلوا يزبرونني ، وإذا هي « فيما قالوا » شاب وليس امرأة ، فجعلت اعجب ...

ولبثت انتظر خروج السلطان فإذا بالمماليك يديرونني فيجلسونني من حيث يجلس الناس ، فلم املك الا الطاعة ، وقعدت انتظر فلم أنشب أن جاء مملوك آخر ، فقدم إلي صفحة من خشب قد صف عليها فراني وشطائر [1] وقال: تريد ؟ قلت : اريد والله ... وهل يأبى الكرامة إلا اللئيم ؟ واقبلت آكل فأجد طعاماً هشاً تحت الاسنان ، حلواً في الحلق ، خفيفاً على البطن ، فقلت : هذه هي البقلاوة التي وصفوها لنا ، وجعلت آكل فلا اشبع ، وهو يقدم الي متعجباً حتى استنفدت ما كان معه . فمسحت شفتي بيدي وقلت : الحمد لله ، جزاك الله خيراً

فظل واقفاً ولم يمض ، فقلت : الحمد لله ، لقد شبعت . قال : يداك على الفلوس ؟ قلت : ويحك ماذا تريد ؟ قال : أكلت ثلاثين قطعة كل قطعة منها بسبعة قروش فهذه مائتان وعشرة [2] ...

---

(١) الفرنية الكاتو وجمعها فراني . والشطيرة والشطائر الساندوتش .

(٢) اما ثمنها اليوم فسبعمئة وخمسون قرشاً .

قلت : قبحك الله من عبد لئيم ! تأخذ من ضيوف السلطان ثمن القرى؟

وكان ما أكلت قد شدّ ظهري فوثبت إليه ووثب إليّ ، وقام الناس، وزلزل البهو بأهله ، وكادوا والله يطردونني لولا ان ظهر صاحبي فانفرد بالمملوك فأرضاه عني ، وجاء فقعد معي .

* * *

وإنا لكذلك ياشيخ ، وإذا بالأنوار تنطفىء ، وإذا بالخيل تهجم علينا مسرعة حتى كادت والله تخالطنا . فقلت : لك الويل ياصلبي ، ثكلتك أمك، إنه الغزو فما قعودك ؟ وقفزت قفزاتي في البادية ، وصرخت وهجمت أدوس على اجساد الناس وهم يضجون ويصخبون ، فلما كدت ابلغ الخيل اشتعلت الأنوار وفرّ العدوّ من خوف بطشي هارباً ، وجاء عبيد السلطان ليخرجوني فردهم عني صاحبي وكلمهم ...

فقلت : هذا والله العجز والذل ، فقبح الله من يقيم عليها .ترون العدو قد خالطكم وتلبثون قعوداً ؟ ما أكرهكم إليّ يا أهل المدن ، ماظننت والله إلا أنكم ستحملون إليّ صلة السلطان على أن رددت عدوّكم وهزمته ...

فضحك اللئام ، وجعل صاحبي يحذرني العودة إلى مثلها ؛ ولم ألبث حتى أطفئت الأنوار كرّة اخرى ؛ ففزعت ونظرت فما احسست إلا امرأة قد قبض عليها رجل خبيث يحاول أن ينال منها على مرأى منا ومسمع ؛ وهي تستغيث وأنا اسمع صياحها ولا من مغيث ؛ فثارت الحمية في رأسي وسللت الخنجر واقبلت أريده ، فاختفى والله حتى كأن لم يكن هنا لك من أحد . وعادت الأضواء ، ورجع الصخب ؛ فقلت : والله ما أقيم ، وجعلت أصيح : أخرجوني ويلكم ... حتى أخرجوني ...

* * *

قال صلبي : فخرجت وقد علمت أن جرائدكم يا أهل المدن تنشر الفجور وتهتك ستر الله عن الناس وتفضحهم ، وأن شبابكم بنات ، وأن أمراءكم سحرة يسحرون اعين الناس حتى يروهم مالا يُرى ... ثم إنكم لاتغارون على اعراضكم ، ولا تبالون كشف عورات ابنائكم وبناتكم . لا والله ما أحبكم ...

وذهب مولياً عني مسرعاً يمشي بين تلك المواخير القذرة : تريانون وليدو وأوليمبيا .... تلقاء سوق الحميدية والأموي حيث المدينة الطاهرة الفاضلة . . حيث دمشق التي سمّاها شوقي « ظئر الاسلام » !

الأعرابي والشعر

نشرت سنة ١٩٣٩

أتاني منذ يومين (صُلَبي) ، فقال لي :

هل أنت من المَعنيين بالشعر والأدب ؟

قلت . نعم ، فماذا عندك ؟

قال : نعمة ساقها الله اليك ، إن أنت اضعتها يوشك ألا تلقى مثلها يَدَ الدّهر

قلت : فاذكر لي ماهي ، فإني أرجو ألا اضيعها

قال : أتعرف (السوالم) ؟

قلت نعم ، جمع تكسير ...

قال : لا والله ما هم بجمع تكسير ، إنهم اكرم من ذاك ، هم والله جمع مبارك

قلت : انما اردت الكلمة ...

قال : كلمة ماذا ؟ إنها قبيلة كانت متوارية في رملة من رمال (عالج) لا يدري بها احد ولم يكشفها الا حكم الامام عبد العزيز اطال الله عمره ، فعرفها العرب وعرفوا فيها العربية المبرأة من العجمة ، والبلاغة التي ما وراءها بلاغة ، والنبرة الصافية التي ان سمعتها فانما سمعت كلام سحبان ، او خالد بن صفوان ...

قلت : ولكن ما ابعدك يا رملة عالج !

قال : بل ما ادناك بشارع الحلبوني ، ألا تعرف دار الباشا ؟

قلت : القنصلية السعودية ؟

قال : بارك الله فيك . إن شيخ السوالم نازل فيها وقد هبط دمشق ليلة امس ، وهو اول (سالمي) يهبطها بعد إذ فارقتها قبيلته

قلت : متى فارقوها ؟

قال : صبيحة الفتنة التي قتل فيها الوليد بن يزيد ، الملك المظلوم الذي عبث خصومه بتاريخه ، فقوّلوه ما لم يقل ، ونسبوا اليه ما لم يفعل ، وروى هذا العبث مؤرخون هواهم عليه وميلهم مع اعدائه . . . وادباء محاضرون لا يبالون ما يروون [1]

قلت : إنك لتذكر تاريخاً قديماً ! . .

قال : هو ما قلت لك . غير أن الشيخ لا يحب أن يلقى احداً ، وقد حذروه قوماً يقال لهم اهل الصحف ، يفضحون الناس : ينشرون من اسرارهم ما يطوون ، ويعلنون من اخبارهم ما يسرّون ، ليسلئوا بذلك من يشتري منهم هذه الصحائف ، فاحتل للقائه بحيلة . . .

ولقيت (الشيخ) فاذا هو فوق ما وصف لنا ، واذا لسان مبين ولغة معربة وحديث كأنك تقرأ في البيان والتبيين او في عيون الأخبار . ولقد خضنا معه كل بحر ، وعرجنا على كل منزل ، فسألته عن الشعر واستطلعت رأيه في جديده ، وسأله بعض من حضر عن مسائل من اللغة والنحو ، وعرض عليه اشياء من تمحلات النحاة وغلاظاتهم ، فأجاب بأسدّ جواب واحكمه ، فما كان أعجب من سؤال السائل إلا جوابه هو ، وما تقول فيها إلا الأصمعي يشافه بلغاء الأعراب من أهل زمانه . . .

---

(١) كصاحب الأغاني ، و (الأغاني) من الكتب التي أفسدت الدين والخلق ، وان صانت الأدب والشعر والأخبار .

وإني أروي هنا طرفاً من حديثه في الشعر ، بكلامي نا ، ألا ببيانه هو ،فما استطعت حفظ ماقال بحروفه .

* * *

قلت له : كيف أنت والشعر ؟

قال : أما ما قالت العرب فإني ارويه كله لا اخرم منه شيئاً ، وأما ما قال المحدثون بعد إذ فشا اللحن في الأمصار وعمت فيا بلغنا العجمة فلا اعرفه، ولاارضى لنفسي روايته ، لأن اصحابه افسدوا على العرب ديوانهم، وجاؤوهم بما ينكرون من القول

قلت :ولكنك رجل عادل حصيف ، أفلا تسمع قول هؤلاء المحدثين قبل أن تحكم عليهم ؟

قال : بلى والله إني سامع فأنشدني

فنظرت فكأن الله محا الشعر كله من قلبي إلا ابياتاً لأبي تمام في وصف الربيع نوّيها التلاميذ . فأنشدته إياها وفي ظني أنه لا يرضى عنها ، لأنها ليست مما الف ، ولو انشدته لغير أبي تمام او انشدته لأبي تمام غيرها ، لكان ذلك أدنى الى رضاه ، ولكن ماذا اصنع وقد نسيت كل ماجاوزها من الشعر ؟ قلت :

مطر يذوب الصحو منه وبعده صحو يـــكاد من الغضارة يمطر
غيثان فالأنواء غيث ظاهر لك وجهـــه والصحو غيث مضمر

فرأيته قد طرب لها طرباً لم يخفه وصفق يداً بيـد من الاعجاب وقايل فقلت وقد قويت نفسي : كيف سمعت ؟

قال لقد أحسن وجاء بما لم يسبقه اليـــه سابق ، وما أحسبه يلحقه فيه فيدرك شأوه لاحق . لقد عرف الناس ثلجاً يذوب ، فأذاب لهـم الصحو حتى سال ماء ، ثم عاد فجعل الصحو من طراوته كأنه يمطر ، فلم يخلهم في المطر من

صحو ذائب ، ولا في الصحو من مطر . ثم أصّل وفرّع ، فجعل من الغيث ظاهراً ومضمراً ، وما يكون مضمر إلا وثمة ضمير ، ولا ضمير إلا في حيّ ، أفلا تراه قد اسبغ الحياة على الجماد ؟

قلت : هذا مذهب في الشعر يعرفه اهل زماننا ويحسبون أنهم ابتكروه ... يعطيك صورة جميلة ولكنها ليست بينة الحدود ولا واضحة المعالم ، فأنت تستمتع فيها بكشف المجهول ، وهو لعمري اصل الآداب ، واقوى الغرائز ، ثم تملأ فراغها بعواطفك وتجعل حدودها من افكارك ، فتكون كأنك صغتها لنفسك ، وتفهم منها ما لا يفهم سواك

قال : هذا شيء ما اعرفه ولكني لا أعيبه ، ولقد طربت لما سمعت ...

قلت : أفلا اسمعك من شعر أهل زماننا ؟

قال متعجباً : وإن لأهل زمانكم لشعراً ؟

قلت : ولم لايكون ؟ اسمع مقطوعة من حديث الشعر لشاعر اسمه فياض ، قالها على لسان المتنبي اكبر شعراء العرب كأنه يعلمه بها كيف يكون القول

قال : هذا لعمري النبوغ ، فماذا قال ؟ قلت : قال :

جسدي النازل من شهوته سلم العار وروحي السامية

يا لعمر مشيا فيه معا

فوثب كمن داس على جمرة ، او لسعته عقرب ، فأمسك بفمي فسكت فزعاً وقلت : مالك ؟

قال : ماهذا ؟ قلت : شعر جديد !

قال : أعوذ بالله (جسدي النازل من شهوته) ؟ وهل كانت شهوته جبلاً عالي الذرى ، أو قصراً شامخ الدعائم حتى ينزل منها ؟ والى أين ينزل ؟

وهل بعد الشهوة من منحدر ، او دونها منزل ؟ وهذا (سلم العار) ؟ هل هو جسده ؟ فكيف صار سلماً ؟

قلت : لعله اراد أن جسده ينزل على سلم العار ، أي ينحط في درك العار بسبب شهوته التي ركبت فيه ، فما استقام له طريق القول ؟

قال : برئت من العربية إن كان هذا يفهم من كلامه ، إننا نعرف (ينزل فلان) اذا كان عالياً وهبط ، (وينزل البلدَ) اذا سكنه ، و (ينزل بالقوم وعليهم) اذا حل فيهم ، و (ينزل من الجبل) اذا كان قد صعّد فيه ، و (ينزل الى الوادي) ، و (ينزل على الدرج) ولا نعرف (نزل السلم) إلا اذا قام فيه ، كما يقيم المرء في المدينة ، ثم إن السلم يصعد عليه من يكون على الأرض ، فأين كان هذا حتى نزل على السلم ؟ هل ولدته أمه على المنارة فنشأ فيها ، ثم بدا له فنُصب له (سلّم العار) لينزل عليه ؟

قلت : أولا تسمع سائر المقطوعة ؟ قال .. لا والله

قلت : ولكنه القاها على ملأ من الأدباء والشعراء في سوق من اسواق الأدب في دمشق ، كان اقامها أديب من أدباء تنوخ اسمه عز الدين بن علم الدين ، فسمعوها وارتضوها وما رأينا فيهم من أنكرها عليه ، ولكن أبا قيس لم يرضها

قال الشيخ : ومن أبو قيس ؟

قلت : هو التنوخي الذي حدثتك عنه ، وهذه كلها أسماؤه وله غيرها . قال : ما أكثر ماله من اسماء !

قلت : وما أكثر ماله من فضائل وحسنات ، وكثرة الأسماء دليل على شرف المسمى

قال : هذا صحيح ! قلت : أتحب أن أقرأ لك من شعر شوقي ؟

قال : أسمع اسماً منكراً

قلت نعم ، ولكن له شعراً معروفاً . إنه الذي يقول في الأزهر :

قم في فم الدنيا وحيِّ الأزهرا	وانثر على سمع الزمان الجوهرا
واخشع ملياً واقض حق أئمة	طلعوا به زهراً وماجوا أبحرا
كانوا أجلَّ من الملوك جلالة	وأعز سلطاناً وأفخم مظهرا

فاستوى جالساً ، وقال لا جرم أنه شعر معروف ، هـذا هو الشعر . لقد أنطق اعظم ناطق وهو الدنيا ، وأسمع اجل سامع وهو الزمان ، وجعل مدح الأزهر جوهراً ، وهذا لعمر الحق اكبر مما صنع امرؤالقيس حين وقف واستوقف ، وبكى واستبكى ... ثم وصف أئمتـه بخير مايوصف به علماء ، سموٌ كالنجم ونور كالنجم ، وهدى كهدى النجم ، وعلم كالبحر وهم بكثرتهم كماء البحر ، ولو شئت لكشفت عن خمسين معنى مستتراً وراء قوله (طلعوا به زهراً وماجوا أبحرا) زدني من قوله . .

فمضيت في القصيدة حتى بلغت قوله : (يامعهداً أفنى القرون جـداره) فترنح طرباً ، واعجبته صورة هذا الجدار، وهوقائم في وجه القرون تردّ عنه كليلةعاجزة، ثم تفنى وتضيع كما ترتد الأمواج عن الصخرة ثم تذهب وتضمحل والصخرة راسية ماذهبت ولا اضمحلت

واستزادني من شعره فأنشدته قوله وهو لم يبلغ العشرين :

صوني جمالك عنا إننـا بشرٌ	من التراب وهذا الحسن روحاني
أو فابتغي فلكاً تأوينه ملكاً	لم يتخـذ شركاً للعالم الفاني

فهزّه الطرب هزاً وقال : إن الشعراء يقولون ولكن مثل هذا ما يقولون . إنهم وصفوا حسن المرأة وجمالها ، ولكن لم يستطيعوا أن يرفعوها فوق الناس وأن يجعلوها من طينة غير طينتهم ، وأن يبرّئوها من مادة التراب

حتى تخلص لصفاء الروح ثم يجعلوها ملكاً يسكن السماء . إني لأعجب لكم !... عندكم هذا الشاعر ولا تفاخرون به شعراء الأرض ؟

* * *

ثم قرأت عليه من شعر حافظ فأعجبه ولكنه قال :

هذا من عيار وذاك من عيار ، ولست أسوي بينهما . إن الأول عبقري إمام ، وهذا مقلد ذو بصيرة ، وسبّاق ذو وثبات .

قلت : إن الناس كانوا يسوّون بينهما او يقاربون يوم كانا حيّين ، وللأحياء مقاييس من صداقة او عداوة ، ولهم صفات يحبون من اجلها او يبغضون : كخفة الروح وبسطة الكف وحسن المجالسة . فلما ماتا ولم يبق إلا موازين الأدب بدأ الناس يدركون أن بينهما بوناً شاسعاً وأمداً بعيداً

ثم أسمعته لكثير من الأحياء والأموات ، فأعجبه غزل (رامي) وأنس بجزالة شعر (البارودي) وحسن ابتكار (صبري) . وقرأت عليه من أشعار الشاميين ، فقدم (الزركلي) واستقلّ شعره وعجب من سكوته الآن ، لأن الشاعر عنده من ينظم ابداً لا ينقطع حتى ينقطع عن نفسه سيل العواطف ويجف منها معين الحسّ . ومن يقول مثل شعر الزركلي الوطني الذي يسيل منه الدمع ، دمع القلب لا يمكن أن ينضب ينبوعه . وقد كره قصيدته (العذراء) ورأى فيها ضعفاً في التأليف بيّناً . واعجبته جزالة شعر (محمد البزم) ولكنه رأى الفاظه أجزل من معانيه ومفرداته أمتن من جمله ، وأخذ عليه قوله :

إذا كان من أسدى لك الشر هيناً

فقل لي أبيت اللعن من أين تثأر

وقال إن العرب تقول أسدى اليه يداً ولا تنطق بها في الشر ، أما قوله

(أبيت اللعن) فاقحام لا معنى له ، لانها كلمة كان يخاطب بها ملوك الجاهلية وقد بطلت ، فأي ملك من ملوك الجاهلية يخاطب ؟ وأخذ على (مردم) قوله في نشيده :

سماء لعمرك أو كالسماء

ورآه سبكاً مقلوباً ، وكان ينبغي أن يقول هم كالسماء بل هم سماء .

واثنى على انور العطار وطرب لاسلوبه ، و شهد لقصيدته (لبنان) انها من أبلغ ما قال شاعر في وصف الطبيعة . وراقته فحولة بدوي الجبل وشاعرية بشارة وأبي ريشة . أما (الشعر الجديد) كشعر الرمزيين، والمهاجرين، فلم يفهم منه إلا بعض مفردات من الفاظه ولم يعدده شعراً ولا كلاماً عربياً !

وقد استمر المجلس ساعات طويلة ، ومال الحديث فيه على من يتلقى العربية اليوم على ابناء باريز ، من امثال الامام اللغوي أبي جُرَيجَةَ الشيخ مارسيه اصمعي العصر ... وكان مجلساً نادراً ما قمنا منه إلا ونحن كارهون . نتمنى لو أنه يمتد بنا اسبوعاً ... وخرجنا وقد امتلأ وطابنا علماً وفوائد ، هذا طرف منها وإنه (طبق الأصل) .

هيكل عظمي

نشرت سنة ١٩٣٥

[كنت أمس عنـد قريب لي يمارس صناعة الطب . فخرج لبعض حاجته ، حتى أطال الغياب ، وتسرب إلى الملل ، فقمت الى خزانة كانت حيالي ، فقلت : لعل فيها كتاباً أقرؤه فما راعني حين فتحتها إلا هيكل عظمي معلق بسقف الخزانة ... والى جانبه هيكل ثان ...]

. . . من أنت أيها الانسان الذي انتهى به الأمر الى أن يحبس في خزانة ، ويلبث الدهر معلقاً بسلكة ، ويعد متاعاً من المتاع ؟ أأنت رجل أم امرأة ؟ أغنيّ أم فقير ؟ أملك أنت أم صعلوك ؟

هل كان في هاتين الحفرتين البشعتين عيون ساحرات الطرف ، يفتنّ ذا اللب حتى لاحراك به ، ويفعلن بالألباب ماتفعل الخمر ؟ وهل كان على هذا الثغر المخيف شفاه لُعس ، تأخذ دنيا البخيل بضمة على شفتيه ، ويبذل حياته الجبان في قبلة منها ؟ وهل كان على هذا القفص العظمي صدر بلوري ، يضيع بين نهديه عقل العالم ، ويذهب فيه لب الحليم ، وينسى امرؤ أسند اليه رأسه الدنيا وما فيها ؟هل كانت هذه العظام المستطيلة المرعبة سواعد بضّة ، وأفخاذاً رجراجة ، طالما أثارت من هوى ، وأذكت من خيال ، وطالما أنطقت بالشعر الشعراء ؟ أكنت أيها الانسان امرأة فاتنة جميلة ؟

وهذا الانسان الآخر ؟ هل كان عشيقك أيها الفتاة اعترفي فلا بأس عليك اليوم هل كان يهيم بك حباً ، ويحيي الليالي يحوم حول منزلك ، أو يرقب شرفتك فإذا رأى إشارة منك أو أبصر على الشرفة ظلك أو لمح طرف ثوبك الأبيض أو الأصفر أو ... أو « الأرجواني » انصرف وهو أسعد الناس حالاً ، وراح يحبر فيك « المقالات »(١) ، وطفق يرى صورتك التي نسجها من خيوط حبّه ، لاصورتك التي هي لك : طفق يراها في السماء التي يرنو اليها ويعد نجومها ، وفي صفحة الكتاب الذي يفتحه وينظر فيه ، وبين أغصان الأشجار التي تمتد الى شرفته وحيثما تلفت أو نظر « تلوح له ليلى بكل سبيل » ؟

أم كان هذا الانسان شاباً غض الشباب طريّ العود ، ينظر بعيون الغيد ويتثنى كأنه قضيب بان ، ويتكلم بصوت ليّن المكاسر ، كأن ألفاظه ورناته غادة أخرى تميل وتتدلل ، ولم يكن يحبك أو يفكر فيك ، لأنه يفتش هو الآخر على من يحبه ويفكر فيه ؟...

* * *

أم كنت أيها الانسان ملكا يضيء على مفرقه التاج المحلى بالدر ، ويلمع تحته السرير المصنوع من الذهب ، إذا أمر تقاتلوا على السبق إلى طاعته ، وإذا اشتهى شيئاً أسرعوا الى تحقيق شهوته ، وإذا مرض لم يكن للناس حديث إلا حديث مرضه ، وإذا أبلّ لم يكن سرور إلا ببشرى إبلاله وإذا قام أو قعد أو قدم أو ذهب ، لهجت الألسن بقيامه وقعوده ، واشتغلت الصحف بذهابه وقدومه ، وإذا مشى في الطريق لم يمش على رجليه كما كان يمشي أبونا آدم عليه

(١) اشارة الى مقالات (ذات الثوب الارجواني) التي كان ينشرها المازني رحمه الله في تلك الأيام .

السلام ، وكما تمشي ذريته من بعده، ولكنه يمشي على رؤوس الناس الذين يحسّون (لفرط الاجلال او لفرط السخط) بأنه يمشي على رؤوسهم جميعاً ؟

أم كنت أيها الانسان صعلوكاً حقيراً عاش على هامش الحياة ، ودفن في حاشية المقبرة ، فلم يحسّ أحد بحياته ، ولم يدر أحد بمماته ، ولعل حياته أشرف حياة لأنها حافلة بالفضائل ، مترعة بالشرف ، فكان يكدح طول نهاره ليحصل خبزه وخبز عياله ، فيأكله مأدوماً بعرق جبينه ، لايؤذي أحداً ، ولا يسرق مال الدولة ، ولا يتخذ وظيفته جسراً الى تحقيق شهواته ، وتحصيل لذاته ، ولعل موته أشرف موت ، لأنه مات مجاهداً وسط المعمل ، وسقط وفي يمينه المعول .

انظر ياصديقي ! التفت الى يمينك . إن الملك الذي طالما خفته وأكبرته وأعظمت زينته وبزّته ، وشارته وحليته ، فملت عن طريقه ولم تجرؤ على رفع نظرك الى طلعته الكريمة .. إنه معك في هذه الخزانة قد نزع عنه ثوب الملك والجاه وعاد مثلك : لا الملك دام له ولا دام الغنى !

* * *

هل كنت أيها الانسان رجلاً عفيفاً مستقيماً ، أم كنت لصاً خبيثاً ؟ اعترف : إنه لن يضرك اليوم اعتراف ، هل كنت لص أعراض تلبس ثوب التاجر ، أو ترتدي حلة الموظف أو تتيه ببرود الغنيّ ؟ كم من الأعراض سطوت عليه باسم الوظيفة او بصلة الصداقة ، أو ولجت اليه من باب « السفور والاختلاط » ؟

أم كنت لصاً رسمياً لاسبيل للقانون عليه ، يسرق من الناس ويسكتون ، لأنهم يريدون أن تمشي اعمالهم ، ويسرق من الخزينة بأسناد مصدقة !

أم كنت لص أدب ، تسرق فكرة الفيلسوف وصورة الشـاعر وموضوع الكاتب ، فتلبسها ثوباً من أثوابك الحبيسة الممزقة ، ثم تخرج بها على الناس على أنها بنت خيالك ووليدة عقلك !

أم كنت مظلوماً لم تكن لصاً ولم تحترف السرقة ، ولكن رأيت صبية مشرفين على الموت من الجوع ، وأسرة كادت تودي من أجل رغيف ، ورأيت حقك في بيت مال الأمة ، قد سرقه السادة الأكابر فغطيت وجهك حياء ، وأخذت رغيفاً ليس لك ، فثار بك المجتمع ، وقامت عليك الصحف ، وتعلق بك القانون ، حتى استاقك الى السجن ، فمت فيه مفجوعاً بشرفك وأولادك !

اقترب أيها المجرم . ادن أيها الشهيد ، تعال انتقم ، هـذا هو القاضي الذي حكم عليك ، لأنك سرقت رغيفـاً تعيّش به أسرة ، ثم خرج يخترق الصفوف ، صفوف الشعب الذي اجتمع ليشهد انتصار الحق ، وظفر العدالة فلما رآه حيّاه وهتف له حتى بحّ صوته ، وصفق حتى احمرت كفاه ، فلما ابتعد ولم يعد يراه احد مديده التي حمل بها (مطرقة العدل) فأخذ ثمن وجدانه الذي باعه ، اخذ الرشوة . . . تعال انتقم . إن القاضي والمجرم قد التقيا وزالت من بينهما الفروق !

* * *

أم أنت أيها الانسان جندي صاحوا به : الانسانية في خطر !

الحضارة مهددة بالزوال ! لقد أوشك أن يموت الحق وتذهب الفضيلة ! فاشتعلت الحمية في رأسك ، والتهبت الدم في عروقك ، وقدحت عيناك بالشرر ، فتركت أمك المسكينة ليس لها بعدك إلا الله وأسلمتها الى الحزن الطويل ، والثكل القاتل ، وأولادك الذين تعلقوا بك يصيحون : بابا . . بابا . . أسلمتهم

الى اليتم والفقر والبؤس ، وذهبت تلبي نداء الانسانية ، وتخلص الحضارة ، فنمت على الجثث ، وتجلببت باللهب ، وتوسدت القنابل ، حتى إذا أدرك أجلك سقطت صريعاً ، وأقبل رفاقك يدوسون على جثتك ، لايجدون وقتاً لازاحتها ودفنها ، لانهم يخافون إذا أبطأوا ألا يدركهم الموت في سبيل الانسانية.. .

فلما ماتوا جميعاً ربحت الانسانية وساماً زيّن صدر القائد ، وصفحة في تاريخ العدوان ، وثبت كرسي طاغية من الطغاة ، أو استقرت مكانة حزب من الأحزاب ، أمّا الأطفال الأيتام والعجائز الثاكلات ، فحسبهم عوضاً من آبائهم وحسبهن بدلاً من أبنائهن ، التمتع برؤية موكب القائد الظافر . . .

أم أنت أيها الانسان القائد نفسه ، قد جرد صدره من الأوسمة والشارات ، وجسمه من الحلة المزدانة بالقصب ، ووجهه من الأنف والعينين ، وعاد قفصاً من العظام ، لايمتاز من أصغر جندي وأحقر صعلوك ، فلم يعد لك تانك العينان اللتان تبرقان ، فترتجف لبريقها أقسى القلوب ، وذانك الشاربان القائمان كساريتي مركب ، وذلك الصوت القوي ، الذي كان يصيح بالجنود : الى الأمام ! أي الى الموت ... إلى الثكل ... الى اليتم ... الى الحرب [1] .
« جحيم الحياة الدنيا » !

وأنت أيها الآخر . أأنت ذلك الجندي ، مالك تقف جامداً ؟ هذا قائدك ، ألا تضم شفتيك ، وتثبت بصرك ، وتزوي مابين عينيك ، وتأخذ هيئة الجد لتؤدي التحية العسكرية ، ويحك ! أما أنت جندي هل أنت امرأة ؟ أأنتِ عشيقة القائد العظيم ، رآك منصرفه من المعركة التي طوح فيها بالمئات من شباب أمته في سبيل العدوان على بقعة ليست له ، او اعطائها الى غير اصحابها

---

(١) والحرب مالم تكن لاعلاء كلمة الله ، أولدفع المعتدين ، وتثبيت الدين ، وردالمستعمرين الغاصبين ، فهي بلاء شامل وشر مبين .

ومنحها لبعض الطارئين من الشعوب الذليلة المسكينة [1] ، فماتوا كلهم ولم يقدروا على شيء ، لأن للحق قوة كقوة النار والحديد ؟ ألأنت التي اخترقت سهام لحظها هذا القلب الذي طالما هزىء بالقنابل والمدمرات ، فجاء يصب جبروته على قدميك ، واصبح هذا الذى يصرّف عشرات الألوف من الكماة المستلئمين تصرّفينه وتجرّينه من زمامه ، حتى صار يفكر فيك وهو في ساحة الحرب ، يزلزل الأرض تحت اقدام أهلها ، ويتأمل صورتك والعدو على ابواب معسكره لايخاف عليه أن يحتله الأعداء ، مايخاف عليك أن تمصّ لماك غير شفتيه ، او تضمّ جسمك غير ذراعيه ...

* * *

أم أنتما رجلان ؟ أعدوان أنتما أم صديقان ؟ أكان بينكما مسافة على الأرض ومسافة في الزمان ، أم أنتما رفيقان متلازمان ؟ هل التقيتما في معمل ، او عملتما في منجم ، او اشتغلتما في ديوان ، او اصطحبتما الى الحرب ، او تجاورتما في السوق ؟

أم كنتما مضطجعين في قصريكما المتقابلين ، قد مللتما من التسلية ، وشبعتما من الحب فأنتما تدفعان العمر دفعاً ، لاتتنازلان أن تنظرا من النافذة الى هؤلاء البؤساء الذين يشتغلون دائماً وأبداً ، كأنهم آلات تدور ، تحت الشمس في الصيف ، وتحت المطر في الشتاء ، وفي الحرّ وفي الزمهرير ، وفي الصحة وفي المرض ، ليأخذوا بعد ذلك الواحد وتأخذوا أنتم التسعة والتسعين مكافأة لكم على غصبكم حريتهم وعسفكم اياهم ، وزرايتكم عليهم ، فتنفقوها على الموائد الخضر ، وفي كؤوس الخمر ، وعلى الشقر والسمر ... ثم إذا خرجتم

---

(١) كاليهود الصهيونيين .

تمسحوا بأذيالكم ، وقبلو السياط التي تلهبون بها ظهورهم !

* * *

من أنتما أيها الأنسانان ! وما شأنكما ؟ هل كان بينكما حاجز عرضه ثلاثمئة سنة فلم تلتقيا في الحياة ، وجمع بينكما الموت ، الذي تختصر فيه المسافات ، وتلتقي فيه الأزمنة والاوقات ؟ أأنتما هنا لتقولا : إن الملك والغنى ، والمجد والجاه ، والفتنة والجمال ، كل اولئك اثواب تلبس وتخلع ولا يبقى للانسان من دنياه إلا ماقدم من عمل ، ينال به النعيم الخالد ، او يصلى به النار الباقية؟ ألا ليت الناس يذكرون أبداً هذا المصير !

من أحاديث الإذاعة

في الترام

نشرت سنة ١٩٤٧

ياسادتي وياسيداتي . كنت راكباً امس في الترام ، أفكر في موضوع أتحدث به اليكم ، فأسليكم وافيدكم ، فلا يكون الحديث لذيذاً بلا نفع ، ولا نافعاً بلا لذة ، فكان يطيّر الموضوعات من رأسي هواء بارد يلفح الوجوه ، فيبلغ منها مثل ما تبلغ السياط ، فقمت الى الباب لأغلقه فاستعصى عليّ ، فشددته فتأبى ، فجربت فيه الوسائل فما أجدت ، فتركته وقعدت . وصعد شاب مفتول العضل ، عريض المنكبين ، بادي القوة ، فجذبه فما استطاع فأمسكه بكلتا يديه ، ووضع قوته كلها في ساعديه ، حتى احمر وجهه وانتفخت اوداجه ، والباب على حاله ، فأغضى بصره حياء منا أن ينظر في وجوهنا وقعد . وركب بعده شيخ وكهل وامرأتان ، لم يكن فهم الا من جرب مثلما جربنا ، وخاب كما خبنا ...

فلما رأيت ذلك ، قلت مقالة أرخميدس في اول الدهر : « أوريكا » ، وجدت الموضوع . إني سأجعل موضوع حديثي (في الترام) ، فالترام ياسادة معرض الناس ، ومرآة الأمة ، وهو مسلاة لمن نشد تسلية ، ومدرسة لمن

اراد استفادة ، وهو سينما ابطالها اناس صادقون ، لا (يمثلون) رواية وضعها كاتب ، ولكن يعرضون فطرهم التي فطرهم الله عليها ، واخلاقهم وطباعهم وكل صغيرة (في الترام) تمثل كبيرة في الحياة : هذا الباب المغلق مثلاً عنوان فصل كبير من فصول حياتنا ، ونقص بيّن في تربيتنا ، إذ ربما كان دفاع الباب أقلّ من قوة اثنين منا ، ولكنا اتيناه متفرقين ، كما نفعل في كل أمر نرومه ، واصلاح نطلبه ، نعمد له فرادى ، ونقصده أشتاتاً ، فلا نصل الى مقصد ، ولا نبلغ غاية ، قد استقرت (الفردية) في سلائقنا ، فترى الواحد منا يعمل مالا تعمله الجماعة ، فإذا اجتمعنا أضعف بعضنا بعضاً ، او استبد بعضنا ببعض ، واذا نحن اردنا التخلص من هذا ، قفزنا من أول الخط الى آخره ، فجاوزنا حد الاعتدال ، وتعدينا نطاق الممكن ، وأردنا أن نبني الدار قبل أن نعدّ الحجارة ، ونصلح الأمة قبل أن نصلح الأفراد ، كأن الأمة مخلوق مستقل ، له طول وعرض وعمق وارتفاع . لا ياسادة ، ما الأمة إلا أنا وأنتم وهم وهنّ ، فإذا لم يصلح كل منا نفسه لم يكن للأمة صلاح .

هذا عيب كبير فينا دل عليه الحادث الصغير ، وما اكثر ما تدل الصغائر !

ركبت الترام مرة ، وكان مزدحماً يغصّ براكبيه ، فلا تبصر لون ارضه ، ولا تعرف من الازدحام طوله من عرضه ، وكان على المقعد الى جنبي شيخ مسنّ أحسبه قد دخل في الثمانين ، وكان معه ابن سائل في صحن ضحل لا غطاء له ولا قعر ، فكلما اهتز الترام او تحرك الناس ، طار رشاشه على ثوبي الذي كنت أتجمل به ايام الحرب ، ولا اجد وانا موظف السبيلَ الى غيره ، فكنت أضم ثيابي اليّ ، واحاول أن ابتعد عنه ، ليدرك أذاه لي فيدفعه عني ، فلا يدرك ولا يبالي ، فقلت له : « ياعم ، قد آذيتنا ... ولوثتنا بالحليب ... »

فما كان منه الا أن صرّخ تصريخاً جمع علي اهل الترام ، وقال :

ـ « اتق الله ما هذا الكفر ؟ ما هذا الجحود ؟ ألا تعرف قدر النعم ؟ إنه حليب طاهر ، هل هو نجاسة ؟ حرام عليك » .

فتركته ودخلت بين الناس ،ووقفت مع الواقفين ، وقد كادت تتلامس الوجوه ، وتتلاقى الأنفاس ، وكدت اختنق ، واذا بشاب على آخر طراز ، في فمه سيكار اسود ضخم كأنه ذنب العضرفوط [1] ، يخرج منه دخان كأن رائحته ضراط الخنافس ، فوقف امامي ، حتى اوشك أن يحرق بناره انفي ، فقلت له : «انتبه ياأخي » ، فصاح : « وأين الحرية الشخصية ؟ وبأي حق تكلمني ؟ » وأمثال هذا الهذيان ...

فرأيت في ذلك عيباً آخر من عيوبنا ، إننا نأخذ المسائل مقلوبة ، ونفهمها على اضدادها ، فلا الشيخ فقه الدين وعرف الحلال من الحرام ، قبل أن يعظ ويفتي ، ولا الشاب عرف المدنية ، وأدرك احوال أهلها ، قبل أن يهذي ويتفلسف ، الدين يحرم إيذاء الناس ، والمدنية تمنع التدخين في الترام ، ولكننا نأخذ مالا نعرف ، ونخوض فيما لا نعلم ، فكان في حياتنا الشيء وضدّه ، اجتمعت فيها المتناقضات ، وائتلفت المختلفات ، كما يكون في عصور الانتقال كلها ...

وصعدت الترام مرة عجوز متصابية متبرجة ، كأنّ وجهها خريطة حربية ، من كثرة الخطوط المرسومة عليه والألوان ، ففوق عينيها خطان اسودان مقوسان ، وعلى خديها بقعتان حمراوان ، وشفتاها كأنها قد غمستا بالماء المغلي فاحترقتا ثم نزفتا ، فاجتمع عليها الدم متجمداً فظيعاً ، فلم تعودا شفتين ولكن حاوتا والعياذ بالله ، آفتين مشوهتين ، واظافر يديها كأظافر

---

(١) من نوع الحرباء والحرذون

ذئبة افترست حَمَلا ، فهي طويلة محمرّة مخيفة ، فوقفت في غرفة الرجال وهي مملوءة بالناس ، والى جنبها غرفة النساء فارغة مفتوحاً بابها ، فنظر الناس اليها متعجبين ، ثم ردوا ابصارهم عنها منكرين ، فقالت : « ما فيكم واحد مؤدب ، يقوم للست ، يا عيب الشوم » .

فقال احد الحاضرين : « تفضلي ، هذه غرفة النساء خالية » فنفضت يدها في وجوهنا ، وقالت :

– أنتم (متأخرين) كثير ، (متوحشين) ماتعلمتم التمدن .

ورأيت مرة شابين دخلا علىّ غرفة الترام ، يلبسان أردية بلا أردان ، وسراويل تشفّ عن السيقان ، فألقى احدهما بنفسه على المقعد فاضطجع اضطجاع العروس على سريرها ، ورفع الثاني رجلا فوق الرجل فعل الراقصة على مسرحها ، ثم تحدثا حديثاً مخلوطاً فيه العامية بالفرنسية بالانكليزية ، بالضحكات الخليعة ، والاشارات المخنثة ، تحدثا في الأدب فكان من رأيهما أن الزيات والعقاد والمازني تحتاج كتاباتهم الى ترجمان ، لصعوبتها وأنها لا تفهم بلا قاموس ، ثم ذكرا الامتحان والدروس ، مع الحب والغرام ، وأماكن اللهو والتسلية ... حتى أني لم أعد أطيق الصبر فنزلت وركبت تراماً آخر .

هذان مثالان لطبقة من نسائنا ورجالنا ، يبديها الترام ان اخفتها البيوت ، طبقة هي في الأمة كالديناميت في البناء ، والسم في الجسم ، والقذى في العين ، وهي وان تكن نادرة فينا ، ولم تكن تخلو أمة من مثلها – لاينبغي للمصلحين منا أن يغفلوا عنها ، ويهملوا اصلاحها لأننا أمة تستعيد اليوم حريتها ، وتبدأ جهادها ، وتسعى لتصل ما انقطع من امجادها ، ولا ينال المجد إلا بشباب أولي خلق وعلم ، ونساء أولات عقل وعفاف .

ولكن في الترام ، في مقابل هذه الصور التي تؤلم وتسوء صوراً تسر

وتفرح ، لقيت فيه أمس فلاحاً من فلاحي مصر بجلبابه و (طاقيته) وزيّه ، وكان معي صديق يتكلم في الجلاء عن مصر ، وفي جامعة الدول العربية ، فاندفع والله هذا الفلاح في حديث عن السياسة والنزاع بين الدول الكبرى ، وموقف هذا الشرق الأدنى ، وما يتوقع له ، وفصّل القول في حالة مصر والشام والعراق والمغرب والحجاز واليمن ، فكانت محاضرة مرتجلة اكثر من نصف ساعة ، مشى فيها الترام من الفسطاط الى شبرا ، لو أن سياسياً دعا الناس الى أفخم ناد من النوادي ، فألقى عليهم مثلها لخرجوا معجبين .

ولقيت في الترام فلاحاً آخر ، مرّ به جابي الترام فناداه ، « يا أفندي » فقال له : « ما فيش أفندية دي الوقت ، الفلاحين هم أسياد البلد » ! يقظة عجيبة وكلام عظيم وسيكون أعظم يوم يصير الفلاحون اسياد البلد حقاً ، يوم لا يبقى في مصر شركة اجنبية ، ولا مصرف اجنبي ، يوم لا يبقى في مصر (شحاد) مصري ، يوم يكون المصريون أعلم من الأجانب وأنظف منهم وأحرص على الصحة وأفهم للحياة وأسبق الى المغامرة ، وسيجيء هذا اليوم قريباً بحول الله .

أيها السادة والسيدات .

إن الترام يكشف أخلاق الناس ، وطبائع البلدان ، وهو مدرسة يرى المرء فيها القبيح من جاره فيتركه ، والحسن فيتعلمه ويستمتع الملاحظ المدقق بعد هذا كله بفصول (الفلم) البشري المعروض عليه .

هذا فصل من الرواية : رفيقان يدعان الأمكنة الخالية ، ويجلسان حولك هذا عن يمينك وهذا عن شمالك ، ويتحدثان في أمورهما الخاصة بها ، من فوق رأسك ، لا يحفلان بك ولا يباليانك ، كأنما أنت كرسي او متكأ او كأن أذنيك شباك يتكلمان منه .

وهذا فصل آخر : رجل طويل عريض لايطيب له أكل (بذر البطيخ) إلا في الترام ، فلا يزال يقضمه بأسنانه ، ويقذف قشره بلسانه ، فإن لم يصب به الناس ، آذاهم بقبح منظره ، وسوء أدبه .

وهذا رجل يأتيك من خلفك وأنت واقف في زاوية الترام ، يرجوك أن تفسح له ليمرّ ، فإذا انزحت له أخذ مكانك وتركك حائراً لا تدري أين تقف !

وهذا عامل بثيابه الملوثة بالزيت المعدني ، او الملطخة بالطين . يحتك بك وأنت بثيابك البيض فلا يدعك حتى ينقل اليك زيته وطينه ، فإن تكلمت قال : « ليه ؟ هو" احنا مش بنى آدم ! »

وهذه امرأة ضخمة عريضة القفا ، تصعد ومعها ولد على ظهرها ، وولد في بطنها ، وولد تسحبه بيدها ، وسلة كبيرة فيها سمك وبصل وكراث ، فتقعد الأرض على ، فتشغل مكاناً كان يقف فيه عشرة رجال ، ثم لاتزال تسب هذا لأنه داس على ثوبها ، وتشتم ذاك لأنه مسّ ولدها .

وهذا عجوز ثرثار ، لا يفتأ الطريق كله ، يذم هذا الشعب لأنه لم يتعلم أن النزول يكون من مقدم الترام ، والركوب من آخره ويعجب من جهله وقلة تربيته ، ولا يزال كذلك حتى يصل الى محطته فينسى محاضرته الطويلة ، وينزل من خلف لا من قدام .

وهذا رجل منتفخ كأنه الديك الرومي ، مزهو" كالطاووس يقعد أمامك فلا يرضيه ألا يمتد ويبرز بطنه ويؤخر رأسه ويرفع رجله في وجهك ، حتى يقابلك نعلها ، ويكاد يمسك طرفها ... ثم إذا لمح الجابي أسرع بالنزول ولم يدفع ثمن التذكرة !

وهذا شيخ له عمامة وعذبة ، لايحب أن يذكر الله إلا على سبحة طويلة

يرفعها بيده حتى يراها الناس كلهم ، ولا يتمسك بسنة السواك إلا في الترام ، فيخرجه من جيبه طويلاً ثخيناً ، فيستاك به على أبشع هيئة ، ثم يعصره بأصابعه ويبصق على الأرض وإذا انتقده أحد ، نادى : ياضيعة الدين ، ويا بوار الأخلاق .

وهذا فصل آخر (يمثله) السائق ، يقف في المحطة يشتري طبق الفول ورغيف الخبز ، ويتباطأ بعدها في سيره ليأكله ، حتى إذا وجد أنه تأخر وفاته الموعد ، أسرع إسراع المجنون ، ولم يمهل المرأة لتركب ولدها وتركب بعده ، فيبقي الولد في الترام خائفاً يصيح ويبكي يكاد يلقي بنفسه ، وأمه تعدو وراء الترام ، والناس يصرخون من كل جانب .

وفي الترام دليل على طباع كل قطر ، ونموذج من حياته ، ففي الشام عراك على النزول والصعود ، وتسابق فظيع الى المقاعد لأن فيه شعباً حديث عهد بالجهاد والنضال ، ولأن الترام له أول وله آخر ، فالناس يركبون معاً وينزلون معاً . وفي مصر تدور أكثر الترامات ، دوران السواني (١) ، وتكر كر الأيام ، لا أول لها ولا آخر ، والناس ينزلون ويصعدون في كل مكان ، وفي مصر شعب وادع أنيس فاذا فرغ مقعد في الدرجة الأولى رأيت كلاً يدعو الآخر اليه . والفرق في الشام وبيروت بين ركاب الدرجة الأولى والثانية قليل لايكاد يظهر في زيّ ولاحديث وهو في مصر ظاهر بيّن ، لأن شعار مصر التفاوت في كل شيء ، فليس في الشام ساحله وداخله ، أغنياء من الوزن الثقيل ولكن ليس فيه ايضاً إلا القليل من الفقراء المدقعين ، وليس فيه علماء كبار جداً ، ولكن ليس فيه ايضاً أمية طاغية ، وجهالة منتشرة . أما مصر ففيها أشد الغنى وأشد الفقر ، وفيها العلم والجهل ، والقصور والأكواخ ، بل إن فيها شارعاً واحداً ، في أوله الملاهي والمسارح فكأنك منه في باريز وفي

(١) جمع سانية ، يدور فيها البغل ليستخرج بها الماء من البئر

أوسطه البنوك والمصارف ، فكأنه من نيويورك ، وآخر شارع من شوارع الرقة او الميادين . والترام في الشام هدف كل مظاهرة ، وغاية كل إضراب ، فإن كان للطلاب مطلب من المعارف أحرقوا الترام ، وإن شكا الناس من سوء الخبز ، او كثرة الضرائب حطموا الترام ، لأنه رمز السيادة الاقتصادية الأجنبية (١) ، وأهل الشام لا يحتملون لأجنبي سيادة لا في الحكم ولا في المال .

إن حديث الترام طويل ، ووقت الحديث قصير ، وقد استنفدته كله وزدت عليه ، وأنا أرجو إن أمللتكم عفوكم ، وأشكر لكم على سماعه صبركم ، والسلام عليكم .

(١) كذا كان ، والترام اليوم ، ككل شيء في الشام ، هو بحمد الله ملك لنا ، لنا وحدنا .

مرثية غراي

نشرت سنة ١٩٣٥

[تعد هذه المرثية من ابلغ المراثي في الشعر الانكليزي ، قرأها على صديقي الاستاذ حيدر الركابي فنقلتها الى العربية كما فهمتها]

قرع الناقوس ينعى النهار الآفـل ، وراح القطيـع يزحف ببطء يتسلق الهضبة راجعاً الى القرية ؛ وعاد الفـــلاح الى البيت يجر رجله تعباً ... وبقي العالم لي وللظلام !

* * *

تدثر الكون بالسواد ، وتوارى عن الأنظار ، وسكنت الدنيا سكوناً مهيباً ، ولم يبق في الجو نأمة تسمع ، الا هذه الأصوات العميقة تفيض بها الأودية البعيدة ، والشعاب النائية ، وإلا طنين حشرة تطير ، ونعيق بوم على تلك الدوحة ، يشكو ظلم الناس وعدوانهم على وكره الآمن .

* * *

هنالك ... عند تيك الشجيرات القديمات ، تحت تلك الرّجام التي يزدحم

عليها العشب ويتكَوَّمُ الكلأُ[1] ... كان « اجداد القرية » ينامون الى الأبد في حفرهم الضيقة ، واجداثهم العميقة .

* * *

لا يوقظهم نسيم الصباح الأرج ، ولا تغريد البلبل الطَّرِب ، ولا زُقاء الديك المزهوّ ، ولا زمارة الراعي السعيد ... كل ذلك لم يعد يوقظهم من رقدتهم .

* * *

لا . ولن توقد من أجلهم نيران المدافىء ، ولن تقوم في خدمتهم ربات المنازل ، ولن يهتف اطفالهم اللُّثغ فرحين بقدمهم ، ولن يَتَسلَّقوا ركبهم يستبقون الى أحلى تَمْنِيَةٍ لهم : قبلة من آبائهم عند عودتهم الى منازلهم وأهليهم .

* * *

كم كان المنجل العضب يخضع لسواعدهم ، وكم كانت الأرض الصَّلدة تَشقّق تحت معاولهم ، والغابة القاسية كم لانت لضرباتهم .

* * *

كان عملهم مفيداً ، وحياتهم مجدية ، فلا يسخر الطموح من مسراتهم الهيّنة ، وحياتهم المجهولة ، ولا تستمع العظمة هازئة حديث الفقر ، وقصته الساذجة القصيرة .

* * *

فإن فخر القواد ، وعظمة الأقوياء ، وكل ماتمنحه الثروة ويأتي به الجمال ... كل ذلك ينتظر الساعة التي لامفر منها ، والغاية التي لامحيد عنها ،

---

(١) كوم الكومة وتكومت : من العامي الفصيح .

لا فرق في ذلك بين عظيم وحقير ، لأن طريق المجد لا ينتهي إلا الى القبر .

* * *

فيا أيها المغترون ، لا تلوموا هؤلاء المساكين أن خلت قبورهم من نُصُب المجد ، وتماثيل الجلال ، على حين تتصاعد ألحان الثناء وأغاني المديح ، من بين جدران المدافن الفخمة ، تحت أقبيتها المزخرفة .

* * *

لأن البخور المحروق ، والتمثال المنحوت ، لا يرد الروح على الميت الراقد ، وهتاف الناس ، وعجيج الجماهير ، لا ينفخ الحياة في التراب الجامد ، وقصائد المديح وآيات الثناء ، لا تبلغ سمع الموت البارد !

* * *

ومن يدري ؟ فلعل في بطن هذه البقعة المهجورة قلباً كان يمكن أن يفيض منه النور السماوي ، ويداً كانت تدير دفة المركب السيامي ، وأصابع كان يمكن أن تمشي على أوتار القيثارة الخالدة فتنشيء النغم السحري . . . لولا أن العلم لم يفتح أمامها صفحاته الحافلة بثمرات الزمان .

* * *

أخمد النسيان جذوة أرواحهم النبيلة ، وأجمد نهر حياتهم الجارية ، وطغا عليهم لج الزمان . . . ولكن ، كم في جوف البحر من جواهر مخبوءة ، ولآلىء مجهولة ، وكم في عرض البادية ، من وردة تفتحت واحمرت ، فلم يرها أحد ، فضارع أريجها العطر في رياح الصحراء .

* * *

ومن يدري ! فلعل هنا بطلاً (كهامبدن) كان حاكماً في حقوله مطلقاً ،

وكان جباراً شجاعاً ، ولعل هنا (ملتون) آخر ، ولكنه صامت مغمور ، ولعل هنا (كرمْوِل) ، ولكنه كرمْوِل برىء من دم أبناء الوطن !

* * *

منعهم القدر من الاستمتاع بهتاف الجماهير، وتصفيق البرلمانات ، ومنعهم من المغامرة ، وركوب الأهوال ، وازدراء المصاعب ، واحتقار العقبات ، ومنعهم من نثر الخيرات على بلادهم، وقراءة تاريخهم في عيون الشعب .

* * *

ولكن القدر لم يمنعهم مزاياهم وحدها وفضائلهم ، بل منعهم رذائلهم أيضاً وجرائمهم ... فلم يرتقوا العروش على الجماجم ، ولم يسدوا أبواب الرحمة على البشر ، ولم يخفوا حمرة العار والخجل ، ولم يخفتوا صوت الضمير، ولم يعطروا معابد ترفهم واستكبارهم بالبخور الذي تحرقه شياطين الشعر .

لقد اتبعوا طريقهم السوي في وادي الحياة المنعزل البارد ، وساروا فيه صامتين ، لم تتعلم أمانيهم القريبة ، وشهواتهم البريئة ، الخروج بهم عن صفوف الشعب المناضل على الحياة ، المزاحم على البقاء .

* * *

ولكنهم مع ذلك لم تخل قبورهم ، من أثر للذكرى ضئيل : شعر مكسور ، ونقش محطوم ، يستجدي المارة آهة العطف ، وهمسة التقدير ، ويحفظ عظامهم من أن تهان .

* * *

إن هذا الشعر ، شعر الأمية الساذجة ، الذي نطق بأسمائهم وأعمارهم ، يقوم مقام التعظيم والتبجيل والرثاء ، وينشر بين القبور نصوصاً مقدسة ، تعلم المربين والمعلمين كيف يصمتون ويتعلمون .

* * *

واي امرىء مهما، بلغ من خمول الذكر، والهوان على الناس، يترك الدفء والنور والسعادة، من غير أن يلتفت الى الوراء فيودع العالم بنظرة . . . إن الروح الراحلة تريد أن تتكىء قبل رحيلها على صدر محب ، والعين المغمضة تحتاج قبل إغماضها الى دموع الاخلاص ، بل إن صراخ الحياة لينبعث من صميم القبر ، فيضرم نارها في رمادنا البارد .

* * *

وبعد ، فيا أيها الشاعر الذي يقوم في المقابر ، ويندب الموتى المنسيين ، إني لألتفت الآن اليك ، فأرى رجلاً مثلك ، شاعراً هائماً ، قد جاء يبحث عما حل بك ، وانتهى اليه مطافك ، فوجد فلاحاً هرماً فسأله عنك ، فقال له :

لقد طالما رأيناه عند انبلاج الفجر ، يسرع الخطو ليستقبل الشمس من ذروة التل .

وطالما لمحناه في الظهيرة متمدداً بجسمه المنهوك على اقدام تلك الشجرة الهرمة ، وفوق جذورها الباردة العجيبة ، يرقب الجدول الذي ينساب الى جانبه ، ويتأمل أمواهه الهادرة المتكسرة ، وطالما ابصرناه هائماً على وجهه بالقرب من هذه الغابة ، باسماً آناً كأنه ساخر من كل شيء ، وآناً عابساً كئيباً كأنه مضنى هدّته الآلام ، أو مريض قتله الحب اليائس .

* * *

وفي ذات صباح ، نظرنا الى الهضبة فلم نجده ، فبحثنا عنه في الذروة ، وعند الشجرة ، والى جانب الجدول ، وبالقرب من الغابة ، فلم نقع له على أثر ، ثم رأينا شاعراً آخر يحتل مكانه .

ثم رأينا بعدُ نعشه محمولاً الى المقبرة ، ترتل من حوله أناشيد الموت .

* * *

وها هو ذا قبره ، قائم تحت تلك الشجرة التي كان يجلس اليها ، فتعال اقترب ... اقرأ ماعليه :

« هنا ... في حضن الأرض ، يرقد شاب تجهله الثروة ، ولا يدري به المجد ، ولا يعرفه الا الحزن الذي اصطفاه خليلا وهو في المهد ، كان كريماً مخلصاً ، فكانت مكافأته عظيمة ، منح البائسين كل مايملك : وهو دمعه ! ومنحه الله كل ما يطلب : وهو صديق . لم يحب أن يفيض في ذكر مزاياه أكثر مما أفاض ، ولم يشأ أن يهتك الستر عن نقائصه ، لأنه استودعها كلها الله الذي لا تضيع عنده الودائع » .

من احاديث الاذاعة

بين البهائم والوحوش

نشرت سنة ١٩٤٧

أيها المستمعون الكرام . انتقل بكم هذه العشية الى بقعة في مصر ، جمعت فيها عجائب البلدان ، وغرائب الحيوان ، فوضع فيها البحر بحيتانه وتماسيحه ، وافراسه وسباعه ، والبر بصحاراه وغاباته ، وأسوده وفهوده ، ووعوله وغزلانه ونقلت اليها الذرى المخضرة من لبنان تنفجر منها الينابيع وتنحدر السواقي ، وتغني عليها البلابل والشحارير ، ومدت فيها القفار الجرداء من الجزيرة تسعى فيها المها وتتسابق العير ، والأحراج الملتفة من الهند تمشي فيها الفيلة ، والثلوج المبسوطة من القطب تخطو عليها الدببة . وعاشت فيها الحيات والثعابين الى جنب الحمام والعصافير ، وصحبت فيها المعزى الذئابُ ، والثعالبَ الدجاجُ ، والسباعَ البشر . وفيها (الجبَلاية) هذا الجبل المسحور ، تدخل منه الى مسارب منحوتة في الصخر ولا صخر ، وكهوف تتسلسل فيها العيون ولا عيون ، وقاعات في باطن الأرض كأنما هي قد أعدت لتكون مخادع للحب أو محاريب للتأمل ، وكأنما هي احلام شاعر قد تحققت ، وأمنية حالم قد تجسمت وطرق ظاهرة وخفية ، تنقلك في خطوات من حر الصيف الى برد الشتاء ،

ومن جلوات الطبيعة في أعراس الربيع ، الى خلوات النفس في نشوات الرؤى تلك هي (حديقة الحيوانات) .

وهي بعد هذا كله معرض للانسان ، ترى فيه طباعه وأزياؤه ، وخلائقه ولغاته ، تسمع فيه اشتات الملاحظات ، وعجائب التعليقات ، تمشي مع الناس فتجد فيهم من يسير على هدى فيرى كل شيء ويقف عليه ، ويخرج وما فاته مشهد ، ولا ناله تعب ، ومن يدع اللوحات الدالة على الطرق ، والحراس المرشدين الى المسالك ، ويسير على غير الطريق ، فيدور دوران السانية ، فيتعب نفسه ، ولا يبصر شيئاً ، ولا يخرج بفائدة ، فكأنه الرجل الضال الذي يترك هدى الأنبياء ، وحكمة الحكماء ، ويتبع عقله الأعوج وهواه ، فلا يسعد في دنياه ، ولا يسلم في اخراه ، وتمر على حراس الحيوانات فتجدهم قد فرقت بينهم الحظوظ إذ ساوت بينهم الوظيفة ، فحارس القرد والفيل والدب الأسمر ، يلعب حيوانه فيقف عليه الناس ، وتلقى عليه القروش ، فيتسلى ويتغنى[1] ، وحارس الخنزير لا يلتفت اليه أحد .

زرت الحديقة ، ومشيت مع الناس انظر كما ينظرون الى انواع الحيوان ، وأرى فيهم امثالها ، ولكنها قد تلففت بالثياب ، ففيهم أسد له بطشته وإن لم تكن له لبدته ، وفيهم ثعلب له حيلته وإن لم تكن له فروته ، ودب له غلظته ، وحمار له غفلته ، وطاووس له خيَلْتُه[2] وذئب له عدوته ، حتى وقفت على الأسد وهو يدور في قفصه متألماً في صمت ، صابراً في استكبار ، كأنه النابغة من الناس حبسوه في (قفص) من وظيفة صغيرة ، أو إفلاس شامل ، أو قرية منقطعة . يلحظ الناس بطرف عينه يقول : آه ، لو كنت طليقاً في البادية يا أيها ال . . . بشر ! ورأيت الحارس يخرجه الى متنزَّهه : الى القفص الضيق ،

(١) أي يستغني ومنه (ليس منا من لم يتغن بالقرآن) (٢) الخيلة : الخيلاء والكبر .

بعد القفر الواسع ، والفضاء الرحيب ، يذله بعصاه ، ويستطيل عليه بسوطه ، كما يستطيل الفرنسي اللئيم على المغربي الكريم ، ويذله بسيف العدوان وقوة السلطان ، وسمعته يزأر مقيداً ، كما يصيح المصلح في أمة افسدها التقليد ، فلا يفزع من زئيره الا الصبية الصغار ، ولو زأر عند العرين لخلع هذي القلوب وزلزلها حتى قفزت من حناجر اصحابها .

ووقفت على الفيل وقد تواضع ، حتى غرّ الناس منه لينه فنسوا شدته ، وهان على احدهم حتى أركبه صبيته ،وصرّفه الفيّال واتخذه لعبته ، كما يطيع الرجل امرأته ، فيضيع رجولته ، ويفقد منزلته .

ووقفت على دبين متجاورين ، أبيض كبير ، قد اتخذوا له في قفصه من الجبس كهيئة الجليد ، ووجهوا امسكنه الى الشمال حتى يظل بارداً ، لاتدخله الشمس ، فيظنه موطنه ، وموطنه هناك على حدود القطب الشمالي . . . ولكنهم لم يخدعوه ، إنه ينظر فيرى قوماً لايشبهون قومه ، إذ لم تستعبدهم فئة قليلة منهم ولم تظلمهم باسم العدل ، ولم تخرسهم باسم حرية الكلام ، ولم تملك دونهم كل شيء، وتستمتع بكل متعة ، بشريعة ماركس ودين ديموس[1]

ودب أسمر صغير . . .

يدور الأبيض النهار كله ، غضبان أسفاً لايهدأ ولا يستريح فلا يصل الى شيء ، ويلعب الأسمر بكرة من الحديد ، ويراوغ الحارس ، ويضحك النظارة ، كلاهما سجين ولكن هذا ينسى سجنه ، وذاك يذكره أبداً ، كالناس منهم من يذكر المصيبة ، ويدنيها من خياله ، فيراها أبداً أمامه ، ومنهم من (يخادع نفسه في الحقائق) فتصفو له الحياة .

والأبيض على جمال شكله ونعومة جلده ، ثقيل سمج ، والأسمر على قبحه لطيف خفيف ، لأن الجمال جمال الروح ، لا جمال الجسد ، فرب حسناء تنبو

---

(١) ديموس باليونانية الشعب ومنه اشتق اسم الديموقراطية .

عنها القلوب ، وغير ذات حسن تهواها الأفئدة ، وتعلق بها العيون .

ووقفت على القردة ، وهي تعيش العمر كله مجلسَ لهو ولعب تقلد كما يقلد (قردة) البشر ، ولكنها تقلد فيما ينفعها وهؤلاء يقلدون فيما يؤذيهم ، وعلى الببغاء وهي تردد ما يقال بلا فهم ، كهؤلاء الذين يعيدون علينا كل ما يقول الغربيون ، وعلى الحيات وهنّ ناعمات الملمس ، ناقعات السم ، كالصديق المخادع ، يُحا-ك ليخاتلك ، ويسقيك من قوله العسل ، وفيه من قبح مقصده الحنظل .

ومررت على فئات الحيوانات على اختلاف اشكالها والوانها ، ومطاعمها ومشاربها ، من كل سائر أو سابح أو طائر ، بما يحارب بمخلبه ونابه ، كالشجاع الأبي ، وما يدافع بسّمه كالنمام المفسد ، وما يقاتل بثقل جسمه كثقال الروح من الناس ، والقنفذ وسلاحه شوكه كسليط اللسان ، بذيء المنطق . والسلحفاة وسلاحها درعها كالمنطوي على نفسه ، المعتصم بصمته . والطاووس وهو كالمرأة سلاحه جماله وحسن منظره ... والذي يعيش في الماء نظيفاً مطهراً كالسمك ، والذي يغتسل في اليوم عشر مرات كالدب ، والذي لايطيب له العيش الا في الاوساخ والقاذورات كالخنزير ، يلغ فيها كما يلغ المغتاب في اعراض الناس ، وينغمس انغماس الفاسق في حمأة الفجور . وسبع البحر وهو أعلاها صوتاً ، وأضخمها زئيراً ، وأقلها غناء ، وأضعفها قوة ، كالجبان الفخور ، والجاهل المدعى وما ينحط على فريسته من علٍ كالنسر ، وما يأخذها قوة واقتداراً في وضح النهار كالأسد ، وما يسلك اليها المسالك المظلمة ، ويتسلل صامتاً خلال الحجارة وفي اصول الجدران كالحيات . وعلى الغزلان والعصافير ، وهي أبهى الحيوان فلا يقف عليها أحد لكثرتها ويقفون على حيوان قبيح لأنه نادر ، لأن قيمة

الشيء بنـــدرته لا بمنفعته ، ولولا ذلك لمـــا كان الهواء أرخص شيء ، والألماس[1] أغلاه .

... حتى مررت على طائفة من الحمير محشورة في زريبة ، طائفة من حمير الشارع تأكل وتهز أذنابها ، تتلفت ترقب العصا تنهال عليهـا كما يرقب الذليـل المهانة ، ويعجب إن افتقدها ، فلما لم ترها وعرفت أنها في امان منها بطرت بطر حديث النعمة ، وترفعت ترفع الاثيم يسود في غفـلة من الدهر ، ونسيت ما كانت فيه كما ينسى غنيّ الحرب عهد الفقر ، ويأنف من السيارة الفورد وكان لا يجد عربة الكارّو ، ويدخل اولاده المدارس الأجنبيـة وكان لا يعرف طريق الكتاب .

يستخشن الخزّ حين يلبسـه وكان يبري بظفره القلم

وفكرتْ هذه الحمير وقدرتْ ، فانتهى بها التفكير الى أنها لم تعد حميراً وإنما صارت بشراً ، أليس في البشر (حمير) ، فلماذا لا يكون في الحمير بشر؟

ومرّ حمار مسكين ، يجر عربة مثقلة بالحشيش لطعام حيوانات الحديقة فنظر اليها ، فلما رآها ... أجفل وارتدّ ...

ماهذا ؟ حمير مثله ؟ إنه يفهم أن يكون في الحديقـة نسور وصقور ، وفهود ونمور ، وزرافات ونعام ، وأن يكون فيها حمير الوحش لأنها غريبة المنظر ، بعيدة الموطن ، نادرة الوجود ، أما ان يكون فيهـــا حمير مثله ، تسمّن وتخدم ولا تعمل ؛ فهذا مالا يفهمه أبداً .

ووقف ونهق لها يحيّيها ،فترفعت عنه وتألمت من تطاوله عليها ، ومدّت شفاهها الرقيقة ،وضمت آذانها القصيرة ، ولوحت بأذنابها استنكاراً واستكباراً ونسيت اصلها وتجاهلت أخاها كما يفعل الموظف الصغير الذي يعيش بمال الأمة

---

(١) لأن أصله ألماس واللام فيه أصلية على الأصح .

إذا وقف عليه أحد ابناء الأمة يسأل حاجة ، إنه يظنه يسأل صدقة ،أو يطلب إحساناً ، أو الشرطي حين يلقى البائع السيار من أهل بلده ، وترجمان المستشار حين كان يقابل واحداً من بني قومه ...

فلما رأى ذلك منها ، بصق ومشى يلعن الحظ الذي جعل (الحمير ...) سادة ، وأقام (الناس)لهم خدماً وخولا ! وبكى على خلائق الجنس (الحماري) لقد ضاعت تلك الخلائق ، وهبطنا حتى صرنا مثل بني آدم ، لانعرف اقدار انفسنا ولا اقدار إخواننا .

* * *

وجعلت أعاود الحديقة ، وأكرر زيارتها ، فأرى هذه الحمير محشورة في الزريبه ، تأكل وتشرب ، وتتعجب لماذا لايقف عليها أحد ! إنها لاتلعب لعب القردة ، ولا تغني غناء البلابل ، ولا تملك هيبة السبع ، ولا ضخامة الفيل ، ولكنّ لها فنها وجمالها ، وما الفرق بينها وبينها ، ألا يقرأ الناس لأدعياء الرمزية ،ولصقاء الأدب ، ولصوص البيان ، كما يقرأون لأئمة البلاغة ، وملوك الكلام ؟ ولكن هذه (الفلسفة) لم تقنع احداً فظل الناس معرضين عنها ، لايحفلون بها .وماذا يبتغون منها؟ وهل قلّت الحمير حتى ماتشاهد إلا بقرش صاغ؟ إن الحمار يبقى حماراً ولو وضعته في القصور ، وأركبته السيارات، وكسوته الحرير ، واطعمته الفستق المقشر ...

حتى كان أمس فرأيت القائمين على الحديقة ، قد عزموا على إخراج هذه الحمير منها ، كي يوفروا على انفسهم ثمن طعامها ، وينتفعوا بجهدها وعملها ،ويجملوا الحديقة بابعادها عنها ...

فعلمت إن هذه آخرة كل (حمار) يتجاوز قدره ، وينسى أصله ، فليعتبر سائر (الحمير) !

* * *

ياسيدات وياسادة . العذر إذا لم أجد ما أحدثكم به إلا حديث الوحوش والحمير ، فالحديث عنها ، أكثر فائدة ، وأسلم عاقبة من أحاديث الناس .

والسلام عليكم ورحمة الله .

لا أؤمن بالانسان ★

نشرت سنة ١٩٤٦

« ويدعو الانسان بالشر دعاءه بالخير وكان الانسان عجولا ـ وكان الانسان كفورا ـ وكان الانسان قتورا ـ وكان الانسان أكثر شيء جدلا ـ وخلق الانسان ضعيفا ـ قتل الانسان ما أكفره ـ يا أيها الانسان ما غرك بربك الكريم ـ وإذا أنعمنا على الانسان أعرض ونأى بجانبه ـ وإذا مس الانسان الضر دعانا لجنبه أو قاعداً أو قائماً ، فلما كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا الى ضر مسه ـ وإنا إذا أذقنا الانسان منا رحمة فرح بها وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم فإن الانسان لكفور مبين ـ إن الانسان خلق هلوعاً ، إذا مسه الخير الشر جزوعا ، وإذا مسه الخير منوعا إلا المصلين الذين هم على صلاتهم دائمون . ـ إن الانسان لكنود ـ كلا . إن الانسان ليطغى أن رآه استغنى » .

(★) كتب الاستاذ عبد المنعم خلاف في شرح دعوته الى الايمان بالانسان كتاباً كبيراً قيماً ، ناظرناه أنا والاستاذ محمود شاكر فيها ساعات طوالا السنة الماضية في داره ودار الاستاذ الزيات ودار الاستاذ شاكر وتكلمنا فيها في دار الدكتور عزام ، وليس عندي جديد لم أقله يومئذ فأقوله اليوم ، وما أظن أن عند الاستاذ جديداً فيما لم يكتبه في كتابه ، فلست أجدد اليوم هذه المناظرة ولكن اذكر الاستاذ بما لم ينسه في حكم الاسلام في هذه المسألة وأبين له لم لا أومن (أنا) بالانسان. والاستاذ خلاف صديقي ورفيقي في (دارالعلوم) سنة ١٣٢٩

كلام من هذا يا أخي يا عبد المنعم ؟ أفبعد قول الله مقال لقائل ؟ وإذا كان الله الذي خلق الانسان على أحسن تقويم، وكرّمه وعلمه البيانَ يقول انه ضعيف هلوع، جزوع من الشر، منوع للخير،منكر للنعمة ، كفور قتور كنود عجول جَدِل ، يطغى إذا استغنى ، وان هذا كله في طبيعته وتركيبه - تريد أن أومن به ؟ وبِمَ أومن ؟ إن هاهنا محذوفاً لا بد من تقديره ، فالايمان هو التصديق ، ونحن إذ نؤمن بالله نصدق بوجوده وكماله واتصافه بكل صفة خير ، وننزّهه عن كل صفة شر ، فبماذا تريدني أن أصدق حين أومن بالانسان ؟ أبكماله النسبي وسموّه وأنه مخلوق خيّر ؟

إذا كان هـذا هو المراد فأنا أومن ... ولكن بالانسان الذي أصلح إنسانيته بالايمان والعمل الصالح . فإذا لم يفعل عادت هذه الانسانية خسراً لصاحبها ووبالاً عليه ، وكانت (حمارية) الحمار و (كلبية) الكلب ، خيراً من هذه (الانسانية) في الدنيا ، وأنجى منها من العذاب في الآخرة . ولست أنا الذي يقول هذا الكلام ، وليس هذا رأياً أراه ، ولكنه قول ربك الذي أقسم عليه ورب هذا الانسان : «والعصر إن الانسان لفي خسر ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر » .

فإذا كنت تؤمن بالانسان الذي أدرك ماخلق له فسعى اليه ، وعرف الله فأطاعه ، فأنا معك ، وإذا كنت تؤمن بالانسان من حيث كان انساناً ، فلا يا أخي . إني لم أجد دواعي هذا الايمان . وهـذا تاريخ الانسانية كله ، نَحِّ منه الأنبياء ومن ساروا على هديهم ، وأصلحوا فساد إنسانيتهم بشرائعهم ، ثم انظر ماذا بقي ، وقل لي أين الانسان الذي تؤمن به ؟ ألانسان الذي قتل أخاه وتركه في العراء حتى علّمه غراب أسود كيف يواري سوأة أخيه ؟ أم الانسان الذي ارتقى حتى صار يقتل بالقنبلة الذرية الآلاف من النساء والولدان

لا يجدون حيلة ، ولا يهتدون سبيلا، ولم يذنبوا ذنباً ، ولا أعلنوا حرباً ؟ أم الانسان الذي استغل هذه الحرب ، وهي مأتم الانسانية ، فأخذ اللقمة من فم المرأة التي سيق زوجها الى القتال ، والولد الذي أخذ أبوه الى الحرب ، حتى إذا ماتوا من الجوع لبس الحرير ودان بالفجور ، ورقص على جثثهم في هذا المأتم الباكي ؟ أم الانسان الذي يخون عهده وينسى الخبز والملح على حين تفي الكلاب ؟ أم الذي يجزع ويضيق صدره ويبيد صبره على حين تصبر الحمير ؟ أم الذي يشقي غيره ليسعد نفسه ، على حين يتعاون النمل والنحل على ما فيه خير الجميع ؟

آلانسان الذي انفرد دون سائر الأحياء من ملائكة وحيوانات بالكفر بالله ، لا يشاركه هذا (الشرف ...) إلا الشياطين وهم كفار الجنّ ، على حين يسبح بحمد الله كل شيء ؟ أهذا الذي نؤمن به ؟ وأين دواعي الايمان حتى أومن مثلك؟دلني عليها ياأخي فإني لا أراها . إني لأتلفت حولي فلاأكادأرى إلا آكلا الدنيا باسم الدين ، أو شارباً دم الوطن باسم الوطنية ، أو سارقاً أموال الناس باسم التجارة، أو حافراً بئراً لأخيه وهو يبسم له بسمة الاخاء ، أو متعالياً على الناس باسم الوظيفة وهو أجيرهم ، أو استاذاً يستغلّ منصب التعليم وهو من عمل الأنبياء ليعتدي على عفاف تلميذته ، أو طبيباً يسطو على عرض مريضته أو ممرّضته ، أو محامياً يأخذ أجرة الوكالة من (جمال) موكلته ، وامرأة تخون زوجها، وزوجاً يخالف الى غير امرأته ، وكل يكذب بقوله وعمله ويظهر غير حقيقته، والكبير يأكل الصغير كما تأكل الحيتان السمك ، ويتربص به ليلدغه كما تلدغ الحية ، فأين الانسان الذي نؤمن به ياأخ ؟ إني لأقوم على الطريق فأنظر فلا أكادأرى إلا ذئباً يلبس الثياب ثم يسطو كماتسطو الذئاب، او ثعلباً يحتال مثل الثعالب ، او ثعباناً ناعم الملمس ناقع السمّ ، او ضفدعاًلهاصوت الثور ولكن لا تجر

المحراث ، او ضبعاً تأكل أجساد الموتى ، او جرثومة فتاكة تفسد في الخفاء ، فأقول سامح الله عبد المنعم ! أهؤلاء هم البشر الذين يؤمن بهم ؟!

وأنقل البصر الى ديار المتمدنين فلا أرى مدنيتهم الا أظافر من حديد ومخالب من فولاذ كأظافر الوحش ومخالبه . ولكن الوحش يفترس ليعيش هو ، وهؤلاء يحاربون لئلا يعيش غيرهم ؛ ووجدتهم استخدموا قوى الطبيعة ولكن للشر ، واستعملوا عقولهم ولكن في الضلال . وهذه طبيعة الانسان ، فلا تقل إن كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه او يمجّسانه ، فإن هذا حجة لي ، لأن أبوي المولود من البشر ، فإذا كانا يفسدان الفطرة فلأن الافساد من عمل الانسان ، ما عرفنا حيوانا يفسد فطرة الله في وليده لا سبعاً ولا قطاً ولا دودة ولا طائراً؟ أوليست نفس الانسان يا أستاذ أمارة بالسوء ؟ أليست أخت الشيطان : تصفّد الشياطين بالأغلال في رمضان فتخلفها نفوس بني آدم فتعمل عملها وتفسد فسادها ، وتوسوس وسواسها (فوسوس إليه الشيطان) (ونعلم ما توسوس به نفسه) (ان النفس لأمارة بالسوء) ، ومانفس الانسان ؟ إنها طبيعته التي طبعه الله عليها .

وما دام كلانا (والحمد لله) مسلماً ، فعلام نختلف في حكم من أحكام الاسلام ، وهو أن هذه الحياة الدنيا طريق له غاية خلق الله الناس لها ، (وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون) ، وأن من يحرص على راحته في سفره ، ويتخير لذلك الزاد والمركب ولا يكون له مقصد من السفر ، لا المنفعة ولا المتعة ولا السياحة فهو أحمق ، وأن كل عمل يعمله من لا يؤمن بالله ، وكل اختراع يخترعه سراب بقيعة ، لايزيده من الله إلا بعداً ، ولا يكون في نظر الاسلام الا دليلاً على جهله وضلاله وخساره .

أيستطيع مسلم يا أستاذنا عبد المنعم أن ينازع في هذا ؟ فما النتيجة ؟ هي

أن الانسان شرّ الدواب في الدنيا ، وأخزى المخلوقات يوم القيامة ما لم يطهر نفسه بالايمان ، ويصلح فساد نفسه بالاتصال بالله .

وهل أدلّ على ندرة الحق والخير والجمال في عالم الانسان من كونه جعلها مثلاً أعلى ، ومطمحاً من المطامح البعيدة ، وأملاً من الآمال النائية ؟ ولو كانت خلائق راسخة فيه ، وكانت طبيعة ملازمة له ، ماجعلها كذلك . فلو كان صادقاً ما كان يمدح الصادق بصدقه ، ويعجب منه أن لازمه وأقام عليه . ولو كان وفياً ما كان رابع المستحيلات عنده ... الخلّ الوفيّ . إنما يطمح المرء الى مالا يملك ، وإن مائة الدينار من الذهب هي (مثل أعلى) للفقير المفلس ، ولكنها عند الغني حقيقة تافهة .

ألا إني أومن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقضاء خيره وشرّه ، ولكني لاأومن بإنسانك هذا ؟ فهل عليّ من الله من شيء ؟

إذن فليقل الناس عني ماشاءوا !

من أحاديث الإذاعة

حكمة القدر

نشرت سنة ١٩٤٨

دخل علينا أمس ، وكنا جماعة في المجلس صديق لنا ، فقال إن ابنة الاستاذ حبيب زحلاوي قد سقطت من الطبقة السادسة الى الشارع ! فارتعنا جميعاً ، واعظمنا الخطب ، وكنا نعرفها طفلة حلوة ملء إهابها الطهر والجمال والنشاط ، فلم نستطع أن نتصورها وهي مزق من اللحم قد اختلط بعضه ببعض ووجمنا وكانت سكتة لم يقطعها الا ضحك صديقنا المخبر ، فعرفنا أنها مزحة ثقيلة من مزحاته ، واقبلنا عليه نسبه ونشتمه ، فقال : والله ما كذبت عليكم ، لقد وقعت من الطبقة السادسة ولكنها لم تصب بشيء ، وهي سليمة ...

فصرخنا جميعاً : سليمة . قال : نعم والله . ألا تصدقون ؟ إنها وقعت على حبال الغسيل الممدودة بين الشرفتين حبال الطبقة الخامسة ، فعاقتها قليلا ، ونفذت منها الى حبال الطبقة الرابعة ، ومازالت تمر من حبال الى حبال ، حتى إذا بلغت الشارع ، كانت سقطتها على كومة من الرمال ، صبتها سيارة صباح ذلك اليوم ، فلم تصب بأذى .

ومضى يحلف ويؤكد الايمان أن الذي يرويه هو الصدق والحق ، وأن

صبياً لصديق آخر لا اسميه لئلا أسوؤه، واذكره بمصابه ، وقف على مكتب أبيه يلعب ، فرأى صورة معلقة بالجدار ، فوثب يريد أن يصل اليها ، فوقع على أرض الغرفة ، وكانت من البلاط ، وكانت السقطة على يافوخه ، فمات لساعته .

وقال معلقاً ومتفلسفاً : ففيم إذن نفكر وندبر ، ما دام لا ينفعنا فكر ولا يفيدنا تدبير ، ولم لا ندع الأمور للقدر ونتركها تجري في أعنتها كما يريد لها مجريها ، وما دمنا لا نملك انفسنا ولا نعرف مصائرنا ، وما دام هذا الكون كالمعمل الضخم ، المشتبك الآلات ، المتعدد الحركات ، وما نحن الا مسمار صغير فيه ، نسير كما يسيرنا (مهندسه) الاعظم ...

واسرع واحد منا ، فقال مصدقاً : نعم ، ولكننا خلقنا للشقاء ، وأقمنا هدفاً للمصائب ، ووضعنا في دنيا ما فيها الا الآلام . من سلم منها اليوم وقع غداً ، ومن لم يمت ولده من سقطته مات من علته ، او مات وهو صحيح معافى ما من الموت بد ... ولا بد قبل الموت من البلايا والمتاعب ...

وتكلم ثالث ، يرى نفسه من كبار العقلاء ، فأنكر القدر ، وجحد المقدر . وزعم ان الحياة ليست الا عجينة في يدك ، أنت تديرها وتصورها ، فإن صنعت منها تمثال غادة جميلة كان لك جمالها ، وإن عملت منها هولة قبيحة كان عليك قبحها ... إن مرضت فمن إقلالك الغذاء وإهمالك التوقي ، وإن دعست [1] فمن تركك الحذر ، وإن افتقرت فمن قعودك عن السعي ... وامثال هذا الكلام .

فقلت له : فلم ولد هذا في دار علم وتهذيب فتعلم وعرف سبل الوقاية ، وخطر الامراض ، ونشأ ذاك في بيت جهل وفساد ، فشب جاهلاً فاسداً ، لا يعرف كيف يتقي الداء ؟ ولماذا دعس هذا من قلة حذره ، وسلم من هو

---

(١) الدعس من العامي الفصيح .

أقل منه حذراً ، وطريقه اشد خطراً ؟ ولماذا يسعى الرجل حتى تنقطع من السعي انفاسه ويرجع ولم يصل ولا الى مثل خفي حنين ، وتأتي الأموال لآخر بلا سعي ولا طلب ؟

ولماذا يتاح لهذا النابغة أن يظهر نبوغه ، حتى يكون اسمه تسبيحاً على كل لسان ، وعنواناً في كل كتاب ، ويجهل من هو أحدّ منه ذكاء ، واكبر موهبة ، واظهر استعداداً للنبوغ ؟

ولماذا ؟ ولماذا ؟ وألف لماذا ، لو شئت لسقتها لك فما استطعت الجواب على واحدمنها . فما أنت في الوجود ؟ هل تسيرأنت الفلك على هواك ، وهل تسوق الكون الى غايتك . هل أنت إله ؟ إنك ما كونت نفسك ، ولا شققت بيدك سمعك ولا بصرك .

قال : فهل ترى أنت أن الانسان مسير ؟.

قلت : مامسير ؟ وما مخير ؟ وما هذه الفلسفة الفارغة ؟ لقد اشتغل بها البشر ، ومن يوم بدأوا يفكرون واختلفوا عليها ، وتجادلوا ، ولا يزالون يختلفون ويتجادلون ، لم يصلوا الى شيء . وإنما تاهوا في بيداء لا أول لها ولا آخر ، وهاموا على وجوههم في مهمه متشابه الأرجاء ، بلا أمل ولا رجاء ، فذهب هذا ينكر القدر ، ويزعم أن الحياة ملك الانسان ، واحداثها صنع يديه ، وراح ذاك ينكر إنسانيته ، ويجحد نفسه ويراه مسماراً في آلة الكون ، وحجراً في جبل ، يدور مع الأرض أنى دارت . وكان هذا متشائماً لا يرى الا الذي وقع عن الكرسي فمات ، فأعتقد أن الدنيا دار المصائب ، وكان ذلك مغروراً ، لم يبصر الا التي وقعت من الطبقة السادسة ولم تمت ، فحسب أنه يسلم من كل أذى .

ونحن مع القدر بشر ، لا آلهة ولا حجر ، والدنيا ليست مسرة كلها ولا مصائب ولكنها مسرة وكدر

وأنا كلما فكرت ، وذكرت مارأيت من الحوادث بعيني ازددت يقيناً بأن اكثر الناس لايعرفون سر الايمان بالقدر :

رأيت الترام مرة وقد انكسر مقوده ، فانحط من المنحدر المائل عند (الجسر) في دمشق ، وكانت امرأة واقفة بين خطيه بعد المنعطف ، فلما رأته مقبلاً كالموت النازل ، سمرت رجلاها من فزعها بالأرض ، وجمدت ولم يجرؤ احد ان يدنو لانقاذها فيموت معها ، والوقت اضيق من أن يتسع لشيء ، فأغمضوا عيونهم حتى لايروا ... فلما وصلت الحافلة الى المنحنى تركت الخط وسارت قُدُماً ، فصدمت جداراً من اللبن ضعيفاً ، ومرت منه الى قوم في دارهم فقتلتهم .

ورأيت مرة بعيني شباباً يمشون تحت فندق (عدن بالاس) في دمشق فرفع احدهم رأسه فجأة فرأى شيئاً يهوي قد صار حيال بصره فتناوله بيديه ، واذا هو صبي رضيع وقع من شباك الفندق ، وهبطت أمه كالمجنونة ، وهي امرأة من (حماة) فرأته سالماً ...

ورأى غيري حوادث مثل هذه الحوادث . وفي كتاب (الفرج بعد الشدة للقاضي التنوخي) مئات من القصص عمن نجا وهو في لج الهلاك ، وفي كتاب الحياة آلاف من الاخبار عمن هلك وهو على بر النجاة .

فما سر هذه العجائب ؟ وكيف عاشت المرأة وقد فرطت وعرضت نفسها للموت بسيرها بين خطي الترام ، ومات قوم اتخذوا كل اسباب الوقاية ، فدخلوا دارهم ، واغلقوا بابهم ، فشق الترام الحائط ودخل عليهم فدعسهم ، وكيف وقعت البنت فلم تمت ، وتموت كل يوم مئات من البنات من غير وقوع ؟

إن هذا هو السر الذي لا يعرفه احد، فلا تحاولوا كشف سر القدر، ولكن استفيدوا من حكمة القدر، وهذا ما سقت له حديثي .

ستقولون، وماذا نعمل ؟ هل ندع اولادنا يسقطون من الشبابيك لانبالي لأنها إن كانت لهم حياة فسيبعث الله لهم حبالا تمسكهم، او رجالا تتلقاهم، ولنقعد عن السعي لأنه إن كان لنا رزق فسيأتينا بلا سعي !

لا ياسادة، ماهذا طريق فهم القدر، ولا هذه حكمة القدر .

صحيح أن الرزق مقدر، فهذا وضع رزقه على مكتبه، فما عليه الا ان يقعد على كرسيه، ويمسك قلمه، ويكتب اسمه الكريم كل نصف ساعة مرة على اوراق تعرض عليه، وهو يشرب قهوته، ويدخن دخينته، فيأتيه الرزق وآخر وضع رزقه في رأس الجبل عليه ان يصعد اليه، او في بلد بعيد عليه ان يمشي اليه، او في باطن الأرض ينزل اليه، او في جوف البحر يغوص فيه، او في جيوب الناس، يأخذه منها ليقبض عليه، فيتحول رزقه الى السجن .

كل يأكل لقمته، ولكن من الناس من تجيئه اللقمة في صحفة من الفضة، ومن يأكلها مغموسة بالدم، او مبللة بالعرق، او ملطخة بالوحل .

لا لاتقل ماسر القدر، فما كشفه صاحبه لأحد، ولكن مادام الامر مجهولا، فاسع ان تأكل أنت لقمتك بطبق الذهب، وجدّ وابذل الجهد، فان لم تصل الى ذلك وصلت الى الرضا والتسليم بحكم القدر وتلك هي حكمة القدر .

والأجل محدود، لايدفعه اذا حضر حذر، ولا يضر إن امتد خطر، وقد يموت الشاب الصحيح، ويعيش الشيخ العليل، ويهلك المعتصم بسبعة اسوار، ويسلم الجندي الذي يقتحم النار، اعرف رجلا من ابطال الثورة السورية، رمى نفسه على الموت خمسين مرة فكان الموت يروغ من تحته ويهرب

منه ، ثم انتهت الثورة ، ونام في فراشه ، فاختصم اثنان من السكارى ، فأطلق احدهما رصاص مسدسه ، فأصاب خطأ رأس صاحبنا الذي نام فما قام .

وروى ابن الجوزي أن رجلاً أغمي عليه فحسبوه مات ، ونصبوه على السرير ، وجاؤوا بالمغسل ليغسله ، فلما أحس برد الماء ، تيقظ ونهض ، فارتاع المغسل وسقط ميتاً .

فلا تسأل ما السر ، ولكن جاهد في سبيل الله ، وناضل عن الحق ، ولا تخف الموت في جهادك ونضالك لأن الأجل محدود ، فقد تعيش مائة سنة ولو خضت غمرات الموت ، فاعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً ، واعمل لأخراك كأنك ميت غداً ، فتكون قد ضمنت لنفسك الدنيا والآخرة ، وهذي حكمة من حكم القدر .

فالايمان بالقدر حياة لأنه يفتح لك في كل ظلمة شعاع ضياء ، وفي كل عسرة باب رجاء ، ولولا الرجاء لمات المريض من وهمه قبل أن يميته المرض ، ولقتل الجندي في الحرب من خوفه قبل ان يقتله العدو ، ولولا الرجاء ما كانت الحياة .

ولو تركت الامور لاحتمالات العقل ، وقوانين المادة ، لما استطعت ان تتنفس الهواء أو تشرب الماء خشية ان تكون فيه جرثومة داء ، ولا ركبت سيارة لاحتمال ان تصطدم ، ولا صعدت بناء لامكان أن ينهدم ، ولما استولدت ولداً لأنه قد يموت ، ولا اتخذت خليلا لأنه قد يخون ، ولما اطمأننت على مال لأنه قد يسرق ، ولا دار لأنها قد تحرق .

والايمان بالقدر راحة لأنه لو كان الفشل من عملك وحدك ، وكان النجاح من صنع يدك لقطعت نفسك أسفاً إن فشلت ، او سبقت .

والايمان بالقدر عزاء ، لأنك إن قدر عليك المصاب بولد ، فاحمد الله

ففي الناس من اصيب بولدين ، وإن خسرت ألفاً ففيهم من خسر ألفين .

فهل عرفتم الآن ما حكمة القدر ؟

هي أن نجد ونعمل ونسعى ، ونبذل الجهد ، ثم لا نحزن إن فشلنا ، ولا نيأس إن لم نصل الى مانريد ،وأن نكون مع القدر كمن يجتاز طريقاً فيه السيارات المزدحمات ، فان ذكر حوادثها واخطارها وحدها لم يستطع أن يتقدم خطوة ، وإن اعتقد من غروره أنه يستطيع أن يرد عنه السيارة المقبلة، ويدفع الخطر الآتي ، لم يسلم ، ولكن إن انتبه وسار بحذر ، فهذا هو العاقل، ثم إن نجا حمد الله أن قدر له النجاة ، وإن أصيب ذكر أنه لم يقصر ، وإنما هو حكم القدر ...

بين الطبيعة والله

نشرت مستهلّ سنة ١٩٣٨

انصرف الطلاب الى بنية النوم حين سمعوا الساعة الكبيرة تطنّ عشر طنات ، وخلت رَدْهة المكتبه ونشر عليها الصمت أجنحته السود ، فلم اكن ألمح في خلاله الا رنين طنّات الساعة وأصداء اصوات الطلاب الذين كانوا هنا منذ لحظة واحدة يتسامرون ويتحدثون ... ترنّ هذه الأصداء في أذني ، فإذا أنا أرها بعيني تتراقص بين طيات الصمت الأسود حتى تنحدر الى أغواره العميقة ، ويشمل السكوت الرهيب بنية التدريس (في كلية بيروت الشرعية) ويتمدّد في أبهائها وغرفها وممرّاتها .

فجلست أصغي الى اناشيد الصمت التي كانت تسمع من حولي باستمرار فأجدها تملأ قلبي مرارة وأسى .

ثم رفعت رأسي فُجاءَةً الى التقويم فنظرت فيه وجمد بصري عليه ... أمن الممكن هذا ؟ أيحدث هذا كله في هدوء ... يموت في هذه الليلة عام ويولد عام ، يمضي الراحل بذكرياتنا وآلامنا وآمالنا الى حيث لا يعود ابداً ، ويقبل القادم فاتحاً ذراعيه ليأخذ قطعة من نفوسنا ، وقسماً من حياتنا ، ولا يعطينا بدلاً منها شيئاً ... وهل الحياة الا أعوام فوق أعوام ؟ وهل النفوس الا الذكريات واللذائذ والآلام ؟

وجلست بين المأتم والمولد افكر وأتذكر وأحلم ... ولقد تعوّدت

أن اجلس هـذه الجلسة كلما تصرّم عام ، أصفّي حسابي مع الحياة، انظر ماذا أخذتْ ، وماذا أعطتْ ، وأراقب هذه القافلة من السنين التي بدأت مسيرها منذ ... منذ بدأ الزمان ، لست ادري متى بدأ الزمان ، والتي تنتهي الى حيث لا يدري أحد

تعوّدت أن اعطى نفسي من فكري ساعة في العـــام ، افكر فيها في نفسي وفي الوجود ...

* * *

نظرت فلم اجد حولي الا كتاب التفسير احضّر منه درسي الذي سألقيه غداً ، وكتب البلاغـة التي اكسر بهـــا دماغي وأدمغة الطـــلاب في غير طائل ... فنحيتها كلّـها ووجدت ركام (الوظائف) التي يجب عليّ أن انظر فيها واصححها ، وأقرأ كل ما تفيض به هذه القرائح الفتية من سخف وهراء ، يدعوه اصحابه (انشاء) ... فبعثرتها في غيظ وحنق .

أنا في هذا البلاء منذ عشر سنين ، عشر سنين يالها من دهر طويل ! كان ربيع حيـــاتي ، وزهرة شبابي ، أضعته كله في هذا العناء ، فماذا استفدت ؟ لا شيء الا أن احرقت نفسي كالشمعة لأضيء لهؤلاء الفتية طريقهم الى المجد ، هؤلاء الذين أحببتهم واخلصت لهم الحب ، وعشت بهم دهراً ولهم ، واعتصرت لهم ماء شبابي ، ثم فرّق الزمان بيني وبينهم ، فلم اعرف مكانهم من الشام او العراق ، ولم يعرفوا مكاني لأنهم لم يفكروا في أن يعرفوه .

فأنا احـــترق كالشمعة ! ياللحقيقة المرّة المروّعة ! يالشمعة شبابي التي ذوت وخبت وأوشكت أن تنطفىء !

إني اعيش في العدم ، اعيش في الماضي بالذكرى ، وفي المستقبل بالأمل ،

مع أن الحاضر وحده هو الموجود ، لقد مضى الغد الى حيث لا رجعه ولن يأتي المستقبل ابداً .

أين هو هذا المستقبل؟ ومنذا الذي يستطيع أن يصل إليه؟ لقد جلست في مثل هذه الليلة من العام الذي يموت الآن ، في شرفة منزلي بالأعظمية (بغداد) احلم بالمستقبل . بهذه السنة التي كانت مستقبلي ، أسعى اليها ، وأؤمل أن ادركها ، فلما ادركتها صارت (حاضراً) وطفقت اعدو الى مستقبل آخر . انني كالثور يسعى ليدرك حزمة الحشيش التي يراها على شبر واحد منه فيهلكه السعي ، ولا ينالها أبداً ، لأنها معلقة بقرنيه تسعى أمامه !

يومض شعاع الأمل من بين فرج الغد ، فنسعى فلا نجده إلا سراباً . إن الأمل مصباح لا يضيء إلا من بعيد . أفليس من سخافات الفكر الانساني أن يضع في اللغة كلمة الأمل ولفظة المستقبل ؟ أليس وجودهما في المعاجم دليلاً على أننا لم ندرك بعد حقائق الحياة ؟

لقد كنت في (الأعظمية) غبياً جاهلا ، لأني كنت مطمئناً متفائلا . كنت كلما ودعت بالخيبة عاماً ، انتظرت آمالي عند آخر ، ولكني صحوت الآن فلا آسف على ماض ، ولا أؤمل في مستقبل .

لقد قدر عليّ ألا اشهد ولادة العام إلا غريباً عن موطني بعيداً عن اهلي تارة في مصر ، ومرة بالحجاز ، وحيناً في العراق . وهأنذا الآن غريب من جهتين : هذا السد الهائل من الجبال ، جبال لبنان بيني وبين إخوتي في دمشق ؛ وهذا البحر الواسع بيني وبين اخي في باريز ؛ والدهر والأبدية بيني وبين آمالي ، والقبر بيني وبين والديّ ؛ وأنا بعد هذا كله غارق في كتب البلاغة ، (ووظائف) الانشاء ، نسيت مشروعاتي الأدبية التي رسمت خططها ، وأقمت

اسمها ، واهملت بحوثي ومطالعاتي ، وبعت ذكائي ومواهبي وشبابي برغيف من الخبز .

هذا ما قدر عليّ ، وإني راض بما قدر !

* * *

إني اعيش بلا غاية، ولكنّ غايتي أن اعيش ، أن اثبت وجودي في هذه الدنيا ، كتلميذ كسلان ما جاء ليتعلم ، ولكن ليعدّ في (التفتد) موجوداً ، او موظف خامل مقصر .

فلماذا إذن أعيش ؟

ألأن لي حق الحياة ؟ فلماذا لا يكون لي إذن حق الموت ؟ ألا املك أنا امر نفسي ، ولكن من أنا ؟ ومن نفسي ؟ أأنا اثنان في واحد ؟

إني لا استطيع التفكير في هذا ...

* * *

وملأ نفسي الشعور بالوحشة ، وأحسست في نفسي وفيما حولي فراغاً مخيفاً ، وشعرت كأن الغرفة تتسع ثم تتسع حتى صار بين الجدران فضاء لا يدركه البصر !

ثم ضاق بي الفضاء — حتى كدت اختنق فيه ، فخرجت الى الشارع ... وكان موهن من الليل ...

* * *

تركت ميدان البرج يضحك بالكهرباء ، ويرقص على ألحان الأشعة ، التي تنسكب على الميدان من ذرى البنى الرفيعة فتغمره بجو فاتن وتسيل على جوانبه ، وتنسج فوقه شبكة منسوجة من ملايين الخيوط الملونة بمئات الالوان ، وتركت الناس يحتفلون بعيد رأس السنة ،

يتأملون معاني الوجود ، وفلسفة الخلود ، وحقيقة الزمان في هذه المراقص الخليعة ، الغارقة في الخمر والعهر .

ويمت شطر البحر أمشي في الطرق المظلمة المنعزلة الخالية إلا من أعقاب السابلة ممن هو حليف البؤس او الرذيلة فخلا الجو لفكري فانطلق ...

قالت النفس : إن العالم يموت ، أفلا نودّعه بحسرة . . . او نسكب على جدثه عبرة ؟

فلم يعرف العقل ما هو الموت ولم يصدق بوجوده ...

قال العقل : ماهو الموت ؟ إن كان انتقالاً من حال الى حال فليس موتاً ؛ وإن كان الموت عدماً فإن العدم ليس له وجود أبداً

قلت : ولكن أبي قد مات

قال : لا ، إنه لم يمت ، إنك تذكره ويعيش حيّاً في ذاكرتك ، وليس له وجود في الواقع

قلت : وأين يوجد ؟

قال : لست أدري ، هو في ذاكره الكون

قلت : إن العام يموت الآن !

قال العقل : إن العام (٣٦٥) يوماً وبعض من اليوم هو ست ساعات و (٤٧) دقيقة ، وبعض منها هو (٣٣) ثانية ، وبعض الثانية . فلنفرض هذا البعض (٢٠) ثالثة ، وبعض الرابعة ، فلنفرض هذا البعض (٢٥) خامسة وبعضاً ... وهكذا يمشي العقل حتى يصل إلى أصغر الأجزاء الزمنية ، ولكنه لا يزال يمشي ولاينتهي أبداً ... إن عام الهجرة مثلاً لاتزال له بقية في الوجود، أجزاء من الزمن بالغة في الصغر حداً لا يدركه العقل ، ولكن تدركه الذاكرة ... إن هذه البقايا هي ذكريات الأعوام الماضية في نفس العام الجديد !

قلت : إني لم أفهم شيئا !

وقفز عقلي فجأة من اجزاء الزمن الصغيرة الى الزمان المطلق ، وراح يمشي على هذا الخط الطويل يقطعه في لحظة ، ولكنه لا يستطيع أن يبلغ طرفيه ، فلا يني يحاول بلوغهما ولا ينقطع عن السؤال ... إلى أين ينتهي هذا الخط ؟ من أين يبدأ ؟ أليس له نهاية ؟ ماهي اللانهاية ؟

وذهب العقل يفكر : إن عمر عشر حشرات ساعة من عمري ، وعمر عشرة رجال ساعة من عمر الصحراء ، وعمر الصحارى كلها ساعة من عمر الشمس ، فما هي الساعة إذن ؟ ماهو العام ؟ ماهي حقيقة الزمان ؟

وماهو المكان ؟ إني لم أر مكاناً قط ، ولم أر الا موجودات لا أعرف نهايتها ، ولا أدرك آخرها ، فكيف لي أن أرى مكاناً ليس فيه شيء ؟ ماحقيقة المكان والزمان ! ما عمرهما ؟ ماذا وراءهما ؟

ألا استطيع أن اعرف هذا العالم الهائل الذي تحجبه عن عيني هذه الطبيعة كما تحجب الكف الدنيا الواسعة وهي كف واحدة ...

وضجرت من هذه الفلسفة ، فانصرفت عن العقل وتركته يهذي وحده وكنت قد بلغت البحر ، فوقفت في حجر الطبيعة أتأمل وأناجي وأحلم ...

لقد نفضت يدي من الناس ولجأت الى هذه الطبيعة السخية الوفيّة الوادعة الجميلة أجد عندها أنس نفسي وراحة قلبي ، انظر اليها فتمّحي هذه الأبعاد والمسافات ، وتبدو لعيني حافلة بالألوان التي لا يستطيع أبرع مصوّر أن يجمعها في لوحة . ومن لعمري يصوّر ألوان الغروب ، او ألوان الزهر في الروض ، او يثبتها على لوحة بالألفاظ والأوزان ، او بالأصبغة والألوان ؟ إن الطبيعة أبرع في الألوان ، ولكن الفن البشري أبرع في الأصوات . إن الطبيعة

ليست موسيقية فنانة ... عندها من الألوان ما لا نهاية له ولكن ليس عندها إلا هدير الموج ، وخرير النهر ، وحفيف الأشجار ، وتغريد البلابل ، وسجع الحمام ، وقصف الرعد . . . هذه موسيقاها ، ومن هنا كانت الموسيقى أسمى الفنون لأنها ابتكار وتجديد ، على حين أن الأدب والتصوير تقليد

هذه الطبيعة التي أجد في حماها الحب والعاطفة والجمال ، كلما لجأت اليها فراراً من الناس ، وضيقاً بالحياة ، وما ذهبت مرة الى بسّيمة [1] وأطللت من (بيت طه) على هذا الوادي الصغير الذي يشبه همسة حلوة من همسات الحب ، او بيتاً بارعاً من قصيدة الجمال ، الا نسيت الدنيا كلها وأحسست أني مع حبيب قد وضع رأسه على فخذي ، ونام ... هذا الوادي الذي تجري فيه العين الخضراء لينة الأعطاف ، فاتنة المحاسن ، كأنها فتاة مدللة تخطر بحسنها وفتنتها على سفح الجبل ، تغمز بردى بعينها ، وتغريه بجمالها ، وهو يلحقها جرياً في بطن الوادي ، متحدراً متكسراً كشاب قوي متين العود ، جهير الصوت ، قد اكتملت رجولته كما اكتملت أنوثتها ، واشجار الحَوْر (حور كواشف عن ساق) يرقصن في عرس الفتاة المدللة والفتى القوي ، رقصة الحب ، يتمايلن على العروسين وقد تعانقا بعد قليل ، وضم الفتى عروسه حتى اختفت بين ذراعيه ، وطار بها الى دمشق ، لتكون جلوتها في الغوطة جنة الأرض .

وهذه الجبال الحمراء ، تقوم على الباب ، تحرس الوادي أن يدخله واش أو عذول يفجأ العروسين العاشقين ، وتمنع الشمس الملتهبة أن تدنو منها او تعكر عليها خلوتها ، فيبقى الوادي جنة تجري من تحتها الأنهار ، والدنيا من حوله في جحيم الصيف .

* * *

(١) قرية حلوة صغيرة مختبئة بين الجبال على القرب من العين الخضراء ، وقد كانت مصطاف الشاميين القريب ، ومنتزم الفاتن الحبيب فأفسدتها (المدنية ...) حين حولتها الى حانات وخمارات ، وجعلتها معابد الشيطان ؟

غبت في تأملي وأنا على شاطيء البحر فلم ينبهني إلا المطر يتساقط على وجهي ويديّ ، فنظرت فإذا السحب قد نسجت في السماء ليلاً آخر ، واذا المطر يهبط متلاحقاً ، ثم يستحيل بَرَداً طياشاً؛ ثم تهب الريح وتجن الطبيعة جنونها ، فتنطلق تعول وتولول ، وتنتف شعرها ، وتحطم كل ما بلغته يدها ، فماجت نفسي واضطربت كهذا البحر الذي يزمجر ويلكم صخور الشاطىء حتى تكل سواعده ، فيستلقي على الرمال فلا تكون الا لحظة حتى ينزل سوط الريح على ظهره دراكاً ، فيهب فزعاً مرتاعاً ، ويعود الى ضرب الصخر في غير ما طائل ، والريح تدير هذه المعركة كلها ، تقفز على رؤوس الجبال ، وتبعثر البَرَد يميناً وشمالاً ، وتنثر الرياح ثم تجمعها ثم تعبث بها .

جنت الطبيعة جنونها ، ولكني لم أخفها ولم تكبر في عيني ، وانما ازدريتها وابغضتها ، ماهذه المخلوقات الضعيفة العاجزة التي لا يدري بها احد من سكان هذا الكون الواسع ؟ لقد رأيتها من قمة لبنان نقطة ، فكيف يراها المشتري ؟ وهل يعبأ نجم القطب بثورتها وجنونها .. ؟

وانصرفت الى نفسي أفكر آسفاً

إن العام يتصرم وليس حولي صديق اطمئن اليه ، واحمل معه أعباء الوداع ، وأشاركه دمعة يذرفها معي على الفقيد الراحل ، وبسمة يمنحها هذا المولود الجديد .

عرفت أن الصداقة ليس لها وجود عند الناس ، فنفضت يدي منهم ولجأت الى الطبيعة اتخذها صديقي المخلص وأوليها حبي وقلبي فكانت هذه هي النتيجة . صادقت مجنونة طياشة بطاشة لا تعرف الا التخريب والتدمير وتجهل ماهو الحق ، وما هو الشعور ؟

"هذا كل ما لي عندك ياصديقي ؟ ألجأ اليك في ساعة من أحرج ساعات

حياتي قد تركت فيها اهلي وعفت صحبي لألقي بنفسي في أحضانك ، واخفي وجهي بين نهديك ، وأنشق عطرك ، واغتسل بعبير محبتك وأدفن آلامي في صدرك ، فلا تلقيني الا بهذا الجنون وهذا العويل ؟

كلا ، إنك لا تعرفين الحق ولا الشعور !

* * *

وأين لعمري مكان الشعور من الطبيعة ؟

أنا اشعر بجمال الربيع ، ولكن هل يشعر الربيع بجمال نفسه ؟ لقد رأت الكونتس دي نواي في الطبيعة مخلوقاً حياً ذا شعور ،وعانقت الربيع ، وجالست المساء ، ولكن ماذا رأي الربيع في الكونتس دي نواي ؟ هل يفرق الربيع بين الفتاة تقطف الزهرة لتقدمها بفمها الى حبيبها ،والبقرة تقطف الورقة لتملأ بها معدتها .

وأنت أيها الجبل : كم رأيت من الفواجع التي تفتت الأكباد وتذيب القلوب ، فهل شعرت بشيء منها ؟ هل حزنت هل تألمت ؟

أشعرت بالأمس القريب يوم عصفت الأثرة برؤوس نفر من القواد ، فأطفأوا بأفواههم شعلة السلام ،وملأوا العالم ظلاماً ونزعوا الرؤوس من اكتاف اصحابها . ثم نهضوا يبنون من الجماجم مجدهم في التاريخ ، فلما امتلأت الأرض بالجثث ، وغسلت بالدموع ، وتجلببت بالآلام والأوجاع والثكل واليتم ، ولما سهر الأمهات يبكين أبناءهن الذين ضاعت قبورهم كما ضاعت أسماؤهم ، وعكف الأطفال يهتفون : بابا . ينادون من ليس يجيب ... كان القواد العظماء يحتفلون بالظفر ... أشعرت بشيء من ذلك يالبنان ؟ أشعرت بالأرامل والصبايا والأطفال يفتشون عن الخبز ... الخبز الأسود ، فلما لم يجدوه توسدوا رجلك ونظروا اليك صامتين ، ثم ماتوا جائعين .. كما مات ألوف وألوف في سبيل مجد القواد الظافرين !

ألان قلبك الذي قدّ من جلمـــد الصخر ؟ أذرفت بالبنان من عيونك الصافية دمعة حنان ؟

وكم رأيت بالبنان من متع الحب ! وكم أوى اليك العاشقون فاستظلوا بظلك ، وتعانقوا في حجرك ، وشربوا خمر العيون ، وسكروا بنجوى الحب ، وتحدثوا بوسوسة القُبَل ، ونسوا الدنيا كلهـــا والطبيعة والزمان ، ونسوا أنفسهم حين التقت الشفاه بالشفاه ، وأغمضت العيون لتوى القلوب مفاتن هـذا العالم المسحور وتستمع بهذه الدنيا المعطرة الحلوة المغنية دنيا القبلة الكاملة

أهاج ذلك عاطفتك بالبنان؟ أحرك قلبك كل ذلك أيها الشاب التياه الذي يخطر بحلله الخضراء الزاهية ويتيه بعطره الخالد ؟

فأين هو مكان الشعور من الطبيعة ؟

أأنت أيها البحر الرقيق السيال أرهف شعوراً وأرق عاطفـة ؟ أيحزنك منظر البؤس والشقاء ، وأنت تلتهـــم الأحياء ، وتخنق البشر ، وتفتح فاك لابتلاعهم ، أأنت ذو الشعور ؟

أين هو الشعور ؟ وأين أجد العاطفة في الطبيعة ؟ أأبتغيها في البركان الهائل المحرق ، أم في العاصفة العاتية المدُمرة ؟

* * *

وأين هو الحق في الطبيعة ؟

أنا أرى في الطبيعة عاصفة تكسر الأغصان ، وتقلع الأشجار ؛ وأرى صاعقة تهدم الدور ؛ وأرى سيلاً يجرف المدن ، ويكتسح في طريقه كل شيء ؛ وأرى البركان الثائر ؛ وأرى الرياح العاتية . كل هـذا وجود مادّي للقوة ، فأين هو الوجود المادي للحق ؟

لقد اتضح الأمر ، وخسرت صديقتي الطبيعة الجامدة الظالمة الميتة ...!

فلمن ألجأ ؟

لمن ألجأ ويحك يانفس ؟ هذا العام يوشك أن يموت !

فعجزت النفس ولم تجب ، وانطلق العقل يتفلسف ، قال : إن في الطبيعة لحسًّا وتمييزاً ، ضع ذرة واحدة من الفحم ، وخمساً من الايدروجين يأخذ الفحم أربعاً ويدع الواحدة ، ومهما ضاعفت العدد تبقى النسبة ثابتة ، أفليس هذا دليلا على أن الجماد يميز ؟

وضع الذهب بين عشرة معادن وألق عليه الزئبق فانه يعانق الذهب ويدع كل ماعداه ، أفليس في هذا دليل على أن في الجماد شعوراً وعاطفة ؟

وانظر لنفسك لاتحس حرارة الجو ، ولا ضغط الهواء ، ولكن ميزان الحرارة ، ومقياس الضغط (البارومتر) يحسّان بهما ، أفليس هذا ان الجماد ارهف حساً من الانسان ؟

ولكني لم أنتبه لما قال العقل ؟

* * *

ونظرت الى البحر فقلت : ما البحر ؟ ما الطبيعة ؟ أنا لا أرى الا هذا العالم المادي ؛ ولكن ماذا وراء المادة من عوالم ؟ إن الروح أول محطة في طريق هذه العوالم ، فهل استطعنا أن نبلغها ؟ إن العقل البشري يمشي اليها منذ بدأ صناعة التفكير ، ولايزال في الطريق لم تبن له معالمها ... إنه تعب وملّ ويئس ... افتح الآن كتاب (علم النفس) إنك لاترى في فهرسه اسم الروح ولا النفس ...

وفكرت في العام الراحل فقلت : ماهو العام ؟ ما وجوده ؟ ما حقيقته ؟ ولم أسمع جوابا فأغمضت عينيّ كما أغمضت قبة الأعظمية عينيها منذ

عام ، ولكني لم أحلم ولم أتذكر ، وإنما لبثت صامتاً محدقاً في غير شيء كالأبله او المشدوه ، وتركت عقلي المغرور يتيه وحـــده في فضاء اللانهاية . . . إنه لا يستطيع أن يعرف شيئاً مما وراء المـادة . . . كما أن عقل الجنين لا يقدر أن يعلم شيئاً عن هذا العالم ولا يؤمن بوجوده

وكنت قد نسيت الطبيعة الجامدة الميتة التي لا شعور فيها ولا عاطفة ، ونسيت هذه المخلوقات التافهة الحقيرة التي يدعونهـا (الناس) ، ونسيت هذه الذرة التائهة في رياح الوجود التي اسمها (أنا) ، وتوجهت الى العظيم الباقي الذي هو وحده الخير المطلق والحق والجمال .. توجهت الى الله أسأله أن يلبس هذا العام القادم ثوب السعادة ، ويضفي على العـــام الراحل حلة الغفران . اللهم آمين .

وحي صورة

«كنت ابحث في اوراقي القديمة ، فخرجت في يدي صورة لغلام في التاسعة من عمره ، بطربوش طويل ، وازار (سركس) لاينزل عن الركبتين إلا قليلا ، فوقه سترة ضيقة وتحته جوارب غلاظ ، وحذاء قديم ... فرجعتني هذه الصورة ثمانا وثلاثين مرحلة من طريق العمر ، رجعتني الى سنة ١٩١٧»

نشرت سنة ١٩٥٦

... وامسكت بها انعم النظر اليها ، لااستطيع تركها ، واشعر كأني اعرف هذا الغلام ، واجد ان له من المحبة في قلبي ، اكثر مما لولدي ، ولكن من هو ؟ وما صلتي به ؟ لست اذكر !

وغبت في نفسي موغلا في مسارب الماضي ، وابصرت الصبي يتحرك وتنصب الحياة فيه ، ثم رأيته يخرج من الصورة بشراً يتكلم ويمشي ، كالذي نراه في السينما ... فدنوت منه أحاول ان أمسّه فاذا هو يتفلت مني ، ويروغ يحاول أن يدخل في هذا الضباب المنتشر من حولي ، والذي اظلمت منه الدنيا ، ولم يكن في يدي الا مصباح شاحب الضوء ، يخرج منه خيوط قليلة من النور ، فكنت كلما حاولت أن اخترق بمصباح (الذكرى) ضباب (النسيان) ، عاد يتكاثف الضباب ، حتى حصرت الغلام بين خطين من الضوء فربطته بهما ...

- وقلت : من انت ، فاني أرى كأني اعرفك ؟

- قال : أما أنا فاني مارأيتك ، ولا أدري أني أعرفك، فأرسلني .

- قلت : أنك لغلام مشاكس ، فما اسمك ؟

- قال : ومالك من اسمي ؟ اسمي علي الطنطاوي !

- قلت : هذا اسمي أنا ، فكيفك ويحك تنتحل اسمي ؟ وما أنت أنا ! لايدك هذه يدي ، ولا جسدك جسدي ، ولا رأيك في الحياة رأيي !

ونظرت يا أيها القراء ،فاذا أنا أرى أمامي عشرات من الناس ، مختلفين جسماً وعقلاً ، طفلاً وليداً ، ودارجاً فطيماً ، وصبياًناشئاً،ويافعاً مراهقاً ، وفتى مجتمعاً ، وشاباً مكتهلاً ، كلهم يزعم أنه علي الطنطاوي .

وسمعت قائلاً يقول لي : لاتعجب فأنت أبداً في انتقال ، في دورةموت وحياة ، كل يوم يموت فيك شخص ، ويولد شخص ، كالشجرة تطرح أبداً من قشورها وتصنع لنفسها غيرها ، او كالنهر ، تأمل النهر ترَ كل لحظة قطرة تذهب ، وقطرة تجيء ، والنهرهو النهر ، ولولا هذا الجريان المستمر ، لكان بركة مستطيلة فيها ماء آسن ، ما كان النهر نهراً الا لأنه يجري ويتبدل ، وما كان الانسان انساناً حياً الا لأنه يتغير ويتحول .

وتصور الانسان الذي كان في جلدك من عشرين سنة ، هل فيك ذرة من جسده ؟ او نقطة من دمه ؟ ألا تحب ما كان يكره ؟وتحقِرما كان يقدس ؟ وتزهد فيما كان يحرص عليه ؟

وانظر لنفسك اما يتبدل المخلوق الذي يحمل اسمك بين ساعة وساعة ؟ بين ساعة الرضا وساعة الغضب ، وحين يملأ قلبه الايمان وحين تشتعل اعصابه بالشهوة ؟ اما يكون مرة نمراً كاسراً ، ومرة شيطاناً مريداً ، ومرة ملكاً نورانياً ؟

وولّى عني وتركني افكر ، كيف كان هذا الغلام يوماً (أنا) أو كيف كنت (أنا) يوماً هذا الغلام ؟

وكيف يصير (علي الطنطاوي) الواحد، مئة (علي الطنطاوي) مافيهم واحد كالآخر ؟

ولكن ماهذا الذي اقوله ؟ أتروني جننت ؟

أم أن الناس قد جنوا فما يفكر احد في نفسه ، ولا يحاول أن يكشف اسرارها ، ويدرك عجائبها ، وما يرون في الحديث عن اسرار النفس الا فناً من (فنون الجنون) ؟

ومن ينفرد منا بنفسه ، يفكر فيهـــا ويسائلها : من أين جاءت ، ولم خلقت ، والى أين المصير ؟

اننا نهرب منها أبداً ، ونشتغل عنها بكل شيء ، حتى الكتاب الفـارغ والحديث التافه ، واللعبة الحمقاء ، والقعود على كرسي القهوة الساعات بلا عمل ، كل شيء الا صحبة النفس !

كذلك الناس اليوم ، نسوا الله فأنساهم أنفسهم .

* * *

وانست بهذا العالـم الذي رجَعتني الصورة اليه ، لا أدري أكان ذلك لأنه افضل واكمل ، أم ان الانسان فطر على الزهد في حاضره ، والحنين الى ماضيه والتطلع الى مستقبله .

يضيّع الحاضر لماض لن يعود أبداً ، ومستقبل لن يجيء أبداً ، لأنه اذا جاء صار حاضراً ، فتركه ومضى يتطلع الى مستقبل آخر ، كحزمـة الحشيش المعلقة بعصا مربوطة بظهر الفرس ، فهو يراها أمامه فيعدو ليدركها وتعـدو معه فلا يصل اليها أبداً .

وهذا من عجائب صنع الله في هذه الدنيا ، لئلا يشعر المرء أبداً بالاستقرار فيها ، ولا يرى فيها الا ما يراه المسافر في القطار .

* * *

وصاح بي الغلام يريد ان ارسله لينطلق ، فأسقطني صياحه من جواء الفكر فالتفت اليه ، وعلقت انظاري بهذه الثياب الزرية التي يلبسها ، فسألته :

– أتذهب الى المدرسة بهذه الثياب ؟

– قال : نعم ، وهل تبصر فيها عيباً ؟ هل تكشف عورة ؟ هل ترى فيها تشبهاً بالنساء ؟ أليست نظيفة ؟

– قلت : ألا تلبس الحلة ، التي يلبسها التلاميذ جميعاً ؟

– قال : اتعني ، السترة والبنطال ؟ هل تريد ان يسخر مني الاولاد ، ويلحقونني في الأزقة ، ينادون (فلتّق زم) ؟ وهل يلبسها من التلاميذ الا المخنثون ؟

– قلت : ويجيء التلاميذ جميعاً بهذا الازار (السركس) ؟

قال : نعم .

فذكرت اننا كنا كذلك حقيقة ، وكان الذي يلبس هذه الحلة الافرنجية كالذي يلبس (شلحة) أمه ، وكان الأولاد يهتفون وراءه بهذا الهتاف الشنيع ، واننا لما وصلنا الى الثانوية ، وكان ذلك بعد ميسلون ، ودخول الفرنسيين ، والزمونا بلبسها كانت أمي رحمها الله هي التي تخيطها لي ، فتصور ماذا تكون هذه الحلة التي تخيطها أمي ؟

وأن أول حلة خاطها لي الخياط ، كانت مصنوعة من جبة خلفها أبي رحمه الله ، وكنت في الصف التاسع ، فأحسست يوم جئت المدرسة بها كأني إمام المتأنقين .

وأنا بلغنا صف (البكالوريا) ، ولم يكن فينا من يجرؤ أن يعقد حول عنقه هذه العقدة ، نرى ذلك (تفرنجاً) وتنطساً لا يليقان بطلبة العلم ، فأين من هذا ما يصنع شباب اليوم ؟...

أين هذا التأنق والتجمل ، وانفاق ساعة كل صباح في ترجيل الشعر وتصفيفه ، واختيار العقدة الملائمة للثياب ، والحذاء الموافق للجوارب ، مما كان في أيامنا ؟...

رحمة الله على تلك الأيام .

* * *

وقلت للغلام :

ـ ألا تمشي معي أريك دمشق ؟

ـ قال : أنا أرى دمشق كل يوم ، ولا أريد أن امشي معك . اني لا أمشي مع من هو اكبر مني ، ولا أمشي مع من لا اعرف .

ـ قلت : ولو كان قريبك ؟

ـ قال : فهل أنت قريبي ؟

ـ قلت : أنا اقرب الناس اليك !

ـ قال : وما تكون مني ؟

ـ قلت : أنا أنت فضحك الخبيث وقال :

ـ رحم الله هبنّقة [1] أنت أنا ، فمن أنا ؟

---

(١) هبنقة : أحد بني قيس بن ثعلبة ، ضرب بحمقه المثل فقيل : احمق من هبنقة ! ومن حمقه أنه كان يرعى غنم أهله ، فيرعى السمان في العشب وينحي المهازيل ، فقيل له : ويحك ما تصنع ؟! قال : لا أفسد ما اصلحه الله ولا اصلح ما افسده !

ومن حمقه أنه جعل في عنقه قلادة من ودع وعظام وخزف ، فسئل عن ذلك فقال : لأعرف بها نفسي ، ولئلا اضل . فبات ذات ليلة واخذ أخوه قلادته فتقلدها . فلما اصبح ورأى القلادة في عنق أخيه ، قال : يا أخي ، أنت أنا فمن أنا ؟!

فكدت اقول له ، أنت أنا ، ثم خفت أن يجترىء علي بالقول الجارح لأنه ، كما بدا لي ، سليط اللسان ، فسكت عنه ، ومازلت به حتى رضي أن يمشي معي .

ـ قال : ولكني لا أجاوز آخر الشارع .

ـ قلت : وأي شارع ؟

ـ فقال : وهل في دمشق مئة شارع ؟! الشارع الذي فتحه جمال باشا . وأنا أعرفه من قبل طريقاً ضيقاً ، يمتد من بعد المشيرية الى محطة الحجاز ، يقطعه هذا الزقاق الذي يصل من (المرجه) الى (الشابكلية) : زقاق رامي .

ـ قلت لقد تغيرت الأرض ومن عليها ياولدي ، وفتحت مئات من الشوارع وصارت (المرجة) لب البلد وقد كانت في آخره ، وقامت وراء (شركة الكهرباء) حيث المزابل التي تعرفها ، العمارات الضخمة والحدائق الواسعة ، وطريق الصالحية الذي كان يمتد وحده بين البساتين ما على طرفيه الا بيوت قليلة تقوم صفاً واحداً ووراءه الفضاء ، صار اليوم سوق المدينة ، وقامت على جانبيه احياء اذا جئتها حسبت نفسك في (باريز) ، وحي (المهاجرين) الفقراء من أهل جزيرة (كريت) اقريطش ، صار حي الأغنياء والمترفين ، وصارت البقعة الواحدة منه ، التي لا تذرع مئة متر مربعة ، أغلى من أرض الحي كلها و (بوابة الصالحية) حيث يمر التوام بين (الحسته خانه) و (بستان الكركه) ، في طريق ضيق كان منذ غروب الشمس ، مربط قطاع الطرق..

... لقد صارت (بوابة الصالحية) ميداناً فسيحاً فيه العمارات العالية ، والشوارع الفسيحة ، شارع بغداد ، وشارع الأركان ... والبساتين صارت أحياء عامرة ، بستان الاعجام صار حي الحلبوني ، وبستان السبكي وبستان الحبوبي صارا اضخم احياء الشام ...

لقد دار الفلك ثماناً وثلاثين دورة على دمشق التي تعرفها .

قال :

ـ اذن يجب أن اكون ابن ثمان واربعين !

قلت : نعم .

ـ قال : ألا تراني أمامك صبياً ؟

ـ قلت : وأنت ألا تراني أمامك كهلاً ؟!

ـ قال : أرجو ألا تلقي علي هذه الفلسفة الجنونية .

ـ قلت : ويحك ، ما القيتها عليك ، وهل أنت شيء له (وجود) ؟ انما القيها على نفسي .

وسحبت الغلام ، وسرت به وهو مشدوه مما يسمع .

ورأى السيارات الكثيرة ، وهي تتعادى وتتسابق مسرعة مجنونة كأنها هي راكبة على جناح شيطان ، من كل لون وجنس ، من الصغيرة التي تشبه صندوق اللعب ، الى الكبيرة التي تسع سبعين راكباً ، تخرج عن يمينه ، وعن شماله ، ومن امامه ، ومن خلفه كأنها العفاريت في قصة (الملك سيف) تتلاطم اصواتها في الأذن كأنها عزيف الجن .. فارتاع ووقف حائراً ، فقلت له :

ـ مالك ؟ ألا تعرف السيارات ؟ فلم يشأ ان يظهر الجهل وقال :

ـ وهل تظنني آتياً من الصحراء ؟ كيف لا أعرفها ؟! لقد فاخرت التلاميذ بأن والدي ركب فيها .

ـ قلت : وهل كانت مثل هذي ؟

ـ قال : لا ، كانت سيارة واحدة لجمال باشا ، لم يأت دمشق غيرها ، فكان الناس يخرجون لرؤيتها ، وأنا اعرف الطيارة ايضاً ، صغيرة لها جناحان ، واحد فوق الآخر ، يركب فيها رجلان ...

ـ قلت : ان من الطيارات اليوم ما يركب فيه مئة ، يحملهم من دمشق الى الهند بقفزة واحدة .

فنظر إليّ ، مفتوح الفم شاخص العينين ، كأنه لايصدق !

ـ قلت : وهل تعرف الكهرباء ؟

ـ قال : نعم وادخلناها دارنا منذ ايام ، وضربني المعلم من اجلها ...

ـ قلت: ولماذا يضربك من اجلها؟

ـ قال : كنت احدث التلاميـــذ ، أن في بيتنا مصابيح تشتعل بلا كبريت ، ندير زراً في الجدار فتضيء ، فكذبوني فضربتهم ، فجاء المعلم فضربني[١]!

ـ قلت : ولكن للكهرباء اليوم منافع لاتعرفها ، أنها تدفيء المنازل في الشتاء وتبرد الطعام في الصيف ، وتسيّر الـ ...

وصاح الصبي مقاطعاً :

ـ ماهذا ؟ أعوذ بالله .

فنظرت فاذا هو اعلان عن فلم في السينما ، فيه صورة فتاة عارية ورجل يقبلها ، فقلت :

ـ هذا اعلان سينما ، ألا تعرف السينما ؟

ـ قال : بلى اخذونا اليها في المدرسة ، فأرونا صور القتال في الـ (شناقلعة) وكانت في طريق الصالحية ، بعد (الحسنه خانة)[٢] .

ـقلت : صحيح ، اعرفها ، وقد هدمت وشيد في مكانها عمارة ضخمة ، تعرض (افلاماً) من نوع آخر ، اسمها (البرلمان) !

ـ قال : ولكن كيف لاتمنع الحكومة هذا المنكر ، كيف لاينكره العلماء.

ـ قلت : ان امثال هذه الصور في كل مكان ، انظر ...

واشرت الى المجلات المعلقة في الطرق ، عند البيّاعين ، وسألته :

ـ ألا تقرؤون المجلات ؟

ـ قال : وما المجلات ؟ اننا لانعرفها !

---

(١) هذه حقيقة وقعت لي ايام الحرب الاولى . (٢) وكانت السينما في موضع البرلمان وقد احترقت وبقيت انقاضها سنين طويلة .

ـ قلت : أتقرؤون كتب غير كتب المدرسة؟

ـ قال : نعم ، أنا اقرأ في العقد وحياة الحيوان للدميري و كتاب الفرج بعد الشدة والاغاني .

ـ قلت : هذه كتب لايقرؤها الا العلماء ، فمن دلك عليها وأنت في هذه السن ؟

ـ قال : كان (الرجال) الذين يجتمعون على أبي للدرس كل يوم ، يتناقشون فيقول لي أبي ، هات الجزء الرابع من (تاج العروس) ، هات الثالث من (الحاشية) ، هات الخامس من (فتح القدير) ، فتعلمت اسماء الكتب ، وصرت ادخل المكتبة وحدي ، فأسحب كل كتاب ، فاقرأ فيه صفحة ، فان اعجبني قرأته ، والا أخذت غيره ، فمن هنا عرفت هذه الكتب[1] .

ـ قلت : وهل يعرفها رفاقك في المدرسة ؟

ـ قال : ان بعضهم يعرف بعضها .

ـ قلت : ألا تقرؤون كتباً للتسلية ؟

فاحمر وجهه وسكت .

ـ قلت : خبرني ، لا تكذب علي ، ولا تخف مني .

ـ قال : ولماذا أخافك ؟ أنا لا اخاف أحداً ، ثم اني مؤمن لا اكذب ابداً ، وهل يكذب المؤمن ؟!

ـ قلت :إذن خبرني!

ـ قال : نقرأ القصص في الخفاء ، قصة عنترة وحمزة البهلوان والملك سيف ، وكنا نقلد هؤلاء الابطال ، فنتبارز في صحن الأموي ، كل يوم عندما ندخله .

ـ قلت : ولماذا كنتم تدخلونه كل يوم ؟

ـ قال : لماذا ؟ لنصلي ونسمع الدروس .

---

(١) هذه كلها حقائق .

ـ قلت : ولم ؟ أليس في المدرسة درس دين ؟

ـ قال : لا .

ـ قلت : كيف ؟ ألا يعلمونكم القرآن ؟

ـ قال : بلى ، عندنا درس تجويد ، ودرس تفسير .

ـ قلت : والفقه ؟

ـ قال : وعندنا درس فقه ، وعندنا درس حديث ، ودرس وعظ .

ـ قلت : وكم ساعة في الاسبوع لذلك كله ؟

ـ قال : عشر ساعات .

ـ قلت : انهم يستكثرون عليها الآن ساعتين في الاسبوع .

ولست ادري لماذا يحسبونها درساً واحداً؟انها دروس مختلفة،ولو كان يجمعها اسم الدين ، فاذا كان يكفيها ساعتان ، فاجعلوا للعربية ساعتين فقط للنحو والصرف والانشاء والاملاء والمحفوظات ، وللرياضيات ساعتين فقط للحساب والهندسة والجبر ، وللطبيعيات ساعتين ولو تعددت علومها .

* * *

وقطع الحديث وجعل ينظر مدهوشاً الى النساء السافرات ، الباديات الاذرع الى الآباط ،والسيقان الى الركب ، الكاشفات الشعر والنحر والصدر.

ـ قلت : مالك ؟

ـ قال : ماهؤلاء ؟

قلت : نساء .

ـ قال : وهل تظنني حسبتهن بقراً، ولكن كل نساء الشام يلبس الملاءة، لا تفرق المسلمة من النصرانية او اليهودية ، الا بأن هذه تستر وجهها ، وتلك

تكشفه ، أما الملاءة فالجميع [1] ، فماذا يكون هؤلاء ، اذا لم يكن مسلمات ، ولا نصرانيات ولا يهوديات ؟

وسكتُّ ، لأني لم أجد جواباً ، وطال السكوت ، وفكرت فيما كنا فيه ، وماصرنا اليه ، وعادذهني الى هذا الحاضر الممض ، فرأيت الصبي ، يتملص مني ، ويبتعد عني ، حتى عاد الى (ضباب) الماضي ، ولم يبق في يدي الا هذه الصورة الباهتة ، صور عهود مضت بما كان فيها من جهل بعلوم الكون ، وانقطاع عن دنيا الحضارة ، وما كان فيها من الفضائل والاخلاق والرضا والسعادة عهود الايمان والطهر والصفاء ، عهود (صباي) الذي فقدته الى الأبد ...

ياسقى الله تلك العهود !

(١) وهذه ايضاً حقيقة .

يابنتي

نشرت سنة ١٩٥٤

يابنتي ؛ أنا رجل يمشي الى الخمسين ، قد فارق الشباب وودع أحلامه وأوهامه ، ثم إني سحت في البلدان ، ولقيت الناس وخبرت الدنيا ، فاسمعي مني كلمة صحيحة صريحة من سني وتجاربي ، لم تسمعيها من غيري. لقد كتبنا وناديا ندعو الى تقويم الأخلاق ، ومحو الفساد وقهر الشهوات حتى كلت منا الأقلام ، وملت الألسنة ، وما صنعنا شيئاً ، ولا أزلنا منكراً ، بل أن المنكرات لتزداد ، والفساد ينتشر ، والسفور والحسور والتكشف تقوى شرته ، وتتسع دائرته ، ويمتد من بلد الى بلد ، حتى لم يبق بلد اسلامي (فيما أحسب) في نجوة منه ، حتى الشام التي كانت فيها الملاءة السابغه ، وفيها الغلو في حفظ الأعراض ، وستر العورات ، قد خرج نساؤها سافرات حاسرات ، كاشفات السواعد والنحور . . .

مانجحنا وما أظن أننا سننجح . أتدرين لماذا ؟

لأننا لم نهتد الى اليوم الى باب الاصلاح ، ولم نعرف طريقه . إن باب الاصلاح أمامك أنت يابنتي ، ومفتاحه بيدك ، فإذا آمنت بوجوده ، وعملت على دخوله ، صلحت الحال . صحيح أن الرجل هو الذي يخطو الخطوة الأولى في طريق الاثم ، لاتخطوها المرأة أبداً ، ولكن لولا رضاك ما أقدم ، ولولا لينك ماشتد ، أنت فتحت له وهو الذي دخل ، قلت للّص :

تفضل ... فلما سرقك اللص ، صرخت : أغيثوني ياناس سرقت... ولو عرفت أن الرجال جميعاً ذئاب وأنت النعجة ، لفررت منهم فرار النعجة من الذئب ، وأنهم جميعاً لصوص ، لاحترست منهم احتراس الشحيح من اللص .

وإذا كان الذئب لايريد من النعجة الا لحمها ، فالذي يريده منك الرجل أعز عليك من اللحم على النعجة ، وشر عليك من الموت عليها ، يريد منك أعز شيء عليك : عفافك الذي به تَشْرُفين ، وبه تفخرين ، وبه تعيشين ، وحياة البنت التي فجعها الرجل بعفافها ، أشد عليها بمئة مرة ، من الموت على النعجة التي فجعها الذئب بلحمها ... إي والله . وما رأى شاب فتاة الا جردها بخياله من ثيابها ثم تصورها بلا ثياب .

إي والله ! أحلف لك مرة ثانية ، ولا تصدقي ما يقوله لك بعض الرجال من أنهم لايرون في البنت إلا خلقها وأدبها ، وأنهم يكلمونهـــا كلام الرفيق ، ويودونها ود الصديق . كذبٌ والله ، ولو سمعت أحاديث الشباب في خلواتهم ، لسمعت مهولاً مرعبـــاً ، وما يبسم لك الشاب بسمة ، ولا يلين لك كلمة ، ولا يقدم لك خدمة ، إلا وهي عنده تمهيد لما يريـد ، أو هي على الأقل إيهام لنفسه أنها تمهيد !

وماذا بعد ؟ ماذا يا بنت ؟ فكري !

تشتركان في لذة ساعـة ، ثم ينسى هو ، وتظلين أنت أبـــداً تتجرعين غصصها ، يمضي (خفيفاً) يفتش عن مغفلة أخرى يسرق منهـا عرضها ، وينوء بك [١] أنت (ثقل) الحمل في بطنك ، والهم في نفسك ، والوصمة على جبينك ، يغفر له هذا المجتمع الظالم ، ويقول شاب ، ضل ثم تاب ، وتبقين أنت في حمأة الخزي والعار طول الحياة ، لا يغفر لك المجتمع أبداً .

---

(١) هذا هو التعبير الأفصح : قال تعالى : « ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوة »

ولو أنك إذ لقيته نصبت له صدرك ، وزويت عنه بصرك ، وأريته الحزم والاعراض ... فإذا لم يصرفه عنك هذا الصد ، وإذا بلغت به الوقاحة أن ينال منك بلسان أو يد ، نزعت حذاءك من رجلك ، ونزلت به على رأسه - لو أنك فعلت هذا لرأيت من كل من يمر في الطريق عوناً لك عليه ، ولما جرؤ بعدها فاجر على ذات سوار ، ولجاءك (إن كان صالحاً) تائباً مستغفراً ، يسأل الصلة بالحلال : جاءك يطلب الزواج .

والبنت ، مهما بلغت من المنزلة والغنى والشهرة والجاه ، لا تجد البنت أملها الأكبر وسعادتها إلا في الزواج ، في أن تكون زوجاً صالحة ، وأماً موقرة . وربة بيت . سواء في ذلك الملكات والأميرات ، وممثلات هوليود ذوات الشهرة والبريق الذي يخدع كثيرات من النساء . وأنا أعرف أديبتين كبيرتين في مصر والشام ، أديبتين حقاً ، جمع لهما المال والمجد الأدبي ، ولكنهما فقدتا الزوج فقدتا العقل وصارتا مجنونتين ، ولا تحرجيني بسؤالي عن الأسماء إنها معروفة ! .

الزواج أقصى أماني المرأة ولو صارت عضوة البرلمان ، وصاحبة السلطان . والفاسقة المشهورة لا يتزوجها أحد . حتى الذي يغوي البنت الشريفة بوعد الزواج ، ان هي غوت تركها وذهب ، إذا أراد الزواج . فتزوج غيرها من الشريفات ، لأنه لا يرضى أن تكون ربة بيته ، وأم بنته ، امرأة ساقطة ! .

والرجل وأن كان فاسقاً داعراً ، إذا لم يجد في سوق اللذات ، بنتاً ترضى أن تريق كرامتها على قدميه ، وأن تكون لعبة بين يديه ، إذا لم يجد البنت المغفلة ، التي تشاركه في الزواج على دين ابليس ، وشريعة القطط في شباط طلب من تكون زوجته على سنة الاسلام . فكساد سوق الزواج منكن يا بنات ، لو لم يكن منكن الفاسقات ما كسدت سوق الزواج ، ولاراجت

سوق الفجور ... فلماذا لا تعملن ، لماذا لا تعمل شريفات النساء على محاربة هذا البلاء؟ أنتن اولى به، واقدر عليه منا،لأنكن أعرف بلسان المرأة ، وطرق إفهامها ، ولأنه لا يذهب ضحية هـذا الفساد إلا أنتن : البنات العفيفات الشريفات ، البنات الصينات الدينات . في كل بيت من بيوت الشام بنات في سن الزواج لا يجدن زوجاً ، لأن الشباب وجـدوا من الحليلات ما يغني عن الحليلات ، ولعل مثل هذا في غير الشام ايضاً ... فألـفن جماعات منكن من الأديبات والمتعلمات ومدرسات المدرسة وطالبات الجامعة تعيد اخواتكن الضالات الى الجادة ، خوفنهن الله ، فإن كن لا يخفنه ، فحذرنهن المرض ، فإن كن لا يحذرنه ، فخاطبنهن بلسان الواقع ، قلن لهن: انكن صبايا جميلات فلذلك يقبل الشباب عليكن ، ويحومون حولكن ، ولكن هل يدوم عليكن الصبا والجمال ؟ وهل دام في الدنيا شيء حتى يدوم على الصبية صباها وعلى الجميلة جمالها ؟ فكيف بكن اذا صرتن عجائز محنيات الظهور ، مجعدات الوجوه ؟ ! من يهتم يومئذ بكن ؟ ومن يسأل عنكن ؟ أتعرفن من يهتم بالعجوز ويكرمها ويوقرها ؟ اولادها وبناتها وحفدتها وحفيداتها . هنالك تكون العجوز ملكة في رعيتها ، ومتوجة على عرشها على حين تكون الأخرى – أنتن أعرف بما تكون عليه !

فهل تساوي هـذه اللذة تلك الآلام ؟ وهل تشترى بهـذه البداية تلك النهاية ؟

وأمثال هذا الكلام لا تحتجن الى من يدلكن عليه ، ولا تعدمن وسيلة الى هداية اخواتكن المسكينات الضالات ، فإن لم تستطعن ذلك معهن ، فاعملن على وقاية السالمات من مرضهن ، والناشئات الغافلات من أن يسلكن طريقهن .

* * *

وأنا لا أطلب منكن أن تعدن بالمرأة المسلمة اليوم ، بوثبة واحدة الى مثل ما كانت عليه المرأة المسلمة حقاً ، لا ، وإني لأعلم أن الطفرة مستحيلة في العادة ، ولكن أن ترجعن إلى الخير خطوة خطوة ، كما أقبلتن على الشر خطوة خطوة ، إنكن قصرتن الثياب شعرة شعرة ، ورققـتن الحجاب ، وصبرتن الدهر الأطول ، تعملن لهذا الانتقال . والرجل الفاضل لا يشعر به ، والمجلات الداعرة تحث عليه ، والفسّاق يفرحون به ، حتى وصلنا إلى حال لا يرضى بها الاسلام ، ولا ترضى بها النصرانية ، ولم يعملهـا المجوس الذين نقرأ أخبارهم في التاريخ ، الى حال تأباها الحيوانات .

إن الديكين اذا اجتمعا على الدجاجة اقتتلا غيرة عليها وذوداً عنها ، وعلى الشواطيء في الاسكندرية وبيروت رجال مسلمون ، لا يغارون على نسائهم المسلمات أن يراهن الأجنبي ، لا أن يرى وجوههن ... ولا أكفهن ... ولا نحورهن ،بل كل شيء فيهن ! كل شيء ، الا الشيء الذي يقبح مرآه ، ويجمل ستره ، وهو حلقتا العورتين ، وحلمتا الثديين ... وفي النوادي والسهرات (التقدمية) الراقية ، رجال مسلمون يقدمون نساءهم المسلمات للاجنبي ليراقصهن ، يضمهن حتى يلامس الصدر الصدر ، والبطن البطن ، والفم الخد ، والذراع ملتوية على الجسد ، ولا ينكر ذلك أحد ، وفي الجامعات المسلمة شباب مسلمون يجالسون بنات ، مسلمات متكشفات باديات العورات ، ولا ينكر ذلك الآباء المسلمون ولا الأمهات المسلمات ، وأمثال هذا .

وأمثال هذا كثير ، لا يدفع في يوم واحد ، ولا بوثبة عاجـلة ، بل بأن نعود الى الحق ، ، من الطريق الذي وصلنـا منه الى الباطل ، ولو وجدناه الآن طويلاً ــ وإن من لا يسلك الطريق الطويل الذي لا يجد غيره لا يصل أبداً . وأن نبدأ بمحاربة الاختلاط ، والاختلاط غير السفور ، وأنا

لا أمنع من كشف الوجـه ، إن كان لا يتحقق بكشفه الضرر على الفتاة والعدوان على عفافها ، وأراه عند أمن الفتنة خيراً من هذا الذي نسميه في بلاد الشام حجابا ، وماهو إلا ستر المعايب ، وتجسيم للجمال ، واغراء للناظر .

السفور إن اقتصر على الوجه كما خلق الله الوجه ـ نقبل به، وإن كنا نرى الستر أحسن وأولى . أما الاختلاط فشيء آخر ، وليس يلزم من السفور أن تختلط الفتاة بغير محارمها، وأن تستقبل الزوجة السافرة صديق زوجها في بيتها، أو أن تحيّيه ان قابلته في الترام ، أو لقيته في الشارع ، وأن تصافح البنت رفيقها في الجامعة ، أو أن تصل الحديث بينها وبينه ،أو أن تمشي معه في الطريق، وتستعد معه للامتحان ، وتنسى أن الله جعلها أنثى وجعله ذكراً ، وركب في كل الميل الى الآخر ، فلاتستطيع هي ولاهو ولا أهل الأرض جميعاً ، أن يغيروا خلقة الله ، وأن (يساووا) بين الجنسين ، أو أن يمحوا من نفوسهم هذا الميل ، وإن دعاة المساواة والاختلاط باسم المدنية قوم كذابون من جهتين : كذابون لانهم ما أرادوا من هذا كله الا امتاع جوارحهم ، وارضاء ميولهم ، وإعطاء نفوسهم حظها من لذة النظر ، وما يأمـلون به من لذائذ أخر ؛ ولكنهم لم يجدوا الجرأة على التصريح به ، فلبّسوه بهذا الذي يهرفون به ، بهـذه الألفاظ الطنانة ، التي ليس وراءها شيء : التقدمية ، والتمدن ، والحياة الجامعية ، وهذا الكلام الفارغ (على دويّه) من المعنى فكأنه الطبل

وكذابون لأن أوربة التي يأتمون بها ، ويهتدون بهديها ، ولا يعرفون الحق إلا بدمغتها عليه ، فليس الحق عندهم الذي يقابل الباطل ، ولكن الحق ما جاء من هناك : من باريس ولندن وبرلين ونيويورك ، ولو كان الرقص والخلاعـة ، والاختلاط في الجامعـة ، والتكشف في الملعب ، والعري على

الساحل [1] ، والباطل ماجاء من هنا : من الأزهر والأموي وهاتيك المدارس الشرقية ، والمساجد الاسلامية ، ولو كان الشرف والهدى والعفاف والطهارة ، طهارة القلب وطهارة الجسد . ان في اوربا وفي اميركا كما قرأنا وحدثنا من ذهب اليها ، أموراً كثيرة لاترضى بهذا الاختلاط ولا تسيغه ، وإن في باريس (في باريس بالذات) آباء وأمهات لا يسمحون لبناتهم الكبيرات أن يسرن مع شاب ، أو يصحبنه الى السينما ، بل هم لا يدخلونهن الا الى روايات عرفوها ، وأيقنوا بسلامتها من الفحش والفجور ، اللذين لايخلو منهما مع الأسف واحد من هذه (التهريجات) والصبيانيات السخيفة التي تسميها شركات مصر الهزيلة الرقيعة الجاهلة بالفن السينمائي مثل جهلها بالدين ، تسميها أفلاماً !

يقولون : إن الاختلاط يكسر شرة الشهوة ، ويهذب الخلق ، وينزع من النفس هذا الجنون الجنسي . وأنا أحيل في الجواب على من جرب الاختلاط في المدارس ، روسيا التي لا تعود الى دين ، ولا تسمع رأي شيخ ولا قسيس ، ألم ترجع عن هذه التجربة لما رأت فسادها ؟

وأميركا ، ألم تقرؤوا أن من جملة مشاكل اميركا ، مشكلة ازدياد نسبة (الحبالى) من الطالبات ؟ فمن يسره أن يكون في جامعات مصر والشام ، وسائر بلاد الاسلام مثل هذه المشكلة ؟

وأنا لا أخاطب الشباب ، ولا أطمع في أن يسمعوا لي ، وأنا أعلم أنهم قد يردون علي ويسفهون رأيي ، لأني أحرمهم من لذائذ ماصدقوا أنهم قد وصلوا اليها حقاً ، ولكن أخاطبكن أنتن ، أنتن يابناتي المؤمنات الدينات ، يابناتي الشريفات العفيفات ، انه لايكون الضحية الا أنتن ، فلا تقدمن نفوسكن ضحايا على مذبح إبليس ، لاتسمعن كلام هؤلاء الذين يزينون لكن حياة الاختلاط باسم

(١) ومن هنالك ايضاً جاءت دولة اسرائيل ؟

الحرية والمدنية والتقدمية والروح الجامعية، فإن أكثر هؤلاء الملاعين لازوجة له ولا ولد، ولا يهمّه منكن جميعاً الا اللذة العارضة، أما أنا فإني أبو أربع[1] بنات، فأنا حين أدافع عنكن أدافع عن بناتي، وأنا أريد لكنّ من الخير ما أريده لهن.

إنه لا شيء مما يعرف به هؤلاء يرد على البنت عرضها الذاهب، ولا يرجع لها شرفها المثلوم، ولا يعيد لها كرامتها الضائعة، واذا سقطت البنت لم تجد واحداً يأخذ بيدها، او يرفعها من سقطتها، انما تجدهم جميعاً يتزاحمون على جمالها، مابقي فيها جمال، فإذا ولى ولوا عنها كما تولي الكلاب عن الجيفة التي لم يبق فيها مزعة لحم!

* * *

هذه نصيحتي اليك يا بنتي، وهذا هو الحق فلا تسمعي غيره، واعلمي أن بيدك أنت، لابأيدينا معشر الرجال - بيدك مفتاح باب الاصلاح، فإذا شئت اصلحت نفسك واصلحت بصلاحك الأمة كلها. والسلام عليك ورحمة الله[2].

---

(١) صرن الآن خمساً. (٢) كتب لهذه المقالة من القبول ما لم يكتب لغيرها، فنشرت في دمشق في رسالة وحدها، ونشرت في رسالة في بغداد وفي القاهرة وفي الاسكندرية، وترجمت الى الاوردية، ونشرت في (الدون) اكبر جرائد باكستان، والى الانكليزية، ونشرت في (التايمس الهندية) والى الايرانية، ونشرت في (جريدة برس).

يا ابني

نشرت سنة ١٩٥٥

[إلى السيد «م. أ» من «الاسماعيلية» بمصر الذي كتب إلي واستحلفني أن اقرأ كتابه، وأن أرد عليه].

لماذا تكتب الي على تردد واستحياء؟ أتحسب أنك أنت وحدك الذي يحس هذه الوقدة في اعصابه من ضَرَم الشهوة، وأنك أنت وحدك الذي اختُصصت بها دون الناس اجمعين؟

لا، يا ابني، هوّن عليك، فلس الذي تشكو داءَك وحدك، ولكنه (داء الشباب)، وقد كتبت فيه قديماً وحديثاً، ولولا أني لا أحب الحديث المعاد، ولا أقتني (مع الأسف) إلا الأقل من مقالاتي القديمة لنقلتها اليك، أو لأحلتك عليها. ولئن أرّقك هذا الذي تجد وأنت في السابعة عشرة، فلطالما أرّق كثيرين غيرك، صغاراً وكباراً، ولطالما نفى عن عيونهم لذيذ الكرى ولطالما صرف عن درسه التلميذَ. وعن عمله العامل. وعن تجارته التاجر. وما الحب الذي افتنّ في وصفه الشعراء، وفي تحليله الأدباء، الا ماتجـــده أنت سواء بسواء، ولكنك أخذته مجرداً مكشوفاً، فعرفه الناس فلم يخدعوا عنه واخذوه فلفوه بمثل ورق (الشكلاطة) ليخدعوا عن حقيقته الناس. وشربت بفيك من الينبوع، وشربوا بالكأس المذهبـــة الحواشي. والمـاء في كأس

أبي نواس التي أقام في قرارتها كسرى، كالماء في الساقية، والشهوة في رسائلك إلي كالشهوة في غزل الشعراء، وشعر الغزليين، ولوحات المصورين، وألحان المغنين، ولكن الضمير هاهنا بارز ظاهر، والضمير هنالك مستتر خفي، وشر الداء ماخفي واستتر!

إنه ما اشرف على مثل سنك أحد إلا توقد في نفسه شيء كان خامداً، فأحس حره في اعصابه، وتبدلت في عينه الدنيا غير الدنيا، والناس غير الناس فلم يعد يرى المرأة على حقيقتها انساناً من لحم ودم، له ما للانسان من المزايا وفيه وما فيه من العيوب، ولكن أملا فيه تجتمع الآمال كلها، وأمنية فيها تلتقي الأماني، ويلبسها من خيال غريزته ثوباً يخفي عيوبها ويستر نقائصها، ويبرزها تمثالاً للخير المحض والجمال الكامل، ويعمل منها مايعمل الوثني من الحجر: ينحته بيده صنماً، ثم يعبده بطوعه رباً! ان الصنم للوثني رب من حجر، والمرأة للعاشق وثن من خيال!

كل هذا طبيعي[1] معقول، ولكن الذي لايكون ابداً طبيعياً ولا معقولاً، أن يحس الفتى بهذا كله في سن خمس عشرة، أو ست عشرة سنة، ثم يضطره اسلوب التعليم الى البقاء في المدرسة الى سن العشرين او خمس وعشرين.

فماذا يصنع في هذه السنوات، وهي أشد سني العمر اضطرام شهوة، واضطراب جسد، وهياجاً وغلياناً؟

ماذا يصنع؟

هذه هي المشكلة!

أما سنة الله، وطبيعة النفس، فتقول له: تزوج.

وأما اوضاع المجتمع وأساليب التعليم فتقول له: إختر احدى ثلاث كلها

---

(١) طبيعي هي الدائرة على اقلام البلغاء من القدم، وإن كان القياس طبعي.

شر ، ولكن إياك أن تفكر في الرابعة التي هي وحدها الخير ، وهي الزواج...

إما أن تنطوي على نفسك ، على اوهام غريزتك واحلام شهوتك ، تدأب على التفكير فيها ، وتغذيها بالروايات الداعرة ، و (الافلام) الفاجرة ، والصور العاهرة ، حتى تملأ وحدها نفسك ، وتستأثر بسمعك وبصرك ، فلاترى حيثما نظرت إلا صور الغيد الفواتن ، تراهن في كتاب الجغرافيا إن فتحته ، وفي طلعة البدر إن لمحته ، وفي حمرة الشفق ، وفي سواد الليل ، وفي احلام اليقظة وفي رؤى المنام .

أريد لأنسى ذكرها فكأنما تمثل لي ليلي بكل سبيل

ثم لا تنتهي بك الحال الا الى الهوس أو الجنون أو انهيار الأعصاب .

وإما أن تعمد الى مايسمونه اليوم (الاستمناء) وقد كان يسمى قديماً غير هذا ، وقد تكلم في حكمه الفقهاء ، وقال فيه الشعراء ، وكان له في كتب الآداب باب لا أحب أن أدل عليه أو أرشد اليه ، وهو وإن كان أقل الثلاثة شراً ، واخفها ضراً[1] ؛ ولكنه إن جاوز حده ركب النفس بالهم ، والجسم بالسقم ، وجعل صاحبه الشاب كهلاً محطماً ، كئيباً ، مستوحشاً ، يفر من الناس ، ويجبن عن لقائهم ، ويخاف الحياة ويهرب من تبعاتها ، وهذا حكم على المرء بالموت وهو في رباط الحياة .

وإما أن تغرف من حمأة اللذة المحرمة ، وتسلك سبل الضلال ، وتؤم بيوت الفحش ، تبذل صحتك وشبابك ومستقبلك ودينك في لذة عارضة ومتعة عابرة ، فاذا أنت قد خسرت الشهادة التي تسعى اليها ، و (الوظيفة) التي تحرص عليها ، والعلم الذي أملت فيه ، ولم يبق لك من قوتك وفتوتك ما تضرب به في لج العمل الحر .

---

(١) لست ادعو اليه ولكن اقرر حقيقة قررها كثير من كبار الاطباء ووافقوا فيها رأي الفقهاء من الحنفية في الجملة .

ولا تحسب بعدُ أنك تشبع، كلا ، إنك كلما واصلت واحــدة زادك الوصال نهماً كشارب الماء الملح[1] لا يزداد شرباً الا ازداد عطشاً ، ولو أنك عرفت آلافاً منهن ثم رأيت اخرى متمنعة عليك ، معرضة عنك ، لرغبت فيها وحدها ، وأحسست من الألم لفقدها مثل الذي يحسه من لم يعرف امرأة قط وهاك (فاروق) مثلًا !

وَهَبْكَ وجدت منهن كل ما طلبت ، ووسعك السلطان والمال ،فهل يسعك الجسد ؟ وهل تقوى الصحة على حمل مطالب الشهوة ؟ دون ذلك وتنهار اقوى الأجساد . وكم من رجال كانوا أعاجيب في القوة وكانوا ابطالاً في الرَّبع والصرع والرمي والسَّبق ، ما هي الا أن استجابوا الى شهواتهم ، وانقادوا الى غرائزهم ، حتى امسوا حطاماً . . .

إن من عجائب حكمة الله ، أنه جعل مع الفضيلة ثوابها ؛ الصحة والنشاط وجعل مع الرذيلة عقابها ، الانحطاط والمرض ، ولربَّ رجل ما جاوز الثلاثين يبدو مما جار على نفسه كأبن ستين ، وابن ستين يبدو من العفاف كشاب في الثلاثين ، ومن أمثال الافرنج التي سمعناها وهي حق وصدق : من حفظ شبابه حفظ له شيخوخته .

ولو ترك الرجل لغريزته ، ولم تكن هذه المغريات من الصور والروايات والافلام ، وتكشّف النساء وشيوع الفاحشة ، لما هاجت به الغريزة الا مرة أو مرتين في الشهر والشهرين ، لأن من القواعد الثابتة في العلم أنه كلما ارتقى الحيوان (والانسان هنا حيوان) في سلّم التطور ، قلَّ عنده السفاد وطال الحمل ، فالديك والدجاجة يتسافدان كل يوم لأن مدة الحمل (بالبيضة) يوم واحد أما القط (وهو من ذوات الأثداء) فيسافد القطة مرة أو مرتين في السنة لأن

---

(١) الماء الملح : أي المالح .

حملها مرة في السنة أو مرتان ؟ وأظن أن الانسان أرقى من القط ، فلماذا يكون للقط موسم واحد ، هو عندنا شباط (فبراير) وتكون شهور السنة كلها شباط عند بعض الناس ؟ لهذه المغريات !

فالبلاء كامن من هذه المغريات ، من دعاة الشر ورسل ابليس ، الذين يزينون للمرأة التكشف والتبرج والاختلاط باسم المدنية والتقدمية والنهضة النسائية ، وما يُعنون بالمرأة الا كعناية الجزار بالنعجة : يطعمها ويدفع عنها ويحميها ويسمنها ، ولكن للذبح ... والذين دأبوا على نشر صور العاريات في مجلاتهم من الممثلات الاجنبيات أولاً ، ثم من بنات المدارس بدعوى الرياضة ، ونساء السواحل بحجة الاصطياف ، وعملوا على ذلك الدهر الطويل ، على خطة مرسومة ، وسبيل معينة ، صابرين محتسبين لوجه ابليس ، ولولاهم ولولا مجلاتهم ولولا تلك الروايات من قبل وهاتيك الافلام من بعد ، ولولا الذين تخرجوا بمدرسة الضلال ثم وَلُوا هم (مع الاسف) أمر أبنائنا وبناتنا في مدارسنا ما رأينا ولا توهمنا أننا سنرى يوماً ، بنات المسلمين يكشفن عن سيقانهن وأفخاذهن ، للعبة بكرة السلة ، أو لعرض في حفلة الرياضة ، أو لاصطياف على الساحل ، ولو بعث قاسم أمين ومن شايعه على دعوته ، من رؤوس الفتنة ، ورأوا إلام انتهت اليه المرأة بدعوتهم (التي أرادوا بها غير هذا) لأخذتهم الصعقة !

واؤكد لك أن (ذلك الأمر) في حقيقته أتفه وأهون مما تظن ، وأن الحديث عنه اعظم منه ، ووصفه اكبر أثراً في النفس من فعله ، ولولا هذا الفن : فن الشعر والقصة والتصوير والغناء ، لولا هذا الذي يجمّل المرأة ، ويحسّن الحب ، لما رأيت لتلك (الصلة الجسمية) في نفسك ولا نفس غيرك من الشباب عشر معشار ما تحسه اليوم ، إنها عملية كالعمليات الطبية كلها ، ولكنها قذرة حقاً ، لذلك وضع الله لها هذا (البنج) الذي يعمي ويصمّ ، فلا

يرى المرء القبح فيها ، وهذا البنج هو الشهوة ، ولو فكر المرء فيها هادئاً . لو فكر فيها بعقل رأسه لا بعقل أعصابه لما رآها الا كما اقول .

وهذه المغريات كلها لا تعمل عملها ، ولا تؤتي المرء من ثمرها ، مالم يوجد رفيق السوء ، الذي يدلك على طريق الفاحشة ، ويوصلك الى بابها ، إنها كالسيارة الكاملة العدة ، وهذا الرفيق كالزناد (المارش) ،وليس تمشي السيارة مهما كانت قوتها إلا بالزناد .

* * *

وكأني اسمعك تقول : هذا هو الداء ، فما الدواء ؟

الدواء أن نعود الى سنة الله ، وطبائع الاشياء التي طبعها عليها ، إن الله ما حرم شيئاً إلا أحل شيئاً مكانه ، حرم المراباة وأحل التجارة ، وحرم الزنا وأحل الزواج ، فالدواء هو الزواج .

الزواج وحده طريق الاصلاح ، وأنا اقترح على الجمعيات الاسلامية والنوادي الاصلاحية أن تؤسس قسما جديداً يرغّب الشبان في الزواج ، ويدعوهم اليه ، ويسهله عليهم ، ويدل الخاطب على الفتاة التي تصلح له ويصلح لها ويقرضه المال إن كان معسراً ، ولهذا الاقتراح تفصيلات وذيول ، من استجاب له وأراد العمل به ، شرحت له تفصيلاته .

فاذا لم يتيسر لك الزواج ، ولم ترد الفاحشة ، فليس الا التسامي ، وأنا لا أريد أن اعقد هذا الفصل الذي كتبته ليكون مفهوماً واضحاً ، بمصطلحات علم النفس ، لذلك أعمد الى مثال امثله لك ، أترى الى إبريق الشاي الذي يغلي على النار . إنك ان سددته فأحكمت سدّه ، وأوقدت عليه فجرّه البخار المحبوس ، وإن خرقته سال ماؤه فاحترق الابريق ، وإن وصلت به ذراعاً

كبيراً كذراع القاطرة ، أدار لك المصنع وسيّر القطار ، وعمل الاعاجيب . فالأولى حالة من يحبس نفسه عن شهوته ، يفكر فيها ويعكف عليها ، والثانية حال من يتبع سبل الضلال ، ويؤم مواطن اللذة المحرمة ، والثالثة حالة المتسامي .

فالتسامي هو أن تنفس عن نفسك بجهد روحي أو عقلي أو قلبي أو جسدي ، يستنفذ هذه القدرة المدخرة ، ويخرج هذه الطاقة المحبوسة ، بالالتجاء الى الله ، والاستغراق في العبادة ، أو بالانقطاع الى العمل والانغماس في البحث أو بالتفرغ للفن والتعبير عن هذه الصور التي تصورها لك غريزتك بالألفاظ شعراً أو بالألوان لوحة ، أو بالألحان نغماً ، أو بالجهد الجسدي والاقبال على الرياضة ، والعناية بالتربية البدنية أو بالبطولة الرياضية ، والانسان يا ابني محب لنفسه لايقدم أحداً عليها ، فاذا وقف أمام المرآة ، ورأى استدارة كتفيه ومتانة صدره ، وقوة يديه ، كان هذا الجسم الرياضي المتناسق القوي ، أحب اليه من كل ّ جسد أنثى ، ولم يرض أن يضحي به ، ويذهب قوته ويعصر عضلاته ويعود به جلداً على عظم ، من أجل سواد عيني فتاة ، ولا من أجل زرقتها . . .

هذا هو الدواء : الزواج ، وهو العلاج الكامل ، فان لم يكن فالتسامي وهو مسكّن موقت ، ولكنه مسكن قوي ، ينفع ولا يؤذي .

أما ما يقوله المغفلون ، أو المفسدون ، من أن دواء هذا الفساد الاجتماعي هو تعويد الجنسين على الاختلاط حتى تنكسر بالاعتياد حدة الشهوة ، وفتح (المحلات العمومية) حتى يُقضى بها على البغاء السري ، فكلام فارغ ، وقد جرّبت الاختلاط أمم الكفر كلها فما زادها الا شهوة وفساداً ، أما المحلات العمومية فاننا اذا أقررناها وجب أن نوسعها حتى تكفي الشبان جميعاً ، واذن فينبغي أن يكون في القاهرة اكثر من عشرة آلاف بغيّ ، لأن في القاهرة (من أصل المليونين ونصف المليون من سكانها) مئتا الف شاب على الأقل . . .

واذا نحن جوّزنا للشباب ارتيادها فاستغنوا بذلك عن الزواج ، فماذا نصنع بالبنات ؟ هل نفتح لهن محلات عمومية فيها (بغايا) من الذكور ؟!

* * *

كلام فارغ يا ابني والله، وما تقوله عقولهم ولكن غرائزهم ،وما يريدون إصلاح الاخلاق ولا تقدم المرأة ، ولا نشر المدنية ، ولا الروح الرياضية ، ولا الحياة الجامعية ، إنما هي ألفاظ يتلمظون بها ، ويتبدعون كل يوم جديداً منها يولون به على الناس ، ويروّجون به لدعوتهم ، وما يريدون إلا أن نخرج لهم بناتنا وأخواتنا ، ليستمتعوا برؤية الظاهر والمخفي من أجسادهن ، وينالوا الحلال والحرام من المتعة بهن ، ويصاحبوهن منفردات في الاسفار ويراقصوهن متجملات في الحفلات ، وينخدع مع ذلك بعض الآباء ، فيضحوا بأعراض بناتهن ليقال إنهم من المتمدنين ...

وبعد يا ابني فلا تتردد في الكتابة إليّ ان لم يرضك هذا الجواب ، ولا تستحْيِ مما تجد من حرّ هذه الشهوة التي ركبها الله في النفس، إنها علامة القوة والأيدْ والشباب ، وعليك بالزواج ، ولو أنك طالب لا تزال . فان لم تستطعه فاعتصم بخوف الله ، والانغماس في العبادة والدرس ، والاشتغال بالفن وعليك بالرياضة فانها نعم العلاج .

والحديث طويل ، وهذا ما اتسع له مجال المقال ، ومن استزادني زدته رسالة إن شاء ، أو مقالة إن شاء الناشرون .

رمضان

نشرت سنة ١٩٥٧

هذا الحديث عن رمضان ، وفي رمضان النور والعطر ، وفي رمضان الخير والطهر ، وفي رمضان الذكريات الكثر ، ففيه نزل الذكر ، وفيه ليلة القدر ، وكان فيه نصر بدر ، وفي آخره عيد الفطر .

ورمضان نور على المآذن ، ونور في القلوب .

ورمضان صوم عن الطعام ، وصوم عن الحرام .

إن كانت الحياة تنازعاً على الحياة ، فهذا الشهر ادراك لسرّ الحياة

وإن كان العمر كله للجسم ، فهذا الشهر للروح .

وإن كانت الدنيا التناحر والخصام ، فهذا الشهر للحب والوئام .

* * *

هذا هو رمضان الذي أبصرت وجهه من كوة الطفولة فأحببته ، ورأيت أثره الخيّر في كل مكان في دمشق فأكبرته ، ثم لم أعد أراه أبداً ، فعلمت أني قد افتقدته وأضعته .

إن رمضان الذي عرفته لم يعد يتردد على دمشق . إن هذا رمضان جديد ، يحمل اسم رمضان الأول ، الذي رأيته أول مرة من أكثر من اربعين سنة ، ولكنه ليس ذلك الـ (رمضان) .

رمضان القديم كان يغمر أرجاء دمشق كلها ، فكنت تحس به حيثما سرت . تراه في المساجد الممتلئة بالمصلين والقارئين، والمتحلقين حول كراسي المدرسين ، وتراه في الأسواق ، فلا تجد عورة بادية ، ولا منكراً ظاهراً ، ولا مطعماً مفتوحاً ، ولا مدخناً ولا شارباً ، وتشتري البضاعة وأنت آمن من الغش والغبن لأن أفسق البائعين لايغش في رمضان ، والمرأة تعمل مطمئنة الى أنها مهما أخطأت فلن تسمع من زوجها كلمة ملام لأن المسلم الصائم لا يشتم ولا يلوم في رمضان ، والرجل يجيء الى بيته وهو آمن أن يجد من زوجه نكداً أو اساءة لأن المرأة المسلمة الصائمة لاتؤذي زوجها في رمضان ، ولو تركت بابك مفتوحاً لما دخل المنزل لص لأن اللصوص يضربون عن العمل ويتوبون عن السرقة في رمضان .

أما رمضان الجديد ، فلا تعرفه هذه الشوارع الجديدة والأحياء الحديثة ،ولم يعرف بعدُ الطريق اليها، ودمشق القديمة لم يعد يستطيع أن يسيطر عليها ، فالمساجد مملوءة بالنائمين والمتحدثين والمدرسين الجاهلين . والأسواق مفتحة المطاعم مملوءة بالمفطرين ، والصائمون تسوء أخلاقهم في رمضان من الجوع وشهوة الدخان ، والشياطين تصفد في رمضان ولكن الفساق ينطلقون عاملين فيه كما كانوا يعملون قبل رمضان .

ولقد كان أشد الناس بعداً عن الدين إذا سمع مدافع رمضان تاب وأناب الى الله ، ونزع نفسه الآثمة واستبدل بها نفساً زكية متعبدة ، كما ينزع ثوبه الوسخ ويستبدل به ثوباًنظيفاً، والبيوت التي كان يسودها الخصام تتحول فيرمضان الى دورأمن وسلام ، والمدينة تصير كلها اسرة واحدة ، او مدرسة داخلية يأكل الناس فيها في وقت واحد ، وينامون في وقت واحد ، ويقومون في وقت واحد ، إذا دنت ساعة الغروب رأيت الناس جميعاً مسرعين الى بيوتهم ، هذا

يحمل صحن الفول المدمس [1] ، وهذا يحمل الجرادق [2] والبرازق ، وتكون المائدة منصوبة حتى أن أفقر الناس يجد في رمضان فطوراً شهياً ، لأن كل صائم في رمضان يتفقد جيرانه ومن حوله ، فلا يأكل هو الطعام الطيب ، والألوان الكثيرة ، وجاره لا يجد إلا الخبز والجبن ، وتصطف الأسرة كلها حول المائدة ، يجمعها شعور واحد ، شعور واحد يجمع الغني والفقير ، والأمير والأجير ، هو الجوع ، أغنى الناس يشتهي قبل المغرب ملعقة من حساء او رشفة من شراب .
والأولاد يقفون على الشرفات ، او على جوانب الطرق ، فإذا رأوا مصباح المنارة ، او سمعوا المدفع ، صاحوا بنغمة موزونة ولحن موقع : أذ ن . أذ ن . أذ ن . وطاروا الى بيوتهم كما تطير العصافير الى اعشاشها ، إذا رأت طلائع الليل وتخلو الطرق ، وتهدأ الأصوات ، ثم ترتفع من كل مكان ، من الكوخ ومن القصر على السواء ، كلمة : الحمد لله ، كلهم شبع وكلهم رضى وكلهم شكر ، الذي أكل السبعة الألوان ، والذي أكل الخبز والمسبّحة والفول .

ثم يمضي الرجال الى المساجد ، ليصلوا التراويح ، او يصلوها مع اهليهم واولادهم ، وتكون الأسواق مضاءة ، والأولاد مزدحمين فيها ، على بياع المثلجات إن كان الوقت صيفاً ، او بياع الفول النابت ، ومن اراد لهواً لم يجد إلا الحكواتي يقص قصة عنتر وكلها بطولة ونبل ، لا كهذه القصص الآثمة الداعرة التي تغضب الكلاب لو وصفت مجتمعاتها بمثل ما وصف به المجتمع الأميركي في قصة «طريق التبغ» التي طبعت من سنين قليلة عشرين مرة ، وبيع منها ملايين ، او الكراكوزاتي ...

فإذا مضت ساعة بعد صلاة العشاء ، انطفأت الأضواء ، وخلت الأسواق ، وانصرف الناس الى دورهم ، ليناموا . والمسحّر لا يجيء إلا في وقت السحور ، لا يجيء نصف الليل ، ليوقظك من نومك ، ويقرع بطبلته

---

(١) من الدمّاس والديماس الفرن . (٢) الجرادق كلمة فصيحة

رأسك ، كما يفعل الآن ، وأنت مجبر أن تقول له : اشكرك ، وتدفع له اجرته على أنه كسر دماغك وحطم اعصابك ، ولم تكن هذه الاذاعات التي لا تسكت لحظة في رمضان ، ولا كانت في البيوت هذه الأجهزة الشنيعة ، مصيبة المصائب ، الرادّ (١) التي تستطيع كل امرأة جاهلة ، وكل ولد لعّاب أن يزعج بها مئة بيت ، ولا يكلفه ذلك الا ان يمد اصبعه وهو نائم فيديرزرها انملة (سانتي متر) فيدخل الداء العصبي على كل من سكن هذه البيوت ، ويهرب رمضان المسكين بتأمله وخشوعه وطهره . إن رمضان لا يستطيع أن يعيش إلا في الهدوء والسكون ، فكيف يعيش في هذه الضجة الهائلة ، وكيف يتفرغ الصائم لعبادته وكيف يتوجه الى ربه ؟ وكيف ينام ليقوم الى السحور ، اذا كان كل صاحب رادّ ، لا يسمع وحده بل يسمع اربعين جاراً ، وكانت الأصوات لا تنقطع طول الليل ، والمسحر يجيء من الساعة الواحدة ، وهؤلاء الموسيقيون الفاشلون الذين عجزوا عن أن يكونوا رجال فنّ ، فأسبغوا على غنائهم ثوب الدين ، والدين يبرأ منهم ، وتغزلوا بالرسول ﷺ بدلاً من التغزل بليلى وسلمى ، والباعون يأتون من طلوع الشمس ، مصلح البوابير ، وبياع الحليب ، (واللي عنده سجاد للبيع) ، الأولاد الذين يتخذون الحارات والجادات ملاعب للكرة .

وكيف يشعر بوجود رمضان من يركب الترام فيرى امامه من يدخن وينفخ في وجهه الدخان ، ويرى المطاعم مفتحة والأكلة يأكلون ، ويرى الناس ان صاموا عن الشراب وعن الطعام ، لا يصوم الا القليل منهم عن الكذب والغش والغيبة والبذاءة والحلف بغير الله ، او الحلف كاذباً بالله ، ولا يصوم الا القليل عن الغضب والبطش والاذى . وليس الصيام في الحقيقة إلا تدريباً خلقياً ، ليس الصوم جوعا وعطشاً فقط ، خلق الله ملائكة ، وخلق شياطين ، وخلق وحوشاً وسباعاً . فالملك خير كله ، والشيطان شر كله ، والسبع طبيعته

---

(١) الراد : الراديو لأنه يرد الصوت المنتشر في الفضاء

البطش ، لولاه ماعاش ، وخلق الانسان من الثلاثة جميعاً ، ففي الانسان ملك وشيطان وسبع ، المَلك له الايمان والرحمة والطاعة والخشوع والسمو النفسي والشيطان له الشهوة المحرّمة والكذب والاحتيال والافساد ، والسبع له الغضب والبطش والقهر . والصيام في الحقيقة صيام عن السبعية والشيطانية لتخلص النفس في هذا الشهر للملكية ، فإذا لم تظهر على الصائم اخلاق الملائكة ، وإذا بقي يغضب ويبطش كالسبع ، ويشتهي ويفسد كالشيطان ، فإنه لم يعرف حقيقة الصيام .

لقد كان رمضان الذي يجيء دمشق من أربعين سنة رمضان حقيقياً ، وما أدري أمات وجاء غيره ، أم قد شاخ وعجز عن أن يطوف دمشق كلها او أن يثب فيدخل في نفوس اهلها ، فصار يثبت وجوده في المفكرة والتقويم وفي اضواء المآذن ومدافع القلعة فقط ، فقط لا غير ؟ أم أنا الذي تغير وتبدل ؟ كنت انظر قبل اربعين سنة بعين صبيّ لم يقارف إثماً ، فكنت أرى رمضان ، فلما أثقلت الآثام اجفاني لم أعد أراه ؟

وكان اهل دمشق في مثل طهارة الأطفال ، لم تشوّه اصابع الحضارة طبيعة الحسن في نفوسهم ، ولم تفسد الشبه والعصبيات جمال الأخوة بين افرادهم ، ولم تكن قد هتكت استار الصيانة ، ولا مزقت براقع الحياء ، كانت المرأة لزوجها وولدها وربها ، والرجل لزوجته وولده وربه ، فكانوا يرون رمضان كلهم . يرون هلاله في الأفق ، ونوره في القلوب ، وأثره في البيوت والأسواق والمدارس والمساجد ، ويشعرون حقاً أن قافلة العمر كانت تمشي بهم في صحراء مجدبة ، فإذا كان رمضان ، مشت في الواحة التي تعبق بريّا الأزاهير ، وترقص على انغام الشحارير ، فيكون من ذلك انس للنفس وراحة للروح .

فأين ذلك الرمضان ؟ أين هو ؟ دلوني عليه ! دلوني عليه أجدْ فيه ماضيّ

الذي فقدته ، وأنسى الذي اضعته . رمضان الذي يتوب فيـه كل عاص ، ويتصل فيه كل منقطع ، ويشهد فيه كل محجوب ، وتسطع فيه الأنوار في كل قلب ، حتى لتمتلىء بالرضا والاطمئنان والحب ، ويقوم النـاس في الأسحار ساعة يتجلى الله على الوجود تجلى الرحمة والغفران ، وينادي المنادي من السماء: ألا من سائل فأعطيه ، ألا من مستغفر فأغفر له . فيهتفون من أعماق قلوبهم : يا أرحم الراحمـين ، ويسألون الله ويستغفرونه ، فيحسون ان قد صعدوا بارواحهم الى حيث يرون الأرض كلها ومن عليها ذرّة تجول في هذا الفضاء . الدنيا كلها باطماعها واحقادها ومغرياتها ، ويتذوقون أعظم اللذاذات ، اللذة التي لا تقاربهـا لذة ، لذة الاتصال بالله ، ومناجاتـه في سكنات الليل ، وهدآت الأسحار ، فتسطع انوار الايمان في كل قلب ، ويمتلىء بالرضـا والاطمئنان والحب ، والقلب كالنسر الذي يضرب بجناحيه في طباق السماء ولكنا قيدناه بقيود المادة ، ثم اغرقناه في حمأة المطامع والشهوات . فكيف يطير نسر مقيد الجناح غارق في الطين ؟

هذا هو رمضان ... فحلوا القيود فيه عن قلوبكم ، واغسلوها من اوضار الحمأة التي غمستوها فيها ، ودعوها ترتفع لتطلع على جمـال الوجود ، وترى من هذا المرقب العالي جمال رمضان .

طبقات الأصدقاء

نشرت سنة ١٩٥٨

خذ قلماً وورقاً وحاول أن تكتب أسماء اصدقائك جميعاً ، ثم صنفهم اصنافاً ، تجد اولاً أن منهم من ليسوا اصدقــاء على التحقيق ، ولكنهم اصحاب ورفقاء .

فمنهم رفيق ، تلقاه كل يوم أمامك ، في السيارة او الــترام ، يحييك فتحييه ، ويسألك فتجيبه ، ويرجوك إغلاق النافذة ، فإن فعلت شكر ، أو يدوس على رجلك فإن أحس اعتذر ، والكلمة تجر الابتسام ، والابتسام يجر الكلام ، وتمر الأيام فإذا أنتما تتبادلان تحية الصديقين ، وتتحدثان حديث الصفيين ، وأنت لا تعرف اسمه ولا تدري ما هو .

ومنهم رفيق العمل ، تكون موظفاً فترى مكتبه حيال مكتبك ، ووجهه تلقاء وجهك ، او تكون عاملاً فترى آلته الى جنب آلتك ، اويكون زميلك في المتجر او جارك في السوق ، تكون معه أكثر مما تكون مع اهلك وولدك ، وتلقاه اكثر مما تلقى اصدقاءك واهل ودك ، وقد تشاركه الجد والهزل ، والرضا والغضب ، وما شكلك من شكله ، ولا عقلك من عقله ، ولا أنت من واديه . ورفيق السفر ، بمن تجمــع جسديكما عربة القطار ، وروحيكما الرغبة في دفع الملل ، فيكون منك سلام ومنه كلام ، وملاحظة لما ترى ، وجواب لما تسمع ، وما هي إلا ساعات ، حتى تتشاركا في الطعام ، وتتجاورا في المنام ، وتتساقط بينكما الأستار ، فيرى منك ، وترى منه ،

مالا يراه المرء إلا من ساكن بيته ، وذي قرابته ، وماأنت منه ولا هو منك في ود ولا اخاء .

ورفيق القهوة ، ورفيق السينما ، ورفيق الملعب ، وضروب من الرفقاء غير من ذكرت ، ربما استمرت صلة المرء ببعضهم حتى سماهم اصدقاءه ، وماهم بالأصدقاء ، ولا اختارهم بنلكه ، ولا صاحبهم باختياره ، ولكن الحياة ألقتهم في طريقه ، وحملتهم على عاتقه ، وإذا هو لم يُمحِّصهم ولم (يجَرِدهم) مثل (جرد) التاجر بضاعته ، ثم يصنّفهم اصنافاً ، فيبقى على الجيد ، ويطرح الرديء ، لم يدر الى أي هاوية تسوقه هذه الصداقات ، لأن الصاحب ساحب ، وكل قرين بالمقارن يقتدى ، وربَّ رجل سايرته في طريق ، او رافقته في سفر ، او عرفته في ديوان ، فبذلت له من ظواهر الود ، ما يبذله الرجل المهذب لمن يلقاه ، وأنت لا تدري وجهته في الحياة ، فنسب اليك ، وعرف بك ، واتصل بك شره ، او اصابك ضره ، او لحق بك عاره ، وإذا هو قد ترك فيك أثراً منه من حيث لا تشعر ، وكل كلمة تنصب في اذنك إنما هي بذرة كالبذرة التي تلقى في الأرض المخصبة ، قد تكون بذرة خير فتنبت في نفسك خيراً ، وقد تكون بذرة شر فتنبت في نفسك شراً ، وربَّ ناس كانوا صالحين فأفسدتهم صحبة شرير بدل حالهم ، وأشقى حياتهم ، وناس كانوا أشراراً فصلحوا بصحبة الصالحين ، ومن كان مستريحاً من وخز الغريزة يشتغل عنها بعلم او فن او رياضة قلب او جسد ، فأوقد عليه نارها ، وأذاقه أوارها ، صاحب لايدري من أين سقط عليه ، وآخر يمشي في طريق النار فمشى به صديق في طريق الجنة ، وليس الصديق الذي يذكرك الله ، كمن ينسيك ذكره ، ولا الذي يسوقك الى المسجد للعبادة ، كمن يقودك الى الماخور للفجور ،

ولا من يحدثك عن كتاب طالعه لتطالعه أنت ، كمن يصف حسن راقصة رآها لتسعى أنت الى مرآها .

فإذا أردت الخلة التي تجمع خلال الخير، والعمل الذي يصلح الأعمال خلال كلها، فاكتب اسماء اصدقائك واصحابك ، ومن تتصل به بروابط الود ، وانظر الى كل واحد منهم . هل هو صالح في نفسه أم هو غير صالح ، وهل هو مخلص لصديقه أم هو لا يبالي إلا نفع نفسه ولذتها ، وهل هو مؤنس لجليسه أم هو فظ مزعج غليظ ؟

فإذا فعلت رأيت الرفاق على انواع ، ووجدت فيهم من هو صائم مصلٍّ له سمت المتقين ، وزيّ الصالحين ، ولكنه يتخذ ذلك سلماً للدنيا وشبكة للمال ، ووجدت حقيقته تكذب ظواهر تقاه ، فإن عاهدته خانك ، وإن عاملته غشّك .

ووجدت فيهم من صادق المعاملة أمين اليد ، ولكنه لا يصوم ولا يصلي ، وليس له من الدين إلا اسمه ، فهو يفسد عليك دينك .

ووجدت فيهم من صالح متعبد ، أمين صادق المعاملة ، ولكنه عارم الشهوة ، جامح الغريزة ، لا حديث له إلا عنها ، ولا خوض إلا فيها ، قد كفّ عن الحرام جوارحه ، وأطلق فيه لسانه، فهو يؤذيك باثارة الخامد من رغبتك، وايقاظ الهاجع من غريزتك .

ومن هو صالح في نفسه ، أمين في معاملته، عفّ اللسان ، طاهر الذيل، ولكنه لا ينفع صديقاً ، ولا يسعد صاحباً ، ولو كان على الفرات وأنت تتحرق من الظمأ ما ناولك كأس ماء .

ومن يخدم صديقه ويسره ، ولكنه لا يبالي في خدمته ومسرته أن يعطيه من دينه ، فيخون من أجله أمانته ، ومن عرضه فينيله من باب الحرام

لذته ، ومن شرفه فيعينه على أكل حقوق الناس ، وسرقة أموالهم ، يرى كل ذلك في سبيل الصداقة جائزاً مباحاً ، فيأخذ بيدك حتى يدخلك معه جهنم .

ومن هو ديّن في نفسه ، معين لصديقه ، واقف عند حدود الله ، لا يقارف إثماً ، ولا يباشر محرماً ، ولكنه يجهل طرائق المعاشرة ، وآداب المؤاكلة ، وكل ما تواضع عليه المهذبون من الناس ، يأتي بما تغثي منه نفسك ، وتهيج أعصابك .

ومن هو أحمق رقيع ، أو فحاش طياش ، ومن يصادقك لحسبك أو منصبك ، فهو يتخذك زينة ليومه ، وعدة لغده ، فأنت عنده حلية تزين العنق ، أو صورة تجمّل الجدار .

والخلاصة أن الأصحاب خمسة : فصاحب كالهواء لا يستغنى عنه . وصديق كالغذاء لا عيش إلا به ، ولكن ربما ساء طعمه ، واصعب هضمه او . وصاحب كالدواء مرّ كريه ، ولكن لا بدّ منه أحياناً . وصاحب كالصهباء تلذ شاربها ، ولكنها تودي بصحته وشرفه . وصاحب كالبلاء .

أما الذي هو كالهواء . فهو الذي يفيدك في دينك ، وينفعك في دنياك ، وتلذ عشرته ، وتمتعك صحبته . وأما الذي هو كالغذاء ، فهو الذي يفيدك في الدنيا والدين ، لكنه يزعجك احياناً بغلاظته وثقل دمه وجفاء طبعه . وأما الذي هو كالدواء ، فهو الذي تضطرك الحاجة اليه ، وينالك النفع منه ، ولا يرضيك دينه ولا تسلّيك عشرته . وأما الذي هو كالصهباء ، فهو الذي يبلغك لذّتك ، وينيلك رغبتك ، ولكن يفسد خلقك ، ويهلك آخرتك . وأما الذي هو كالبلاء ، فهو الذي لا ينفعك في دنيا ولا دين ، ولا يمتعك بعشرة ولا حديث ، ولكن لا بدّ لك من صحبته .

وعليك أن تجعل الدين مقياساً ، ورضا الله ميزاناً ، فمن كان يفيدك في

دينك فاستمسك به ، إلا أن يكون ممن لا تقدر على عشرته ، ومن كان يضرّك في دينك فاطّرحه ، واهجره ، إلا أن تكون مضطراً الى صحبته ، فتكون هذه الصحبة ضرورة والضرورات تبيح المحظورات ، بشرط ألا تجاوز في هذه الصحبة حدّ الضرورة .

وأما الذي لا يضرّك في دينك ، ولا ينفعك في دنياك ، ولكنه ظريف ممتع ، اقتصرت منه على الاستمتاع بظرفه ، على ألا تمنعك هذه الصحبة من واجب ، ولا تمشي بك الى عبث او إثم .

وما كان وراء ذلك فهو الذي قيل فيه مثله :

اذا كنت لا علم لديك تفيدنا ولا أنت ذي دين فنرجوك للدين
ولا أنت ممن يرتجى لمهمة عملنا مثالاً مثل شخصك من طين

أنا والإذاعة

اذيعت سنة ١٩٤٢

أيها السادة :

إني اشكو إليكم القائمين على هذه المحطة ، فقد ظلموني وظلموكم معي .

جاؤوا بي لأحدثكم ، فحسبت أني سأدخل نادياً فيه ناس اراهم ، فأخاطبهم على قدر عقولهم ، فإن كانوا علماء كلمتهم كلام العلماء ، وإن كانوا من العامة خاطبتهم خطاب العامة ، فإذا هم يصعدون بي درجاً بعد درج حتى اذا كلّت رجلاي من الصعود ، وهممتُ بالرجوع ، قالوا : قد وصلنا ، فنظرت فإذا نحن في أعلى طبقة من (عمارة البرق والبريد) ، فتلفتُ انظر أين النادي الذي سأخطب فيه ؟ فما عهدت نادياً يبنى على رأس مئذنة ! وأين الناس ؟

وإذا هم يدخلوني من دهليز الى دهليز ، حتى انتهيت الى زاوية مظلمة ، فأشاروا الى باب ، وقالوا : (هُسْ) إياك أن تتكلم ، أو تعطس ، أو تسعل أو تخبط برجلك ، أو تدق بيدك ، أو تُخشخِش[1] بأوراقك ..!

فقلت : فكيف إذن أتحدث ؟ أتريدون أن يكون حديثي إيماء وإشارة من غير كلام على لغة الخرسان ؟

---

(١) من العامي الفصيح .

قالوا : لا ، ولكن إذا جاء دورك تكلمت .

وفتح الباب ، ودخلنا غرفة صغيرة كأنها الصندوق المغلق ، لا شباك ولا باب ولا نافذة ولا كوّة ولا شقّ لدخول الهواء ، ورأيت فيها مكتباً ماعليه الا علبة قائمة على عمود من الحديد ووراءها مرآة ، وقد وقف أمامها شاب يصوّت اصواتاً بعضها يخرج من حلقه وبعضها من صدره وبعضها من بطنه ، ويتخلّع ويتلوّى مع النغمات ، وقد يأتي بكلمات يلقيها إلقاء بلا نغم ، ووراءه رفاق له يضربون بأعوادهم ويزّمرون ، فأجهدت ذهني خمس دقائق كاملات لأعرف ماذا يصنع هذا الرجل : أيغني أم يخطب ، أم هو مصروع معتوه يخلّط ، أم يتكلم بلسان أهل مالطة ، فلم أهتد الى حقيقته ، ثم سكت وتقدم من العلبة أحد موظفي المحطة فقال : لقد انتهت الحفلة الموسيقية ...

فقلت : إذن هي حفلة موسيقية ؟!

سبحان القادر على كل شيء !

وأقبل الموظف عليّ ، فأشار بيده الى حيث كان يقف الشاب صاحب الاصوات المختنقة ، فقلت : ماذا ؟ أأعمل أنا ايضاً حفلة موسيقية ؟

قالوا : هسْ ! هسْ !

وأدار مفتاحاً كمفتاح الكهرباء ، وجعل يكلمني بلسانه بعد أن كان يتكلم بيديه ، وقال : تفضل يا أستاذ ، اقعد وتكلم !

قلت : أتكلم مع من ؟ أين الناس ؟ أين المستمعون ؟!

قال : تكلم هنا ... وأشار الى العلبة .

قلت في نفسي : أعوذ بالله من شر هذه الغرفة ! لقد حسبتها سجناً مغلقاً فإذا هي مارستان ! أأكلم علبة ؟ أمجنون أنا ؟ ونظرت في المرآة فوجدت صورتي متغيرة ... أهذا أنا ؟ وأمعنت النظر ، فإذا الذي حسبته مرآةً لوحٌ

من زجاج بيننا وبين الغرفة الاخرى ، فنحن نرى من فيها ، ولكن لا نسمع اصواتهم ، فاجتمعت عليّ هذه الليلة المتناقضات : هنا اشخاص أراهم ولا اسمع اصواتهم ، وهنالك صندوق تخرج منه اصوات اسمعها ولا أرى اهلها ، وبحثت عن مهرب فلم اجد ، وفتشت عن نصير فلم ألقه ، وما حولي الا شباب جدد وموسيقيون معهم اعوادهم ، وأنا الشيخ ... الوحيد ... في هذه العصبة ،

فاستسلمت للمقادير ، وقعدت ، والعرق يسيل على عنقي ووجهي ، وشرعت أكلم العلبة كالمجانين ، خوفاً من أن يحل بي هذه الليلة ما هو اعظم !

نعم . لقد ظلمت ، أيها السادة ، وظلمتم معي ، لأن اكثركم يؤثر (عتابا) بلدية ، أو (قرّادية) نقدية ، أو اغنية شاكية باكية ، ميتة مميتة ، لا شرقية ولا غربية من أغاني عبد الوهاب . على كل ما في الدنيا من محاضرات ، ولكنكم تستطيعون أن تديروا مفتاح الرادّ ، فتتخلصوا مني ومن محاضرتي ، وتبعثوا الى ّبما يوحيه اليكم نبلكم وكرمكم من الشتائم واللعنات التي لا اسمع منها شيئاً ولكن المصيبة عليّ أنا ، لقد حُبست في مارستان ، لا اخرج منه حتى أكلم علبة من حديد ربع ساعة لا تنقص ثانية ولا تزيد !

فلنستعن بالله ، ولنتحدث ...

* * *

ولكن خبروني اولاً : هل تسمعون كلامي حقيقة ؟!

أما أنا فلا اصدق انكم تسمعونني ، وكيف يسمع من هو في المهاجرين وحمص وحلب والقاهرة وطهران ما لا يسمعه هذا الأخ الجالس أمامي وراء الزجاج ، والذي يبدو عليه أنه لا يدري ماذا اقول ، فلا يبتسم ، ولا يعبس ولا يفتح عينيه ، ولا يرفع حاجبيه ، ولا يصنع شيئاً يدل على أنه سامع ،

وهذا من نعم الله عليّ ، فلو سمعني أتكلم عنه لما نجوت منه بسلام !

فإذا كنتم تسمعون (باسادة) كلامي ، فأشيروا الىّ ، او صفقوا ، او قربوا افواهكم من (الراد) وصيحوا - إني انتظرت فلم اسمع صيحتكم ، فلم يبق الا أن اصنع كما صنع زميلنا المحترم (جحا) ، حين أذّن ونزل من المنارة يعدو ، قالوا : الى أين يا جحا ؟ قال : اريد أن الحق صوتي فأنظر الى أين وصل ؟

ولنفرض انكم سامعون ، فعمّ احدثكم ؟ ومن لي بالحـــديث الذي يرضيكم جميعاً : العالم منكم وغير العالم ، والرجل والمرأة ، والكبير والصغير ، وأي معلم يستطيع أن يلقى دوساً واحداً يفهمه تلميذ المدرسة الأولية وطالب الجامعة ، ومن بينهما ، ويرضون عنه ، ويعجبون به .

لقد فكرت طويلا ، وحشدت قوى نفسي كلهـا ، وما تعلمت من علم وما حفظت من مسائل ، لآتيكم بحديث يدهشكم حتى تقولوا : ماشاء الله كان ! ماهذه المحاضرة ؟ شيء عظيم جداً ، ولكني لم استقر على موضوع .

قلت : الدنيا الآن في رمضان ، وخير الأحاديث حديث الدين ، وما اسهل الكلام في الدين في هذه الايام . وما أيسر أن يجعل المرء نفسه مجتهداً ، وأن يرى الرأي المخالف لأبي حنيفة ومالك والشافعي واحمد بن حنبل والليث ابن سعد والأوزاعي ، وكل مجتهدي الأرض فيتمسك به ويخطّيء المخالفين له : من كان منهم ومن سيكون الى يوم القيامة . ولم لا ؟ إنه رجـل وهم رجال ، والحداد والنجار والموسيقي رجال ايضاً ، فلماذا لايكونون أئمة مجتهـدين ، وما دام العلم بالعربية نحوها وصرفها وبلاغتها ، والفقه أصوله وفروعه ، والتفسير والحديث ليس شرطاً في الاجتهاد ؟

وما دامت الحكومة تمنع غير الطبيب ان يكتب وصفة دواء ، وغـير

المهندس أن يرسم مصور بناء ، وتدع من شاء يتكلم في الدين والأدب بماشاء؟ وما دام كل مايحتاجه الرجل في هذه الايام ليكون واعظاً مرشداً يقتدى به ويستمع لقوله ، وتقبل يده ويُتمسح بذيله ، أن يعرّض لحيته ،ويكوّر عمته ويوسع جبته ، ويطوّل سُبحته ، ويتكلم كلاماً تقبله العامة ، ولو خرّف وخلّط وضلّل ، وأكل الدنيا بالدين ، واستغل غفلة الغافلين ، لا يسأله سائل عما يفعل أو يقول !

لا ... لن أتكلم في الدين ، فالكلام فيه شديد الخطر ، فأنا اخشى أن اقول الحق فأغضب الناس ، أو اقول الباطل فأسخط الله . ثم إني طلبت الليلة مَرْضاة السامعين ، واكثر السامعين لجهلهم بالدين ، واطول ما رأوا من ادعياء العلم فيه ، منصرفون عنه زاهدون في حديثه ، حتى الأتقياء الصالحون منهم الذين يتمسكون في رمضان بدينهم ، فيقضون نصف النهار في (الأموي) نائمين يشخرون وينخرون [1] أو متحلقين حِلقاً يمزحون في الجامع ويضحكون ويكذبون ويغتابون !

فلنتكلم في الأدب ، فالأدب اسلم عاقبةً ، واوسع حريةً ، وهو هيّن عليّ وعلى غيري ، وقد صار الأدب الآن كوصل ليلى : كلٌ يدّعيه ، وكل من يستطيع أن يكتب كلاماً في ورقة ، ويجد صفافاً يصفُّ له حروفه ،وصاحب جريدة ينشره ، فهو كاتب بليغ ، وكل من يأتي بلفظ موزون أو شبه موزون فهو شاعر مُفلق ، وكل من يحفظ خبراً عن أبي تمام والمتنبي ، أو هوغو ولا مارتين ، أو شكسبير وملتون ، فهو أديب أريب ، وكل من عاب كاتباً كبيراً بحق أو بباطل فهو ناقد محقق ، ومن عجز عن أن يفكر كما

---

(١) من العامي الفصيح .

يفكر ابناء آدم عليه السلام ، ويتكلم كما يتكلمون ، ففكر تفكيراً غير آدمي وتكلم كلاماً ليس بإنساني ، فهو شاعر رمزي ، وإن في الرمزية متسعاً لجميع الأغبياء والأدعياء . وإذا شكا القراء انهم لايفهمون هذا الأدب الرمزي ، فالقراء جاهلون رجعيون جامدون !

لا - ياسادة - إن الأدب امتهن وابتذل ، فلن اتكلم في الأدب !

أفأتكلم في السياسة ؟إن السياسة في بلدنا أن ينتقد الرجل قوانين الحكومة ويتكلم في رجالها ، ويتهم كل امين يكرهه بالسرقة ، ويصف كل سارق يحبه بالأمانة ، ويكون له رأي في الملك عبد الله ، وابن السعود ، واتلي ، ومولوتوف ، وترومان ، ويرسم احسن الخطط لمحاربة الغلاء ، وتنظيم ملاكات الموظفين ، وحل مشكلة فلسطين ، وإدارة المانيا المحتلة ، ويقترح وجوه الاصلاح للجامعة العربية ، وهيئة الامم المتحدة ، ولو كان تاجراً امياً ، أو سائق ترام ، أو شيخ ضيعة ، يضع بصمة إبهامه مكان التوقيع على دفاتر الانتخابات !

لا ... لن أتكلم في السياسة ، أفأتحدث اليكم في الفلسفة ؟.. لقد اشتغلت بها حيناً ، وأنا استطيع أن اتفلسف متى أردت ، ولا يكلفني ذلك الا أن اقول مالا افهمه أنا ولا القراء ، وأن انظر كل ما تواضع عليه الناس من افكار وعادات ، فأقيم لهم أدلة غامضة لاندرك ، على أنه خطأ وأن الصواب هو عكسه !

وبعد - يا أيها السادة - فاعلموا أن وقت حديثي قد انتهى ، وأني قد خدعت القائمين على المحطة ، فأطعتهم وكلمت العلبة ربع ساعة ، وقبضت الاجرة ، ولم اقل شيئاً . وكذلك يكون الرجل الناجح في هذه الايام ، يأخذ الاجرة من غير عمل ، ولنا في ساداتنا العلماء الاعلام مدرسي دائرة الفتوى قدوة غير حسنة ...

هذا ، وأنا لا أدري هل يدفعون لي اجرة ، أم انهم سيكتفون بشكري الجزيل ... فإذا اعطونا شيئاً رجناه ، والا فحسبناه أننا لم نعطهم شيئاً نندم عليه !

ولا تعجبوا ـ ياسادة ـ فكل الناس تاجر يعرض بضاعته ، ونحن معشر الادباء بضاعتنا الكلام ، وكل كلام له ثمن ، فهاتوا «كثيراً تسمعوا جيداً» ، وإلا فالبضاعة كلها من هذا النوع !

يوم مع الشيطان

نشرت سنة ١٩٥٧

أنا أخطب من قديم ، فما يتعاظمني بحمد الله موقف ، ولا أضيق بقول ، إلا موقفاً واحداً ، كلما ازددت بالخطابة تمرّساً ، ازددت له هيبة ومنه فراراً ، وأنا لا أزال أمامه اليوم ، ذلك الشاب الذي أقدم على مواجهة الناس اول مرة ، في حفلة مدرسية ، كانت قبل بضع وثلاثين سنة ، وقد كنت تلميذاً في المدرسة الثانوية . ذلك الموقف الذي أخشاه وأتهيّبه ، هو خطبة الجمعة ، وما أهابه خوفاً من الناس ، فقد فرغ مني الناس وفرغت منهم ، إذ صار لي منهم صديق وعدو ، أما الصديق فليس يضرني عنده أن أسيء مرة ، وهو يرى أني قد احسنت مئة مرة ، وأما العدو فمهما جئته به من خير واحسان أترضاه به ، فلن انال رضاه ، بل لأن هذا الموقف خاصة من دون المواقف كلها ، ليس مقام فصاحة ولَسَن وبيان ، ولكنه مقام وعظ وهداية وإرشاد ، مقام رسول الله ﷺ ، فمن قامه وجب أن يتخلق ما استطاع باخلاق الرسول ﷺ ، وأن يكون متبعاً سنن الرسول ﷺ ، حتى إذا قال : « اتقوا الله » ، لم يكذب قولَه فعلُه ، ولم يُبطل مايعرف الناس من سيرته ، أثرَ مايسمعون من موعظته ، ولأنه المقام الذي لا يقول فيه الخطيب : « سادتي » ولا يوجه كلامه توجيه تشريف واعظام لصاحب فخامة او صاحب دولة ، كما يصنع خطباء الدنيا ، بل هو ينظر بعين الشرع ، فيراهم كلهم عبيداً لله ، أكرمهم

أتقاهم ، لا أقواهم ولا أغناهم ، وهو يتكلم بلسان الشرع فيرفعه الشرع حتى يكون فوقهم جميعاً ، فيأمرهم جميعاً وينهاهم ، ويحذرهم وينذرهم ، فإن كان يأمر ولا يأتمر ، وينهي ولا ينتهي ، بطل نفعه ، وذهب خيره ، ، وأعقبه ذلك الهوان على الناس والخسار في الآخرة .

لذلك أجد عنتاً كلما كلفت خطبة الجمعة ، وأعد نفسي لها من قبل ايام ، أحاول أن اذكرها بالله ، وأن أدلها على طريق الخير وأسلكه بها ما استطعت واستطاعت ، وابتغي من المواعظ والفكر ماألين به هذا القلب القاسي .

وقد كنت قبل أيام استعد لخطبة الجمعة (التي القيتها في مسجد الجامعة السورية ، وأذيعت منه) فنمت مبكراً ، على أن اقوم من الليل لصلاة العشاء ، لعلي ادخل في ركب المتهجدين ، كما يدخل الفضولي الحقير في الوليمة الكبيرة التي لم يدع اليها الا السادة العظماء ، فأكون مرة واحدة في عمري مع الذين تتجافى جنوبهم عن المضاجع ، والذين يصفون الأقدام ، والناس نيام ، يدعون ربهم خوفاً وطمعاً ، وما أنا منهم ، ولا أدرك غبارهم ، ولكن تشبهاً بهم ، (إن التشبه بالكرام فلاح) .

وبيّتُ العزم على ذلك ، فصحوت في الساعة التي قدرتها ، كأنما ايقظني موقظ ، وذهبت أقوم ، ومددت يدي ، وكان النوم آخذاً بمعاقد أجفاني ، فأحسست برودة الجو ، ودفء الفراش ، فاسترخى جسدي ، وحُبّب الي النوم ، واجتمعت فيه رغباتي كلها ، وسمعت كأن هاتفاً يهمس في أذني ، يقول : الوقت فسيح ، والليل طويل ، والفراش دافيء والجو بارد فنم ساعة . فاستجبت له ، فجاء آخر يقول لي : قم ، نفذ ما عزمت عليه وتوكل على الله ، واذكر ثواب الصبر على الطاعة ، وعذاب الاقدام على المعصية ، ولو أن رجلا أدنى منك جمرة ، أو جاءك بمئة ليرة ، لوثبت من الفراش ، فكيف لا تبالي

بجهنم كلها وأنت تخاف الجمرة ، ولا تحفل الجنة بنعيمها وأنت ترجو منة ليرة ؟

فعاد الأول يقول : تريث لحظة ، وانقلب على جنبك الآخر .

واشتدت عليّ هذه الرغبة حتى لقد أحسستها في أعضائي كلها ، فانقلبت فإذا أنا أشعر لمعاودة المنام على ذلك الجانب بلذة لا تعدلها اللذاذات .

فرجع الثاني ، يقول : ويحك . هذا هو الشيطان يصرفك عن الصلاة فاستعذ بالله منه .

وصرت بين ، (نم) و(قم) ، تترددان عليّ كدقات الساعة ، نم . قم ، نم . قم . نم قم .

وكنت أعرف من (علم النفس) أن هذا التردد لا آخر له ، وسيظل حتى أستغرق في النوم ، أو يطلع الفجر ، فإذا أنا لم أثب عند كلمة (قم) ، لم أقم أبداً .

وقلت : أعوذ بك يارب من الشيطان ، وأسألك العون عليه ، وتوجهت بقلبي إلى الله . فلما ذكرت الله ، رأيت الشيطان قد خنس وانقطع عني وسواسه ، ولم يبق إلا : قم . قم . قم فقمت ، وتوضأت وقد سرّني اني غلبت الشيطان ، واستجبت الى طاعة ربي ، وأحببت أن أصلي صلاة خاشعة مخلصة لله ، ووقفت للنية مصفيّاً نفسي من الأكدار ، نافياً عن فكري الشواغل أريد أن أدخل على الله ، وأنا نظيف لم تعلق بذهني أوضار الدنيا ، وذهبت اقول : الله اك ... ، وإذا بالخواطر الدنيوية تنثال عليّ قبل أن أتم تكبيرة الاحرام ، فعدت أجمع ذهني ، وأركز فكري ، فإذا حاولت الاحرام ، فسدت علي نية التوجه وتفرق ما جمعت من ذهني . وتكرر ذلك ، وعجبت من نفسي فما كان لي بمثله عهد من قبل . وذكرت الله واستغفرته ،

فعرفت السبب . إنه الشيطان ، لما طردته بالذكر اول مرة ، ووثبت من الفراش، دخل نفسي العُجب، وظننت اني صرت من الصالحين ، فرأى الخبيث في هذا بابا جديدا ، يلج علي منه فجاءني متنكراً بهيئة الناصح ليفسد علي صلاتي بهذا التكلف الذي ما عرفه الصحابة ولا التابعون ، ولا أوجبه الله في كتاب ولا سنة ، واستعذت بالله منه وصليت ، فلما انتهيت قال لي : ما هذه الصلاة ! أين هذه من صلاة الخاشعين ؟ ان الصلاة إذا لم تكن على وجهها كان وجودها كعدمها فأدركت أن هذه حيلة من حيله ، طالما أضاع على كثير من المسلمين صلاتهم بها ، يقول لهم : ليست الصلاة ركوعاً وتلاوة وذكراً ، ولكن الصلاة الحقّ هي التي تنهي عن الفحشاء والمنكر ، فلا يأتي المرء معها معصية ولاذنباً ، والتي يقف فيها بين يدي مولاه لايفكر في شيء قط من أمر الدنيا، ولا يذهب اليه ذهنه ، ولا يبصر بعينيه ما حوله ، ولا يحسه ولا يدري به ، فلما استقر ذلك في نفوس طائفة من الناس ورأوا أنهم لا يقدرون عليه ، قالوا : إذا لم تكن صلاتنا صلاة ، ولم نكن نقدر على خير منها ، فما لنا نتعب انفسنا بالركوع والسجود في غير ثواب ؟ وتركوا الصلاة جملة ، فكان لا بليس ما أراد .

مع أن الله لا يكلف نفساً إلا وسعها ، وشريعة الله لا تنافي طبائع البشر التي طبع الله الناس عليها ، وليس على المصلي الا أن يخشع ما استطاع ، وأقل درجات الخشوع أن يدرك معاني ما ينطق به ، وأن يتصورها ، وكلما عرض له عارض من الأفكار الدنيوية التي لا يخلو منها ذهن مصلّ ، ذكر أنه بين يدي الله ، وأن الله اكبر منها فطردها بقوله : « الله اكبر » ، يقولها كلما قام أو قعد ، او ركع او سجد ، أما أن نكلف المصلي ألا يرى ما حوله ولا يسمع به ولا يحسه ، ونجعل ذلك شرطاً لصحة الصلاة ، فهذا ما لم

يقل به أحد ، والرسول ﷺ أطال السجود لما ركب ظهره أحد ولدي فاطمة (نسيت من منهما رضي الله عنها وعنهما) ، لأنه أحس به . وفي الحديث عنه ﷺ من رابه في صلاته شيء فليسبّح الرجال وليصفح (أي يصفق) النساء ، وجوّز قتل الحيّة والعقرب في الصلاة ، وأباح للمصلي منع الماشي امامه من أن يمر ، ومعنى ذلك أن المصلي يرى ما حوله ويحسه ، ومن قال انه لا يرى ؟ وعمر كان يفكر في تجهيز الجيش وهو في الصلاة ، على الرغم منه ، لاشتغال فكره به ، لا انه كان يتعمده ... والصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر حقيقة ، فمن لم تنهه صلاته لم يتركها ، بل يرجع الى الله بالتوبة والاستغفار ، ومن خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً ، خير ممن ترك الطاعة وأقام على المعصية !

* * *

فلما رأى الشيطان أن هذه الحيلة لم تجز علي ، عاد يوسوس لي ويقول : لقد صليت صلاة كاملة ، هذه هي الصلاة ، وأنت رجل صالح متعبد عارف بالله ، لايغلبك الشيطان أبداً ، وأنت من اهل الجنة فاحمد الله على ذلك .

قلت : لعنك الله ، هذه إحدى بلاياك ، تريد أن آمن مكر الله ، ولا يأمن مكر الله إلا القوم الفاسقون ، كما انه لا ييأس من روح الله الا القوم الكافرون ، فالمؤمن ابداً بين حالتي الخوف والرجاء إن استقر على احداهما وحدها هلك . وقعدت أقرأ القرآن ، لأن قرآن الفجر كان مشهوداً ، فجرب الخبيث معي الواناً من وساوسه كلها ، ليصرفني به عن الفهم والتدبر ، منها أن أجعل همي كله لمخارج الحروف ، واحكام التجويد ، والترقيق والتفخيم والاستطالة والاشمام ، وقال : انظر الضاد من (المغضوب) فإنها ما جاءت على وجهها ، وانظر الغين فصحح مخرجها ، والمد المتصل في (الضالين) لم يبلغ مداه ، يريد أن اشتغل بذلك عن فهم القرآن والعمل به ، مع أن ذلك مما لم

يسمع عن صحابي او تابعي أنه اشتغل بـه او اولاه همه ، بل لقد كره السلف التدقيق في ذلك [1] ، ومنها أن اسرع واتلوا تلاوة الببغاء واستكثر من القراءة لأقول ، اني ختمت في يومين او ثلاثة ، ومنها أن اتعلم القراءات المختلفة وأقرأ بها على العامة ، وذلك مما لا أراه يجوز لأنه فتنة لهم ، وافساد لعقيدتهم ، ولأنه سبب عُجب القارىء ورضاه عن نفسه ، ولأن فيه صرفاً عن حقيقة التلاوة ، التي هي التدبر والفهم ، واستنباط الحكم ، ثم إنه يجعل التلاوة صناعة من الصناعات ، يعيش بها اهلها، يقدم منهم من كان أطرى حنجرة ، وأحلى صوتاً، وأبصر بالأنغام ، وهـذا حرام [2] ، والقرآن ليس للاستكثار من الختمات بلا فهم ، ولا للاشتغال بأوجه القراءات ، والاقتصار على احكام التجويد ، ولا للتلحين به كتلحين الغناء ، واتخاذه أداة للطرب ، بل هو قانون فيه أمر ونهي ، فيجب أن يفهم ويهتدى بهديه ، ويتبع امره وينتهى بنهيه ، ويوقف عند حدوده .

وجعلت أقرأ واحاول أن افهم وافسر لنفسي ، وفهمت احكاماً جديدة مما قرأت من آيات وأخذت أدوّنها ، ثم نبهني الله فعلمت أن الشيطان ، لما رآني نجوت من أحابيله الأولى ، عاد بأحبولة جديدة يريد أن أفسر القرآن بعقلي ، وأقول فيه برأيي فأضل .

وكذلك يصنع الخبيث ، يصرف الناس أبـداً الى الافراط او الى التفريط ليجد بينها دائماً باباً يدخل منه ، ولذلك مدح الله الاعتدال والتوسط ،

---

(١) انظر الأحياء للغزالي وتلبيس ابليس لابن الجوزي، واغاثة اللهفان لابن القيم ج ١ ص ١٦٠ ،

(٢) والصحيح انه لا يجوز (عند الحنفية) اخذ الأجرة على تلاوة القرآن والفقهاء إنما جوزوا اخذ الأجرة على تعليمه ، وأخطـأ المتأخرون منهم في نقل الحكم فخلطوا بينهما ، وللعلامة ابن عابدين رسالة في هذا الموضوع انظرها في مجموعة رسائله المطبوعة .

وجعل أمة محمد أمة وسطا ، وجعل كل فضيلة وسطا بين رذيلتين ، والمسلك الحق في التلاوة وسط بين القراءة الببغاوية بلا فهم ولا تدبر ولو صححت المخارج ، وضبطت الأحكام ، وبين تفسير القرآن بالرأي من غير رجوع الى كتب اللغة ، وأسباب النزول ، والمأثور من التفسير .

* * *

وجعلت أقرأ وأرجع الى الزمخشري وابن كثير ، وما عندي من كتب التفسير ، فلما اشتغلت بالتلاوة والذكر ، شعرت بلذة روحية ، عرفت معها معنى قول الرجل الصالح (ونسيت من هو) : نحن في لذة لو ذاقها الملوك ، لقاتلونا عليها بالسيف ! وعرفت أن هذه هي اللذة الباقية على حين تنقطع اللذائذ كلها . كل ما شئت من الطيبات فإذا شبعت مرت بك ساعة لا يبقى للطعام فيها لذة تتوهمها أو ترجوها ، وائت من شئت من الجميلات فإذا انتهيت مرت بك ساعة لا تبقى للوصال فيها لذة تتصورها أو تتمناها ، وكل لذة لها حد إن هي بلغته وقفت عنده ، الا لذة الروح . ولقد قرأت قصصاً كثيرة ، تمثل الواقع وان كانت من صنع الخيال ، عن أناس نالوا من المال مايعجزون عن انفاقه ، ووصلوا الى كل مايريدون من المتع ، وكانوا مع ذلك يشكون الفراغ والملل ، ويحسون أنهم قد فقدوا شيئاً ، فهم أبداً يتطلعون الى المستقبل ، ينتظرون هذا (الشيء)الذي افتقدوه ، وما فقدوا في الحقيقة إلا نفوسهم ، (نسوا الله فأنساهم أنفسهم) ، وحرمهم لذائذ الروح ، وهي وحدها التي لا حد لها ، ولا تزال كلما طلبتها تجد مزيداً منها .

فلما أصبح الصبح ، قلت : لأجربن أن اكون مع الله يومي كله .

فعاد الشيطان ، يقول : هذا الغرور ، وهذا ما لا يكون ، انه أصعب الصعب بل هو المستحيل .

قلت : بل هو والله السهل القريب ، وماهي إلا أن اتصور كأني أرى الله ، فإن لم أكن أراه فإنــه يراني ، فإذا كان أبي أو استاذي الذي أجلّه وأحبّه قد أمرني بشيء ، ونهاني عن شيء ، ثم قعد يطل عليّ ويبصر ما أصنع ، أتراني أخالفه ، فأدع ما أمر به وآتي ما نهى عنه ؟

انه مايعصي الله احد وهو يتصور انه يراه ، ومن هنا جاء في الحديث : « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن » أيزني على عين أبيه أو أستاذه ؟ وما علي الا أن أبقى يقظاً متنبهاً فكلما عرض لي أمر ، ذكرت حكم الله فيه ، فإن كان محرماً تركته ، وإن كان مباحاً حكمت فيه عقلي .

قال : وهل تمنع خواطر السوء أن تطوف برأسك ؟ وهـل تملك نفسك عند الشهوة او الغضب ؟

قلت : أما الخواطر ، فإن الله بكرمـه ومنّه ، يثيب على الخيّر منها ولو لم يحققه صاحبه بالفعل ، ولا يؤاخذ على الشرير الا اذا حققه ، وأما الشهوة والغضب ، فعلي أن أجتنب أسبابها وأن أبقيها في عقالها لا اطلقها حتى تجمحا عليّ فأعجز عن كبح هذا الجماح منها ، والشهوة والغضب كالصخرة المستقرة على شفير الوادي ، يصعب وقفها اذا هي انحدرت كالبــلاء النازل ، ولكنّ لا يصعب عليك أن تدعها مكانها ولا تحركها ، ثم اني لا ادعي العصمة ، وإذا غلبت على امري فأتيت ذنبــاً ، استغفرت وتبت ، والتوبـة الصادقة تمحو الحوبة ، ولست أنوي من الآن أن آتي المعصية وأن أتوب بعدها ، وما أكون بذلك تائباً ، ومن يضمن لي (إن حييت) أن أقبل حينئذ على التوبة وألاّ استمرىء المعصية فأوغل فيها ، وأتبعها بغيرها ؟

* * *

وحاولت ما استطعت أن اكون على العهد ، فتبدلت حالي ذلك اليوم

حتى لقد عجب اهلي مني ، كنت اغضب لأشياء يأتونها ، واعاتب عليها فسكت ذلك اليوم عنها ، وأكلت ماقدم الي ، لم اقل لشيء جاء ادفعوه عني ، ولا لشيء غاب هاتوه لي ، ورضيت بما رأيت ، الا شيئاً محرماً فما كنت لأرضى به لو رأيته ، ولبثت على مراقبة لله ، وحذر من الشيطان ، وبقيت لي بقية من حلاوة الايمان التي ذقت في السحر ، فكشف لي ذلك طرفاً من الحقيقة التي كانت محجوبة بأغشية المادة عن نظري ، فرأيت أن المعطي المانع ، هو الله ، وأنه هو النافع الضار ، وأنه هو الذي يُضحك ويُبكي ، وان الناس ليسوا إلا قطعاً في هذه الآلة الضخمة ، تتحرك ولاتحرك نفسها ، وان من اصابه خير من قطعة فيها فشكرها واعتقد أن الخير من هذه القطعة أو مسه منها ضر فعاتبها او سبّها ، يعتقد أن الضرر منها نفسها : من المسمار او الدولاب ، لم يكن إلا مجنوناً . ولست أزعم ان هذا الشعور قد لازمني حتى صار عادة لي ، فإن ذلك من مراتب الصديقين ، ولو زعمته لكنت من أكذب الناس ، ولكنه شعور خامرني لحظات ، وذقته أول مرة في حياتي .

وكنت كسائر الناس افزع من الوحدة واحس ثقلها عليّ ، واحاول أن افر منها الى رفيق أناقله لغو الحديث ، او كتاب أقرأ فيه فارغ الكلام ، فصرت ذلك اليوم احب الوحدة ، وأطمئن اليها ، وما يكون في وحدة من يراقب الله ، ويحسّ بأنه معه يسمع ويرى ، ويتوجه اليه بالدعاء بلسانه وبقلبه يسأله ما دقّ وما جلّ ، معتقداً ان كل شيء بيده ، وأنه إن لم يعطه ما طلب أعطاه خيراً منه ، والدعاء [1] بهذا المعنى عبادة ، بل هو العبادة كما جاء في الحديث الصحيح ، وغدوت منفرداً عن الناس ، وأنا منغمس فيهم ، داخل بينهم .

---

(١) وسأفصل القول في الدعاء في كتابي (مباحث اسلامية) وهو معد للطبع

وجعلت أرصد الشيطان ، فإذا هو مرابط لي عند كل طريق يؤدي الى الجنة ، يأتيني كما خبّر الله عزّ وجلّ عن يميني وعن شمالي ، ومن أمامي ومن خلفي ، ولكنه لايستطيع أن يجيء من فوقي ، ولا يستطيع أن يسد علي طريق الاستنجاد بربي ، ورأيت الايمان كالحصن الذي يحصّنني منه ، ولكن له في جدار هذا الحصن مداخل وثغرات احتفرها ليدخل منها ، منها المداخل الكبار الظاهرة ، وسأعدد بعضها في هذا المقال ، ومنها المداخل الدقيقة الخفية ، وعلى المؤمن أن يبقى ساهراً ابداً ، يحرس حصنه ، او أن يسد بعض هذه المداخل سداً محكماً ليأمن دخوله منها ، وربما اغتنم الخبيث انشغال الانسان بمراقبة مدخل منها فدخل عليه من غيره ، كما صنع بي لما رأى اني لم اصدقه بأن صلاتي باطلة ، فعاد يدخل علي من باب العُجب فيريني أنها الصلاة المقبولة الكاملة ، وعلى مقدار سهر العبد في سد مداخل الشيطان وحراسة مالا يمكن سده منها ، يكون خلاصه من وسواسه في الدنيا ، وبناله نعيم الله في الآخرة .

والله لم يترك الانسان في هذه الحراسة أعزل ، بل وضع في يده سلاحاً ماضياً قاطعاً ، (رشاشاً) يستطيع أن يرد به اعتى الشياطين هو ذكر الله حتى يخنس الشيطان ويبلس وينكمش وينقطع وسواسه ، وليس المراد الذكر باللسان فقط ، بل التذكر بالقلب ، وهو الأصل فيه ، والمسافر الذي يذكر وطنه وأهله ، لايقول بلسانه ، ولكنه يستحضر الوطن والأهل بقلبه . وذكرك الله هو ألا تنساه ، وأن يكون دائماً في قلبك ، وأن تتصور انه مطلع عليك ، وانه معك ، فإن صحب ذلك الذكر المأثور باللسان فهو أحسن وأكمل .

* * *

وكان لي مع الشيطان ذلـــك اليوم مواقف ، تستعصي على العد ، أذكر منها هذا على سبيل المثال على وساوسه ...

حاول أن يسخطني على الله ، ويكفرني بنعمـــه علي ، حينما مرّ بي في الطريق رجل كان معنا في المدرسة ، فخاب وقصّر ، وكان مضرب المثـل في السوء ، فطرد من المدرسة ، فما هي إلا أن جال ههنا وههنا ، حتى صار له الجاه العريض ، والمال الكثير ، فجاء الشيطان يقول لي : أما ترى هـذا ؟ أتكون أنت في علمك وفضلك دونـــه مالاً وجاهاً ، ما هو ذنبك حتى تقصر بك الأقدار عنه ؟

فقلت : إخرس ياعدو الله ، تريـــد أن اكفر بنعم الله علي ، وهل في الدنيا أحد نال الخير كله حتى مايزيد عليه فيه أحد ؟ فلماذا أنظر الى هـذا ولا انظر لأناس هم مثلي (إن لم يفضلوني) علماً وخلقاً ، وهم دوني في الجاه والمال؟ ولماذا تريدني أن أنظر لمن هم فوقي في الدنيا لأحسدهم ، ولا أنظر لمن هم فوقي في الدين ؟ لماذا ازاحم على زيادة درجـة في دار الزوال ، ولا ازاحم على زيادة درجات في دار البقاء ؟

لماذا أحسد هذا إن صار ماله أكـثر من مالي ، ولا أحسد ذاك على أنه صلى أكثر من صلاتي ، ونال أكثر من ثوابي ، وكان له في (بنك) الحسنات (رصيد) اكبر من (رصيدي) ؟

ولم أحسده على ماله ولا يحسدني هو على علمي ؟ أليس العـــلم والخلق والذكاء نعماً كنعمة المال والجاه ؟ وبعد فماذا ينقصني ؟ إنه لا ينقصني والحمد لله شيء أحتاج اليه : صحتي جيدة ، ومواردي يقوم بحاجاتي ويفضل منه عنها ، وأنا في سلام في بيتي ، وفي راحة في عملي ، وفي امان في سربي ، وفي منزلة في

بلدي ، وأنا راض عن ربي ، وليس لي مطلب إلا أن يبعـــدك الله عني !

* * *

وحاول أن يثير ما اخمدته السنون من شهوتي ، حين واجهت في الترام فتاة افرنجية كأنها فلقة بدر ، وقـــد كشفت عن النحر والصدر ، والقدم والساق ، ولقد ألممت بهذا كله منها بالنظرة الخاطفة ، وذكرت حديث النظرتين وان (لك الأولى وعليك الثانية) ، فغضضت عنها وملت ببصري الى الطريق ، وبفكري الى مسائل أخر ، فرجع الشيطان بفكري اليهـا ، وجعل يعيد علي تصور مفاتنها ، ويمثلها لي على صور لا استطيع أن اعرض لها بالوصف ، وإن كان كل قارىء يدرك مثلها بالتصور ، فسرقت عيني نظرة اخرى اليهـا ، من غير عزم مني عليها ، فاستعذت بالله ، وقرأت الآية (يعلم خائنة الأعين وماتخفي الصدور) ، متعجباً من دلائل الاعجاز فيها ، وأنها ألمّت بأربـع كلمات فقط ، بحالات النفوس البشرية ودخائلها ، (خائنة الأعين) ؟! لقد خانتني عيني حقيقة ، فما أعظم أسلوب القرآن !

ولما رأيت أن المعركة مـــع الشيطان قد طالت وخفت ألا اثبت في الميدان فررت بديني ، ونزلت فوقفت انتظر (تراماً) آخر ، هذا وأنا في سن الخمسين فكيف بابن العشرين او الثلاثين ؟ !

وجاء الترام الآخر فركبته ، وأحسست أن الملعون قد ركبه معي ، فما اخذت مكاني في غرفة الدرجة الأولى ، وسلّم عليّ الجابي وسلّم علي بعض الركاب ، وأثنوا على احاديثي ومواعظي . . . حتى وسوس لي الشيطان يقول : أرأيت أن ألسنة الخلق اقلام الحق ، وأن ثناءهم عليك يكتب لك ويشهد لك بالصلاح .

فقلت : أعوذ بالله منك أن تخدعني عن نفسي ، وأن تجعلني أصدق كلامهم فيَّ .

وصعد رجل ماعليه إلا أسمال ممزقة وسخة ، لها رائحة تزكم الآناف فضممت عنه ثيابي ليمر ، فلم يسعه إلا أن جاء فقعد الى جنبي ، وأحسست بنار الغضب تشتعل في اعصابي ، ووثق الشيطان من انتصاره هذه المرة علي فرجعت وقلت : لا والله ، لا أشمت الشيطان بي ، وذكرت عهدي الله ، وتوجهت اليه مستعيناً به ، فأنزل سكينته علي ، وبدل مقاييس الرجال في عيني ، وما أكثر ما تتبدل هذه المقاييس . ففي التدريب العسكري يصنف الناس على طول الأجسام فإذا رجعوا الى وظائفهم صنفوا على المراتب والدرجات ، فإن جاءت المعركة صنفوا على الشجاعة والاقدام ، فان كان دفع الضرائب صنفوا على المال والأملاك . ورأيت كأني في يوم العرض . يوم الأمتحان الأكبر ، يوم يكون الناس قسمين لا ثالث لهما : ناجحين في الامتحان ، يمشون فرحين مستبشرين الى الجنة ، وساقطين في جهنم يشيعهم الخزي والعار ، وقلت لعل هذا بثيابه القذرة ورائحته المنتنة يكون مع الناجين ، وأكون أنا لا قدر الله مع الهالكين ، ولعل من حقه هو أن ينفر مني ، ويضم ثيابه عني ، واستغرقت في هذه الخواطر ، حتى بلغ (الترام) الغاية .

ووجدت أن من اوسع مداخل الشيطان الى قلوب الناس ، المال :

ولقد خلق الله الخلق لعبادته ، وأمرهم بأوامر يأتونها ، وحدد لهم ارزاقهم ، وكفلها لهم ، واقسم لهم على أن ذلك حق مثلما انهم ينطقون ، (هل يشك ناطق في انه ينطق ؟) ، فتركوا ما أمرهم به ، واشتغلوا بما كفله لهم ، كالتلميذ في المدرسة الداخلية يكلف بعلوم يتعلمها ، ويُعدُّ له طعام يأكله

فيترك الدرس الذي كلف به ،ويذهب الى المطبخ يبحث عن طعامه ،فيعرض نفسه للعقوبة ، وقد يحرم جزاء اهماله من الطعام ، وربما بلغ به الجهل أن يسأل الطباخ أن يزيد له في حصته ، والطباخ لايستطيع أن يزيد فيه أو ينقص منه وليس هو الذي قدره وقسمه ، أو كالموظف الذي يبتغي الوسيلة الى المحاسب الذي يوزع الرواتب [١] ليعطيه راتب الرئيس او المعاون ، يحسب أنه هو الذي يملك قسمتها وتوزيعها ، وينسى أن الملاك [٢] قد حدد لكل موظف درجته راتبه ، فلا يملك واحد منهم مهما كان قوياً ومهما زاحم واحتال أن يأخذ راتب غيره ، ولا يفوت احداً راتبه ولو كان ضعيفاً ولو كان مريضاً في بيته وكذلك الارزاق ، قسم الله لكل امرىء رزقه ، وحدد له في الحياة عمله ، وكل من يوصل اليه هذا الرزق فما كان له أتاه على ضعفه ، وما كان لغيره لم ينله بقوته . وربما حسب الرجل ان كل مايدخل يده فهو رزقه ، فيمنُّ على من اعطاه أو يضنُّ على من سأله ، مع أن فيه ماهو رزق غيره ، رزق ولده وأهله وخادمه وتابعه ، وما هو (في الحقيقة) الاموزع ، كمحاسب المصرف تحت يده آلاف الآلاف ، ولكنها ليست له ، ماله منها الا راتبه ، وليس له أن يمنَّ ولا أن يضنَّ . وكمعتمد الدائرة يقبض رواتب موظفيها من الصندوق ليوصلها اليهم .

وليس معنى ذلك انك تقعد لا تصنع شيئاً ، وتنتظر ان ينزل عليك رزقك من السماء ، فإن السماء لاتمطر ذهبا ولا فضة (كما يقول عمر) ولكن الله يرزق الناس بعضهم من بعض . وعليك بذلَ الجهد ، واستنفادَ الطاقة ، وابتغاء الاسباب المشروعة ، على أن تؤمن بأن النجح والتوفيق بيد الله وحده

---

(١) وهي في اللغة الوظائف جمع وظيفة ولكننا آثرنا اللفظ الشائع .

(٢) الملاك في الشام مايسمى في مصر (الكادر) باللفظ الاعجمي .

فلا تفرحَ بما أوتيت من الخير فرحا يؤدي بك الى البطر ، ولا تأسى على مافاتك منه أسى يسلمك الى اليأس .

والمال وسيلة الى العيش ، لايقصد لذاته ، ولكن الشيطان يدخل على الناس من باب الشحّ ، فيطلبونه لذاته ، ويجمعونه ، ويحبسونه في صناديقهم ويمنعونه من التداول ، وكلمازاد مافي ايديهم منه ، زاد مافي نفوسهم من الطلب له ، والحرص عليه ، حتى ليضنّ احدهم بالقرش على الولد الجائع الفقير ، وهو يملك الف الف ، فاذا بلغ المرء هذا المبلغ في طاعة الشيطان ، تمكن منه فجرّعه غصص الفقر وهو ينام على اكياس الذهب ، وجعله يبخل على نفسه بالاكلة الطيبة ، والضّجْعة المريحة ، والمتع المباحة ، ويعيش حياة المحرومين ، ليموت من بعد موت الموسرين ، فلا يزيد على أن جمع هذا المال لوارثه ، يستمتع به من بعده ، ولا يحمده عليه ولا يدعوله دعوة صالحة ، وهذا هو الغاية في الخذلان والعياذ بالله .

ومنها النساء :

والله ماحرم شيئاً الا أحلّ مكانه شيئاً ، حرم الربا وأحل البيع ، وحرم السرقة وأحل الشراء والاستيهاب ، وحرم لحم الخنزير وأحل اللحوم كلها ، وحرم المسكر وأحل الاشربة جميعاً ، وحرم الزنا وأحل الزواج ، وجعل مذاق النساء كلهن واحداً وان اختلفت الصور ، فجاء الشيطان فمنّانا في كل جديد لذة ، فجعلنا نسعى ابداً وراء هذا الجديد ، حتى يستنفد السعي طاقة اجسادنا ، فتركبنا العلل والرغبة كما هي ، مانقصت ولا زالت ، كالعطشان يشرب من ماء البحر فلا يزداد الا عطشا ، وحبّب الينا الحرام وزيّنه في عيوننا ، وكرّه الينا الحلال ولو كان احلى منه وسوّده في ابصارنا ، حتى ليطلب الرجل واحدة يسهر ليله ، ويفني جسمه ، ويذرف دمعه شوقاً اليها

وعنده من حلاله من لا تقاس هذه بشسع نعلها . وكلما خمدت هذه النار في اعصابنا اوقدتها نظرة الى عورة بادية ، او اصغاء الى كلمة نابية ، او صحبة شرير يدل على طريق الفساد .

ولو أنا سلكنا طريق الشرع ، فتحصنا بحصن الزواج ، وتسلحنا بغضّ النظر عن الحرام ، وسدّ الأذن عن الفحش ، وتخيُّر الصالحين من الاقران لجمعنا بين صحة الجسد ، وراحة القلب ، والنجاة في الآخرة .

ومنها : التمسك بالحاضر الموجود ، والزهد بالغائب الموعود ، يقول لك الشيطان ، هذا يومك بين يديك ، فما لك ولغد لا تدري ماذا يكون فيه وهل يبيع العاقل موجوداً بمعدوم ، ومحققاً بمتوهم ؟ وهل رجع من ذهب فخبّر بما رأى ؟

انما هي هذه الحياة ، فاحيَ فيها ، واستمتع بها ، وخذ من لذائذها فان أنت استمعت اليه ، جرّك من هذه المقدمة الى النتيجة الملازمة لها ، المقرونة بها وهي الكفر بالآخرة ، وانكار المعاد ، والخروج من الدين .

وان انت استعصيت عليه ، داورك وراوغك ، ودخل عليك من المدخل الآخر ، وهو طول الامل ، وطالما دخل منه على القلوب ، وطالما افسد به الناس وقال لك : ان العمر امامك ، فاستمتع بيومك واعزم على ان تتوب في غدك فان جاء الغد قال ، اجلها الى غد ، ثم لا يأتي هذا الغد أبداً ، لأنه كلما جاء صار حاضراً وجدّ من بعده (غدٌ) جديد .

فان كنت شابا ، قال : وما عليك ؟ انك ستتوب اذا صرت كهلا ! فان صرت كهلا ، قال : ستتوب متى شخت . وان كنت عزَبا قال : تتوب متى تزوجت ، وان كنت متزوجاً قال : تتوب متى حججت ، ولا زال بك

يؤخر عليك التوبة يوماً بعد يوم ، وشهراً بعد شهر ، حتى يفاجئك عزرائيل فيمضي بك عاصياً او فاسقاً ، والعياذ بالله .

ومنها : الاقامة على المألوف ، واتباع ماوجدنا عليه الآباء والاجداد ، وان دعانا داع الى ماهو خير منه ، واهدى سبيلا ، وارضى لله ! ومن هنا جاء الشرك أولاً ، والتمسك بالبدع والمحدثات آخراً ، وكلما قام مصلح بإماتة بدعة ثار به ادعياء العلم ، وقالوا له : أأنت خير من العلماء الذين رأوها من كذا و كذا ، وسكتوا عنها وأقرّوها ؟ هل كانوا جميعاً جاهلين وأنت وحدك العالم ؟ أم كانوا ضالين وأنت وحدك المهتدي ؟

وأيدتهم العامة التي تأنس بكل ماهو مألوف ولو كان مخالفاً للسنة ، وتنفر من كل جديد ولو كان فيه الرجوع الى ما كان عليه الرسول ﷺ وصحبه.

ومنها : ابتغاء الراحة والهرب من كل مافيه مشقة او تعب ، وفقد الصبر بمعانيه الثلاثة : الصبر على المصيبة ، والصبر على أداء الطاعة ، والصبر على مفارقة المعصية .

ومنها : الابتعاد عن قصد السبيل ، وترك اوساط الامور ، والميل الى جانبيها ، والغلو في كل شيء ، وفي الغلو الهلاك ، كالماشي على القنطرة الضيقة ، ان سار في وسطها سلم ، وان غلا في التيامن او التياسر ، بلغ حافتها فزلّت به قدمه فسقط ، وقد عقد ابن القيّم فصلا في هذا المدخل من مداخل الشيطان وضرب عليه امثالا ، بيّن فيها كيف يغلو قوم في التساهل في الطهارة حتى يحملوا الانجاس ، ويغلو آخرون في التطهر حتى يوسوِسوا ، وكيف يبخل رجل بالزكاة المفروضة ، ويبذل آخر ماله كله حتى يكون كلاًّ على الناس ، ويترك امرؤ سنة النكاح ، ويقارب آخر النساء من حل ومن حرمة ، ومن

يزري على العلماء وأهل الدين ، ومن يعظمهم تعظيم العبادة المختصة بالله عز وجل [1]

وزهد قوم بعلم الكتاب والسنة ، وزعموا بأن ذلك علم العامة ، وان الخاصة ينقّون قلوبهم ، ويشتغلون برياضتها ، فتنطبع فيها العلوم بلا تعلم ، واستدلوا (جهلا) بآية : « واتقوا الله ويعلمكم الله » . ومنهم من زاد في هذا الغلو حتى صار يصحح الاحاديث او يضعّفها من طريق الكشف ، أو يأخذ الاحكام من الرؤى والاوهام ، او يكذب على الله ، ويبلّغ عنه مالم ينزل به سلطانا .

وجاء قوم بضد هذا ، حين وقفوا على ماجاء في فضل العلم وأهله ، فطلبوه وتعمقوا فيه ، وصاروا المرجع في امور الدين والمقصد في الفتوى والمسائل ، فأوهمهم الشيطان أنهم بلغوا بذلك الغاية ، وصرفهم عن تفقد القلوب ورياضتها وتنقيتها من الاوضار ، وانقاذها من الامراض ، مع ان من الامراض القلبية مايفتك بها اشد من فتك السرطان والجذام بالاجسام ، وهي العجب والحسد والرياء وامثالها . وتهذيب القلوب واستشعار الاخلاص هو لب الدين فالصلاة بلا اخلاص قيام وقعود ، والصيام بلا اخلاص جوع وعطش ، والحج بلا اخلاص تعب ونصب ، والعالم بلا اخلاص ابليس آخر ، وابليس ما أتي من جهة الجهل ، بل أتي من جهة المرض القلبي الفتاك الذي هو الكبر .

ولست أحقّر العلم ، او أزيّن الجهل ، فالجهل هو المفتاح الذي يفتح به الشيطان كل باب الى الفساد ، والصالحون الذين ضلوا بجهلهم بأحكام الدين كثيرون ، ولَلعالم (عامل) اشد على الشيطان من سبعين عابداً (جاهلا) ، ولولا الجهل ما استطاع الشيطان أن يدفع أناساً (ممن كان قبل هذه الايام) الى الغلو في التوحيد بزعمهم ، حتى قوّلهم بمثل مقالة (وحدة الوجود) ، ودفع آخرين الى الأخذ بظواهر النصوص حتى شبهوا ، أو الى صرفها الى المجاز حتى عطلوا ، ولولا

---

(١) اغاثة اللهفان من مصايد الشيطان لابن قيم الجوزية ص ١٦ .

الجهل ماهدم قوم القرآن وخالفوا نصوصه بحجة ان له ظاهراً وباطناً ، ولولا الجهل ماتمسك قوم بالبدع وتركوا لها السنة الثابتة .

وهـذه المقالة في القرآن من اكبر مداخل الشيطان ، ذلك انه رأى القرآن محفوظاً بحفظ الله ، لايأتيه الباطل من امامه ولامن ورائه ، ولايبدل حرف واحد منه ، وعلم أنه لايستطيع ان يجيئه من جهة تنزيله فجاءه من جهة تأويله ، فألقى الى نفر من الناس ان للقرآن ظاهراً وباطناً فظاهره هذه الالفاظ وما تدل عليه من المعاني في لسان العرب ، وما تنصرف اليـه من المجازات بعرف اهله ، وباطنه مايتوهم هؤلاء انه هو المقصود ولو لم تدل عليه لغـة ، ولم يقره عرف ، واحتجوا لذلك بأثر حوّلوه عن المراد منه ، فصار الدين الواحد دينين : شريعة وحقيقة ، وليت شعري ما الشريعة ان لم تكن هي الحقيقة ، وما الحقيقة في الدين ان لم تأت بها الشريعة ؟

ومن أوسع مداخله على الشباب خاصة الحرية والانطلاق ، وحل كل قيد ، مع ان الدين والفضيلة والعقل ، كلها قيود[1] ، ولا تكون الحرية الكاملة الا للمجانين والدواب ، فالدابة تمشي عارية الجسم بادية السوأة ، تفعل ماتريد وتأتي ماتشتهي ، ولكن لها وقتاً للشهوة ، شهراً في السنة ، والانسان لوانطلق مع هواه و غريزته ، وهتكت الاستار دون شهوته ، ونضيت الثياب ، لكان عمره كله كذلك الشهر ، ولما بقي عرض مصون ، ولا مال مضمون ، ولا حياة اجتماعية ، ولأكل القوي مال الضعيف ، وعدا على عرضه وماله وأهله ، ثم يجيء من هو اقوى منه فيعتدي هو ايضاً عليه ، كما اعتدى هو على غيره .

ومن هنا تبدو صعوبة عمل الداعي الى الله ، في جماعات الشباب ، ان

---

(١) العقل والحكمة مشتقان من العقال والحكمة وهما القيد .

المعلم الفاسق يدعو طلابه الى كل مافيه لذة النظر ، او لذة التطلع ، او اللذة الاخرى ، فيغريهم بذلك ، فيم يغريهم المعلم الديّن وهو يدعوهم الى تركها كلها ؟ لاتنظر الى المرأة الجميلة لأن ذلك حرام ، ولا تدخل اماكن الرقص لأن ذلك حرام ، ولا تشاهد الفلم العاري ، ولا تقرأ القصة الداعرة لأن ذلك حرام ، يدعوهم الى حرمان انفسهم من لذة حاضرة ابتغاء لذة مغيّبة ، وفي ذلك اكبر المشقة وأشد الجهد ، ولذلك اعظم الله ثواب الشاب الناشيء في طاعة الله الذي يرى طريق اللذة المحرمة مفتوحاً أمامه ، ويمنع نفسه منه ابتغاء مرضاة الله ، وجعله في ظل العرش يوم لاظل الا ظله ، ليستريح ويتلذذ حين يتألم الناس ، كما تألم في الدنيا وهم مستريحون متلذذون .

ومنها انه يكبّر اولياءه في عيون الناس ، قال تعالى : « انما ذلكم الشيطان يخوّف اولياءه [1] فلا تخافوهم وخافون ان كنتم مؤمنون » ، ومن وقرهنا في صدورنا، لما ضعف ايماننا ، تعظيم الغربيين ، وصرنا نرى الحسن ان جاء من عندهم ازداد حسناً ، والقبيح ان كان من عندنا ازداد قبحاً ، وكل مايرونه خيراً فهو الخير ، حتى الموسيقى التي هي لسان الطبع ، وحديث القلب ان كانت من هناك فهي الموسيقى (العالمية) الخالدة ، ولو كان الذي نسمعه منها هو (على الحقيقة) اصوات متنافرة ، ورقاعة بادية ، حتى الفن الذي هو مظهر الجمال ، وتعبير الشعور ان كان من هناك فهو الفن العالمي الخالد ، ولو كان خربشات وتخليطات ، ولو كان فيه لوحات من هذا الفن الجديد ... اذا أنت لم تقرأ تحت اللوحة انها صورة فتاة حسبتها كومة من علب الكبريت ، حتى الفجور الذي يأباه كل عقل ، وينفر منه كل طبع ، ان كان من هناك فهو

---

(١) معناها : يخوفكم بأوليائه ، قال قتادة : يعظمهم في صدوركم .

التطبيق العملي للفلسفة الوجودية ، حتى السم الناقع الذي اسمه الخمر ، ان كان من هناك ، فهو ماء الحياة !

ومنها انه عطل الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ، حين قال للعلماء ان في عزكم عز الدين ، وفي هوانكم هوان الاسلام وشماتة المخالفين ، فهل يليق بكم ان ينكر احدكم منكراً ، او يصدع بحق عند أمير ظالم ، فيسحبه الشرط على رؤوس الاشهاد ، فتتدحرج عمامته ، وتتخرق جبته ،ويتعرض للمكروه؟ وصدقه قوم من العلماء ، ونسوا ان الرسول صلوات الله عليه ضُرب وأوذي وكسرت اسنانه ورمي بالحجارة وألقي عليه كرش البعير ، وان الصحابة حملوا من الاذى مالا تحمله الجبال ، فما كانت هذه المهانة الا عزاً لهم ومجداً ، ورفعة منزلة عند الله وعند الناس ، وان رسول الله هو قدوتنا وأمامنا ،وانه لما قعد علماؤنا عن الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وجاملوا الملوك ،وسعوا الى ابواب الامراء ، وبشوا في وجوه الفساق ، ولاينوا المجاهرين بالمعاصي ، سلبهم الله الهيبة التي كانت لهم في صدور الحكام ، وفي قلوب الرعية ،واحوجهم الى السلاطين ، وسلطهم عليهم .

ومنها : انه حوّل الدين من جواهر الى مظاهر ، ومن حقائق الى اشكال فصار القرآن كلاماً يتغنى به ، ولا يعنى الا بمخارج الفاظه وطول مدوده [1] ، وصار الدعاء كلاماً فصيحاً مسجعاً محفوظاً معاداً ، وصارت الصلاة قياماً وقعوداً وركوعاً وسجوداً ، وصار الحج سفراً وعودة ، اعمال جوارح والقلب غائب ،وألفاظ لسان والفكر ساهٍ لاهٍ ، وعبادات غدت كالاجساد بلا ارواح ، ودين اقتصر على المساجد دون البيوت والاسواق ، فلنتنبه يا أيها الناس الى وساوس الشيطان ، ولنستعذ بالله منه ، ولنذكر دائماً ان الله معنا

(١) انظر آخر الجزء الثالث من الاحياء للغزالي .

يسمعنا ويرانا ، ولنعرف حكم الشرع في كل مانأتي وما ندع ، ولنعلم جميعاً ان العمر ماض ، والدنيا الى فناء ، وأنه ماخلد في الدنيا أحد حتى نخلد فيها ، ولا فر من ملك الله احد حتى نفرّ من ملك الله ، وان في الوجود رباً ، وان بعد الحياة موتاً ، وان بعد الموت نشوراً وحساباً عسيراً ، ثم تكون العاقبة جنة او ناراً ، فما أهون الألم في الدنيا يُعقب لذة باقية ، وما أمرّ اللذة العارضة يكون من ورائها الألم الدائم . نسأل الله السلامــة ، وألاّ يجعلنا من الذين يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم ، وان يهدينا ويهدي بنا ، ونعوذ بالله من الشيطان الرجيم [1] .

(١) راجع آخر الجزء الثالث من احيـاء علوم الدين للغزالي ، وتلبيس ابليس لابن الجوزي ، واغاثة اللهفان من مصايد الشيطان لابن القيم .

نداء إلى أدباء مصر

نشرت سنة ١٩٤٣

أتممت البارحة قراءة كتاب (جبران) لمؤلفه (نعيمة) فأعجبني أسلوبه على ما فيه من مخالفة لقانون اللغة وقواعد العربية ، لما حمل من الصور البيانية ، والمجازات المستحدثة ، والتشابيه التي لا نظير لها ، والاستعارات التي لم تتحدث عنها كتب البلاغة ، لأن علماءها لم يقرؤوا مثلهـــا ، ولأنه أسلوب مستمد من قلب حيّ وخيال قويّ ، على حين أن من الأساليب ما يستمد من كتب اللغة ؛ وتمنيت لو أن مثله يجيء صحيحاً بنفَس عربي ، فيكون نادرة الأساليب ، ومفخرة الأدب . وهيهات !...

أما موضوع الكتاب فلم يعجبني ، لأني وجدت حياة هـــذا الرجل كما يصفها صديقه المؤلف ، سلسلة آثام : من كفر الى فسوق ، ومن اعتماد على امرأة تشتغل وتغذوه وهو كسلان يتمدد على فراشه ، الى خيانة لهذه المرأة ونقض لعهدها ، ومن إكبـــار لنيتشه المجنون ، الى الجنون به ، الى سرقة آثاره وانتحالها ؛ ووجدته في حياته كلها أشبه بالمرأة المدللة الكسول ، همّه شهوته ، إنّ بالحقيقة وإنّ بالمجاز ، يعبر عنها بهذه الصور العارية ، وهذه القصص الفاسقة التي ردّ على واحدة منها إمام الكتاب المنفلوطي رحمه الله في نظراته ، وهي القصة التي يدعو فيها النساء الى ترك أزواجهن ، واللحوق بعشاقهن ، لأن رباط الحب الشهواني أقوى عنده من رباط الزواج الشرعي . . ووجدته تتوالى عليه

المواعظ فلا يتعظ ، وتتعاقب النــــذر فلا يتوب ، يموت أبوه وأخته وأمه ، ويصاب بالمرض العضال ينخر جسمه الذي ربي بالحرام نخر السوس ، وتأتيه في ذلك فتاة لم تعرف غير الطهر ، ولم تصحب إلا العفاف ، تريد أن تحيّي فيه الكاتب الفيلسوف الذي تكبره وتجله ، قد حملت معها عفافها وطهرها وطيب سريرتها ، فكان ردّه على تحيتها وترحيبه بها ، أن اخرجها من عنده بلا عفاف ولا طهر ، وسلبها أعزّ شيء عليها : عرضها .

ووجدت كتاب حياته يختصر في كلمة واحده ، هي أنه خسر الايمان والرجولة والفضائل كلها ، وربـــح شهرة عريضة ، وترك صفحات فيها كلام جميل ، يلذ قارئه ولكنه يسلبه إيمانه من قلبـــه ، ويقوّض بيته على رأسه ، ولوحات فيها خطوط وألوان لا يرى فيها من كان مثلي من الناس وهم مليون إلا واحداً من كل مليون ، إلا اجسامــــاً عارية لا معنى لهـا ولا دلالة ، ولا يعرف لها رأس من ذنب ، والباقون من الناس يقولون إنها تدل على معان كبيرة ، وهي رموز لحقائق الحياة، ويوضحون لك غامضها ، ويفتحون المغلق من معانيها بمحاضرة طويلة لا تفهم منها شيئاً ،لأنهم هم لم يفهموا شيئاً منها

هذا هو الرجل الذي اتخذه قومه (نبياً) !!

* * *

فخبروني ماذا يصنع هذا الكتاب بنفوس الناشئة إن هم قرؤوه ؟ أي قدوة في الحياة يكون لهم فيه ؟ أي نمط من العيش يحبب اليهم ؟ أما والله إنـه لخطب داهم ، ليس خطب هذا الكتاب وحده ، فإن له لأمثالاً ، وإن أمثاله لكثير كثير

وسيقول قوم أنت رجل رجعي جامد، هذا هو الفن يغتفر لصاحبه مالا يغتفر لغيره . ولئن كنت جامداً فهم والله مائعون، والجامد يستقر ويتماسك ، أما المائع

فدسيل ويضيع ؛ ولئن كنت رجعياً فالرجعية مشتقة من الرجوع ، وهي في الغرب سب لأنها عودة الى ظلام القرون الوسطى وجهالة الماضي الذميم ، وهي عندنا مدح لأنها رجوع الى مثل ما كان عليه أجدادنا في عصور العلم والنور . أما قولهم هذا هو الفن ، فإني أنكره أشد الانكار .

إن الذي أعرفه أن الفن هو الذي يبحث عن (الجمال) بحثَ العلم عن (الحقيقة) ، وأنه يُدْرَك بالعاطفة كما يدرك العلم بالعقل ، فمن قال إن الجمال لا يكون إلا في الفحشاء والمنكر ؟ أليس في تصوير الفضيلة جمال ؟ والوفاء والوطنية والاخلاص والنبل أخلِسْتْ كلها من الجمال ، واقتصر الجمال على مايثير الشهوة ويحركها ؟ او من أجل حماقة نزت برأس (فرويد) فرفع من شأن الشهوة ونوّهَ بها ، ننسى فضائلنا وسجايانا ؟

إن من كانت هذه مقالتهم لم يأتوا بجديد إلا أنهم لم يسموا الرذيلة رذيلة ولاالفحش فحشاً ، وإنما سموه (فناً) ؛ والجنون (فنون). والذي أعرفه أنا أن الفن إن كانت عاقبته فساد الأخلاق وانهيار بناء الأمة لم يكن له وزن ، وأن للأدب غاية هي تهذيب الطباع وصرف العواطف الى الخير ، وتنبيه الضمائر الغافلة ، وإيقاظ الهمم والمروءات ، وما الى ذلك مما يكون منه نفع للناس ، وأن في الحياة ما هو أثمن من الجمال والفن ، فيها الخلق والعرض ، والفضيلة والدين ، وأن من يبيع ذلك كله بلوحة مزخرفة بالخطوط والألوان ، او قصيدة قداودعت سحر البيان ، كان أخسر الناس قاطبة .

وليست مقالتهم في الفن إلا إعادة لما يقوله غيرهم ، فهي عن تقليد لا عن اجتهاد ، وهي محصول ذاكرة تحفظ وتردد ، لا ثمرة عقل يبحث ويقيس ، ثم يصدق او يكذب ، لذلك تجد لهم الرأي وضده ، وما الأول رأوا ، ولا بدا لهم فعدلوا ، وإنما قال لهم معلموهم فقالوا ، ثم مالوا فمالوا ، فلا سبيل الى مناقشتهم

فيما يقولون ، ولا تجوز مناظرة المقلد الذي يروي قول إمامه دون دليله . هذا الذي أعرفه، ولكن من حولي من الأدباء لا يعرفون إلا العبث يشتغلون به والنار تشتعل من حولهم ، والسيلُ طامياً يندفع اليهم ، والبلاء نازلاً يحيط بهم ، وإلا فأين الأدباء عن هذا الذي في سواحل الاسكندرية وبيروت ، وعما في دور الملاهي وحانات الخمر ؟ أين هم عن العرض المثلوم (في رأس البر وستانلي باي) ، والشرف المهان ، والفجور المعلن ؟ أين هم عن المدارس التي تعلم التلاميذ الجهل مركباً تركيباً مزجياً كيميائياً ، حين تعلمهم كل شيء إلا حقائق دينهم ، وحين تقرهم على كشف العورات وإضاعة الصلوات واختلاط البنين بالبنات ، او هي تدفعهم الى ذلك دفعاً . أين أدباؤنا عن الرجولة التي يعصف بها داء التأنث في الشباب ؟ ياويح من يظن أن الأدب إنما هو حديث الشهوة ملفوفاً برداء الفن ، والمواخير موضوعة بين دفتي كتاب او في غلاف مجلة ، ويستهين بالعرض والأخلاق ، والعرب أغير الأمم على الأعراض يفخرون بالبخل بها وصيانتها ، فخرهم بالجود بالمال وبذله ، ويحافظون عليها في صحوهم وسكرهم :

وإذا شربت فإنني مستهلك مالي، وعرضي وافر لم يكلم

لأن المال يعوض إن فقد ، والعرض إن ثلم لا يلتئم :

أصون عرضي بمالي لاأدنسه لابارك الله بعدالعرض بالمال

أحتال للمال إن أودى فأجمعه

ولست للعرض أن أودى بمحتال

وكانوا يكنون عن المرأة بالنخلة وبالبيضة والسرحة ، حياء أن يمر على لسانهم ذكر المرأة :

ألا يا نخلة من ذات عرق عليك ورحمة الله السلام

ويفخرون بغض الطرف عن الجارات :

وأغض طرفي إن بدت لي جارتي

حتى يواري جارتي مأواها

هذا وهم في جاهلية ؛ فلما جاء الاسلام وبعث الله محمداً ﷺ ليتمم مكارم الأخلاق ، أقر العرب على ما كانوا عليه من فضيلة ، ومن فضائلهم الغيرة على الأعراض ، وأدبهم أحسن التأديب حين أنزل على نبيهم : (قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم) ، وحرّم عليهم كشف العورات . ثم استدار الزمان ، وكان ناس يدّعون أنهم عرب مسلمون ولا يتخلقون بأخلاق الجاهلية ، ولا يتأدبون بأدب الاسلام ، غاض ماء الحياة من وجوههم ، فلم يستحيوا أن يسايروا زوجاتهم في الطرقات سافرات ، باديات الشعور والنحور ، واستلّت الشهامة من قلوبهم ، وامّحت الغيرة فلم يردعهم دين ولم يزعهم خلق عن أن يعرضوا بناتهم ونساءهم وأخواتهم ، عاريات الأجسام كلها إلا ما يستر العورة الكبرى ، في مكان اختلط فيه الرجال بالنساء ، أمرٌ (والله) لو سمعه مسلم من المسلمين الأولين لصُعق له ، ولو سمعه جاهلي لأغمي عليه من غرابته وفظاعته ، و (مصر) ذات الأزهر ، لا تمنع ذلك ولا تحرمه ، ودينها الرسمي الاسلام !

اللهم اليك المشتكى ...

وهذه مجلات مصر ، تنشر كل أسبوع صور العاريات ، فتزيد نار الشهوة في اعصاب الشبان والشابات ضراماً ولا منكر ، حتى جرأها هذا السكوت على الاقدام على عدوان يمنعه القانون والذوق والنبل والدين ، وهو تصوير الشيخ الجليل أبي العيون تصويراً هزلياً بعمامته وجبته ، ومعه امرأة عارية ، وتكرار ذلك مرتين ، وتهكمها عليه لأنه انفرد بإنكار هذا المنكر الفظيع ،

وأعلن الغيرة على الأعراض ـ فإلى متى تمتد هـــذه الجاهلية العمياء ؟

فيا أدباء مصر انتبهوا ، فوالله انها لتوشك أن تنهار الأخلاق فلا تقوم لها قائمة ، وتذهب هذه البقية من الدين فلا يبقى دين ، وتموت هذه الفئة من أهل المروءة فلا يبقى من مروءة . يا أدباء مصر ، إن العـــالم العربي ليسمع منكم ويقتدي بـــكم ، فإن أنتم لم تسلكوا به سبيل الاصلاح ، وتدلوه على طريق الخير ، كان عليكم اكبر الوزر . ورحم الله ذا قلم جرده لنصرة هذه الدعوة ، والدفاع عن الشرف ، وذا صحيفة فتحها لتلك الأقلام ، وأعانهـا على دعوتها ، وكل قارىء أقبل عليها ونشرها .

نحن المذنبون

نشرت سنة ١٩٥٥

كنت أمس عند قريب لي شاب ، لايدع شيئاً في هذه الكتب التافهة التي يحملها بيّاعو الجرائد الا اشتراه ، حتى اجتمع له منها مالو أنفق ثمنه في كتب العلم النافع ، والأدب القيّم ، وقرأه لصار به من علماء الأدباء أو من أدباء العلماء ، وجعلت انظر فيها ، فسألني :

ـ ألا تقرأ هذه الكتب ؟

ـ قلت : اقرؤها ان وقعت لي بالمجان ، لأستعين بها على النوم ، أما شراؤها فلست استحله ، لأن اكثر مؤلفيها مفسدون ، وحرام أن اعينهم على افسادهم ولو بثمن نسخة واحدة ...

ـ فقال : خذ ما تشاء منها لتقرأه .

فأخذت طائفة من كتب التراجم و ومنها كتاب في ترجمة (اللورد بيرون) للصاوي وقرأته في الفراش اجتلب به النوم ، فاذا أنا اجـــد فيه من البلايا والطامات ما أطار النوم من عيني غضباً لله ، وللفضيلة ، ولأخلاق الشباب الذين يقرؤونه ...

كتاب مطبوع أجمل طبع ، على اجود ورق ، محلّى بالصور ، وفيه الديناميت الذي ينسف أسس الحياة الاجتماعية بكل مافيها من دين وخلق وفضائل .

وأنا لم اعرف من بيرون هذا ، إلا أنه شاعر انكليزي غزل ، قرأت من شعره مترجماً الى الفرنسية والعربية مايطرب ويعجب ، ولم أكن أدري قبل أن اقرأ هذا الكتاب ان هذا البيرون قد جاء من جد معتوه فاجر ، وأدب مجرم ساقط ، وأم مجنونة حمقاء ، وأن حياته ... لا لن أصف لكم مافي هذا الكتاب النجس فأكون رواية للشر ، وحاملاً للرجس ، ولكن ألخص مافيه بكلمة واحدة ، هي أن هذه (الحياة) كانت سلسلة من الجرائم ، بدأت بعشقه وهو في سن السابعة ، ومحبته الصبيان الحسان الأماليد . وانتهت بأن أحب أخته - أخته ألا تصدقون ؟ حباً أثمر حبلاً !

هذه الرذائل كلها ، ومؤلف الكتاب يمجد الرجل ويبجله ، ويلبسه أثواب العظمة والجلال ، ولا ينكر عليه بكلمة واحدة .؟.

... لماذا ؟

لأنه استطاع أن يصنع كلاماً جميلاً .

لأنه نظم شعراً بليغاً .

لأنه كان أديباً ، والأديب مغفور له كل ذنب ، محتمل منه كل أذى .

وأنا أديب ولكن إن كان هذا هو الأدب فاشهدوا عليّ أني طلقت الأدب طلاقاً لا رجعة فيه ، وسامحكم الله بالثلاثين سنة التي انفقتها من عمري في الكتابة فيه ، وبالعشرة الآلاف من الصفحات التي كتبتها في هذه السنين الثلاثين.

إن كان هذا هو الأدب ، فلعنة الله على الأدب .

لعنة الله على الشعر الجميل ، والوصف العبقري ، اذا كان لايجيء الا بذهاب الدين والفضيلة والعفاف .

لعنة الله على بيرون وبودلير ، وعلى بشار وأبي نواس ، وعلى من يفسد عليّ ديني ، ويذهب بعرضي ، ويحقر مقدساتي ، ليقول كلاماً حلواً .

وهل تعوض علي لذتي بحلاوة الكلام ، الدين الذي فسد ، والعرض الذي ذهب ، والمقدسات الذي مرغت بالوحل .

هل في الدنيا مؤمن أو كافر ، شرقي أو غربي ، يسمح بوضع هذا الكتاب بين أيدي أبنائه وبناته ، ليتعلموا منه أن يحب الشاب أخته حباً ينتهي بالحمل ؟

هل يسمح بذلك ألا أن يكون قد فقد عقله ؟

فكيف يسكت الناس عن هذا الكتاب وهو يباع علناً ، كيف يغضون عن هذا الماخور السيّار ؟ كيف تقر الحكومة نشر كتاب ، يلعن كل مايباركه الشيخ والقسيس والحاخام ، ويهدم كل مايبنيه الوعاظ والمعلمون والمصلحون ، ويبيح كل ماتحرمه الشرائع والقوانين والأعراف ؟

آمنّا بحرية الرأي ، ولكن هل معنى هذه الحرية أن كل من استطاع كتابة صفحات وطبعها يكون حراً أن يقول ماشاء ، ولو دعا الى الكفر والفسوق والعصيان ؟

لماذا تمنع البلاد الملكية الطعن بالذات الشاهانية ، وتبيح الطعن بالرسل والانبياء بتسفيه أديانهم ، وتقبيح شرائعهم ؟

وهل الحرية أن يعمل كل انسان مايريد ، ولو ضرب غيره ، ولو عدا على ماله ؟ ولو مشى في الطريق عارياً ؟ ولو كتب مثل هذا الكتاب ؟

ولماذا نقيم القيامة على من يسرق عشرة قروش ، ونبعث وراءه الشرطة والدرك والنيابة والمحكمة والسجن ... ونترك سارق الأعراض والعقائد؟

إن في الأسواق كتباً نجسة مدمّرة ، ألّفت لتجميد أناس كانوا في سيرهم وفي اخلاقهم ، شر نموذج يعرض على انظار الناشئين والناشئات . ولا يكون لهم منها الا دليل يأخذ بأيديهم ليسلكهم هذه المسالك ، منها كتاب « جبران خليل جبران » لنعيمة ، جبران الذي يصفه صديقه وهو

يقرظه بأنه حمل نفسه الى المجد على عاتق امرأة ، ثم لم يكفه هذا الصغار حتى جعل مكافأتها ان خان عهدها ، جبران الذي يمدحه صفيه وخليله نعيمة ، بأنه كان يحاول أن (يأتي) كل فتاة كانت تأتي اليه معجبة به ، ومنها كتاب بلزاك ، وكتاب اسكندر دوما ، واشباههم من أدباء الافرنج ، ممن كانوا يعبثون بعرض الفتاة ، ويفجعونها فيه ، ويجعلون منها بغياً لينظموا قصيدة غزل ، او يكتبوا قصة حب ، كما احرق نيرون روما ، ليؤلف لحنه الموسيقي على لهيب نارها ...

وشر من هذه الكتب كلها ، كتاب (الرباط المقدس) لتوفيق الحكيم لأنه دعوة صريحة للعبث بالأمانة الزوجية ، وأن تشرك المرأة حبيبها مع زوجها في جسدها .

كتاب لم أجد في كل ما رأيت من كتب دعاة الرذيلة أوقح من مؤلفه الفاجر ، ولا أقل حياء منه !

أو تدرون كيف قرأت هذا الكتاب ؟

كنت في مصر سنة ١٩٤٥ ، جئتها بعد غيبة عنها امتدت سبع عشرة سنة ، وأقام لي المصريون الكرام حفلات كثيرة ، قام في واحدة منها الشاب العالم الصالح عبد الرحمن الباني (مفتش الدين في وزارة المعارف السورية اليوم) وكان طالباً في الازهر ، فألقى خطبة عاب فيها على الأدباء المسلمين سكوتهم عن انكار منكرات النشر ، وضرب المثل بهذا الكتاب ، وبلغت به الحماسة أن طوّح به فألقاه عليّ من فوق المنبر ... وقال : خذ انظر ، ماذا يكتبون وأنتم نائمون .

وأصابني الكتاب بضربة على وجهي ، ولكني لم أغضب ، ولم أردد عليه مثلها ، بل احتملتها صابراً ، لأن الحق كان معه !

لأننا نحن المذنبون .

نحن المذنبون ، ونحن نستحق هذه الضربة وأشد منها .

ان الكثرة الكاثرة من الناس في كل بلاد المسلمين منا ، وفينا الاموال، وفينا الكفايات ،وفينا الاقلام ، والحكم في عرف الديموقراطية للأكثر ،ومع ذلك ... ومع ذلك نجد الصحافة في أيدي (الآخرين) ، والنشر في أيديهم والمدارس والجامعات في أيديهم ، وكل شيء ، في أيديهم .

ونحن الذين ندفع تكاليف هذه الصحف ، نحن الذين نشتريها ونقرؤها ونحن ندفع اثمان هذه الكتب ، ونحن الذين يرسلون أبناءهم وبناتهم لهذه المدارس والجامعات ، ونحن الذين يؤدون الضرائب لهذه الحكومات ، التي تهجر كتاب ربنا وسنة نبينا ، وتحكم فينا بقوانين فرنسا وايطاليا وسويسرا والتي تبيح فينا الزنا والربا والفجور والعصيان ، وكل ماحرمه علينا ديننا رغماً عن أنوفنا .

وياليتنا ننكر بألسنتنا واقلامنا ، وان عجزنا (ولسنا عاجزين) عن أن ننكر بأفعالنا ، ويا ليتنا إذ لم نستطع منع هذه الكتب وهذه المجلات ، لم نمدها بأموالنا ، وياليتنا اذ لم نقدر على اصلاح هذه المدارس والمعاهد لم نبعث اليها بأبنائنا وبناتنا ، وياليتنا إذ بعثناهم اليها ألزمناهم بالصلاة والصيام وتقوى الله وغض البصر ، وستر العورات ، والبعد عن المحرمات ، وسلحناهم لذلك بسلاح من معرفة حقيقة الاسلام ، والوقوف على احكامه ، وياليتنا إذ لم نفعل ذلك كلنا ، فعله علماؤنا على الأقل ، فلم يكن ابناؤهم وبناتهم من السابقين الأولين في طريق الاستهتار والفسوق !

أفلا نستحق أن نصفع بهذه الكتب كل يوم على وجوهنا ؟

* * *

إن أكثر هؤلاء الاشرار ، (من امثـــال توفيق الحكيم) عزّاب غير متزوجين ، ليس لهم ولد يخافون عليه الفساد ، ولا بنت يخشون على عفافها الضياع ، فهم لذلك يفتحون علينا ، في صحفهم ومجلاتهم و كتبهم ، باباً بعدباب للاختلاط والفجور والبغاءالمقنّع ، يخترعون كل يوم اسماً جديداً ، فمن (الحرية الفكرية) الى (الحياة الفنية) الى (الروح الرياضية) الى (النهضة النسائية) والمسمى واحد والغاية واحدة ، وهي أن يستمتعوا المتعة المحرمـة ببناتنا ، بالنظر الى محاسنهن في الطريق ، والاختلاط بهن في المعهـد ، ورؤية المستور من اعضائهن في الملعب ، وتقصّي العيون الفاجرة كل موضع من اجسامهن على الشاطىء ، وما يتبع النظرة من الابتسام ، وما بعد الابتسام من الكلام ، ثم الموعد واللقاء ، ثم ... مانعرف وتعرفون ! غاية طبيعية لابد من بلوغها ، ومن انكر ذلك لم يكن الا أحمق مجنوناً ، أو كذاباً ملعوناً ، يظهر غ ير مايبطن ، ويقول غير مايعتقد .

وهل تدحرج الصخرة من فوق الجبل ، ليس امامها شيء ، وتنتظر أن تقف على الطريق ؟ هل تضع النار والبارود ، وترقب الا يكون انفجار ، بل يكون برد وسلام ؟

هذه حقيقة من اظهر الحقائق ، من كان لايبصرها فهو أعمى ، ومن انكرها فهو شيطان ، فلم لانعترف بالحقائق ؟

لماذا ننكر بألسنتنا ، ماتنطق بصحته قلوبنا وجوارحنا ؟

لماذا نكون مثل هؤلاء (التقـدميين !) يفعلون كل شيء ، ولكن يستحيون من التصريح باسمه ؟

وكيف يجوز لهم في شرع هذه المدنية ان يهجموا علينا ولا يجوز لنا أن ندافع عن أنفسنا ؟

أتبلغ الوقاحة باللص أن يأتي ليسرق عرض ابنتي جهاراً نهاراً ، ولا يحق لي أن أحصّنها منه بالحجاب الشرعي ، وبالتربية الاسلامية ، وأن أدافع عن نفسي بالفكر والقلم واللسان ؟

اننا في انظارهم (رجعيون) و (جامدون) و (متعصبون) لأننا لم نقل لهم ، تفضلوا انتقوا من تشاؤون من بناتنا ، لتصاحبوها في السينمات ، وتراقصوها في السهرات ، وتأخذها الى (البلاجات) ...

لقد بلغنا من المذلة والضعف أن صرنا نخشى اللص ، ونهرب منه ، لئلا نشاهد متلبسين بهذه الجريمة الهمجية ، المخالفة المدنية والتقدمية ، جريمة منع اللص من أن يسرقنا ، لقد تبدلت المقاييس ، وتغيرت الافهام ، فصار الناس يجلون البغايا من الممثلات والراقصات ، اكثر مما يجلون الفاضلات الصالحات ويحترمون المغنين والمغنيات ، اكثر من احترام المدرسات والمعلمات .

هذا كله ثمر الغرسة الخبيثة التي غرسها فينا المستعمر ، وإنه لن يكون الجلاء حقاً ، حتى تجلو قوانين المستعمر عن محاكمنا ، وشبهه عن رؤوسنا وعاداته عن بيوتنا ، كما جلت جنوده عن أرضنا .

وذلك في أيدينا ، نحن الكثرة الكاثرة ، نحن الذين نملك الاموال والعقول والألسنة والاقلام ، ونملك هذه المنابر التي تستطيع ان تهز الارض ، إذا علاها رجال ، لا أشباه الرجال .

فاذا بقينا على هذا الصمت ، وهذا الضعف ، وهذه العبودية ، كنا مستحقين ان نصفع على وجوهنا كل يوم ، لا بالكتب بل بالنعال !

في الحب

ومن حرم الكلام في الحب؟ (والله الذي أمال الزهرة حتى تكون الثمرة، وعطف الحمامة على الحمامة حتى تنشأ البيضة، وأدنى الجبل من الجبل حتى يولد الوادي، ولوى الأرض في مسراها على الشمس حتى يتعاقب الليل والنهار، هو الذي ربط بالحب القلب بالقلب حتى يأتي الولد.

ولولا الحب ماالتف الغصن على الغصن في الغابة النائية، ولا عطف الظبي على الظبية في الكناس البعيد، ولاحنا الجبل على الرابية الوادعة، ولا أمد الينبوع الجدول الساعي نحو البحر.

ولولا الحب مابكى الغمام لجدب الأرض، ولا ضحكت الأرض بزهر الربيع، ولا كانت الحياة[1].

مافي الحب شيء، ولا على المحبين سبيل، انما السبيل على من ينسى في الحب دينه. أو يضيع خلقه، أو يهدم رجولته أو يشتري بلذة لحظة في الدنيا عذاب الف سنة في جهنم. أو لم يؤلف ثلاثة من اعلام الاسلام، ثلاثة كتب في الحب[2]، وهم صاحب الاعلام[3]، ومصنف المحلى والامام ابن الامام؟

---

(١) فقرة من قصة (أين الحب) من كتابي (قصص من التاريخ) .

(٢) الزهرة لابن داوود الظاهري . وروضة المحبين لابن القيم ، وطوق الحمامة لابن حزم ، الأول طبع اوربة والثاني طبع المكتبة العربية في دمشق والثالث طبع مكتبة عرفة في دمشق .

(٣) اعلام الموقعين عن رب العالمين . وهو كتاب جليل فيه علم كثير ، وفيه شغب على المذاهب الفقهية المدروسة المحققة ، ومثله في ذلك المحلى لابن حزم . ونحن لانقول أن كل مافي المذاهب الاربعة معاً يجب اتباعه ، ولا تجوز مخالفته ، ولكن نقول ، انمن كانمقلداً على =

ويا ليت الشبان يعودون الى الحب ، فتقل هذه الشرور ، ويخف هذا الفساد . ولكن أنّى يكون الحب ، مع هذه الشهوات المتسعّرة ؟ .

انها اذا لم تطمر الفحمة في بطن الأرض دهراً ، لا تصير ألماساً ، واذا لم تدفن الشهوة في جوف القلب عمراً ، لا تكون حباً .

ولكن كيف اكتب عن الحب ؟ .

وهل تسع هذه المقالة حديث الحب .؟

هل يوضع القمر في كف غلام ؟ هل يصب البحر في كأس مدام ؟ وأين لعمري الألفاظ التي احملها معاني الحب ؟ اين التعبير الذي يترجم عن العاطفة ؟ ان البشر لا يزالون اطفالاً ماتعلموا الكلام ، انهم خرس يتكلمون بالاشارات وما هذه اللغات البشرية الا اشارات الخرسان ، والا فأين الألفاظ التي تصف الوان الغروب ، ورجفات الأنغام ، وهواجس القلوب ؟

نقول للون احمر ، وفي صفحة الأفق عند المساء عشرات الألوان كلها احمر ، وما يشبه لون منها لونا ، وما عندنا لهذه (العشرات) الا هـذا اللفظ (الواحد) . ونقول للنحن رصد ، ولكن رجفة في صوت المغني ، أو مدة أو غنة ، تجعل من الرصد مئة رصد ، وما عندنا لهذه (المئة) الا اللفظ (الواحد) .

ونقول ، قصة (جميلة) ، ونغمة (جميلة) ، ومنظر (جميل) ، وطفل (جميل) ، ماعندنا الا هذا اللفظ الواحد ، نكرره كالببغاوات نعبر به عن

= كل حال ، فأولى به أن يتبع مذهباً خدم اكثر من الف سنة من أن يتبع فقيهاً منفرداً برأيه أو يتبع محدثاً غير فقيه . والحديث هو الاصل ، ولكن ليس كل محدث فقيهاً ، ولا كل صيدلي طبيباً ، ولا كل من وقف على نصوص القوانين ، يكون قاضياً او محامياً .

هذا وأنا اعلم أن الاثنين (ابن القيم وابن حزم) من أجل العلماء الذين ازدان بهم تاريخ الاسلام ، ولكن لكل عالم هفوة ، والعصمة الرسول صلى الله عليه ولأمته فيما ينعقد عليه (اجماع) مجتهديها .

الف جمال ، مامنها جمال يشبه جمالا ، وأين (جمال) القصة ، من (جمال) الوادي ، و (جمال) العمارة من (جمال) المرأة ؟

وجمال المرأة ...؟ أهو لون واحد ، حتى نطلق عليه الوصف الواحد؟ لو حشدت مئة من اجمل الجميلات في مكان ، لرأيت مئة لون من الوان الجمال تشعر بها ، ولكن لاتملك وصفها .

ان في الارض اليوم اربعة مليارات من العيون البشرية نصفها في اوجه الانثيات ، ونصف النصف تحت حواجب الغيد الفاتنات ، وما فيها عينان هما في شكلها ووحيها ، واثرهما في النفس كعينين أخريين . ثم إن لكل عين حالات مختلفات لايحصيها العد ، ولغات لو كان يدركها البشر ، لكان لكل عين قاموس ، يترجم عنها ، كالقاموس المحيط . وما عندنا لهذا كله ، الا هذا اللفظ الواحد ، جميل ، جميل ، جميل ، نكرره ونعيده ...

وكذلك الحب .

الحب عالم من العواطف ، ودنيا من الشعور ، فيها كل عجيب وغريب وليس لنا اليه الا هذه الكوة الضيقة ، الكلمة القصيرة ذات الحرفين : الحاء والباء ، الحاء التي تمثل الحنان ، والباء التي تجمل الفم وهو ينطق بها ، كأنه متهيئ لقبلة ، كلمة (الحب) . ولكن كم بين حب وحب ؟ .

بين (حب) التلميذ مدرسته . و (حب) الوالد ولده ، و (حب) الصديق صديقه ، و (حب) المتشائم الوحدة ، و (حب) أكلة من الأكلات و (حب) منظر من مناظر الطبيعة ، و (حب) كتاب من الكتب ... وبين (حب) المجنون ليلاه ؟

وحب العاشقين انواع وانواع .

ففي أي الحب اتحدث ؟ وكيف اجمع اطراف الكلام حتى احشره في هذه الصفحات ولو لبثت شهراً اكتب كل يوم فصلاً ما أتيت على مافي نفسي ولما وفيت حقه الموضوع ؟ .

ولكني مع ذلك سأحاول .

أحاول أن اكتب في الحب ، وقد تقضى الصبا ، وتولى الشباب ، وما كان (يوماً) يملأ القلب ، صار ذكرى لا تكاد تخطر على البال ؟

لقد كنت اذ اكتب في الحب ، اغرف من معين في نفسي يتدفق ، فجف النبع حتى مايبض بقطرة ، وخلا الفؤاد من الم الهجر ، وامل الوصال ، وبطل سحر الغيد ، وطمست شمسُ الحقيقة ، سُرُجَ الأباطيل ؟

ولو اني بليت بحب جديد ، لأعاد لي الحب ايامي التي مضت . والحب يصنع المعجزة التي تنقطع دونها آمال البشر : يعيد للمحب ماضيات الأيام ، ويرجع له خوالي الليالي ، ويرد الكهل فتى ، والفتى طفلا ، وأين مني الحبّ ؟ لم يعد ينقصني بعد السن والتجربة الا أن يتعبدني الحب . . . وأن اعود الى تلك الحماقات !

أعوذ بالله ، من الجنون بعد العقل .

كلا ، ما أنا من ددٍ[1] ولا ددٌ مني ، فاتركوني ايها العشاق ، اتركوني فقد أنستني الأيام كيف يكون الغرام

وماذا يبتغي (العشاق) مني وقد جاوزت حد الأربعين ؟

ولكن هل تركني العشاق ؟ هذي كتبهم بين يدي ، يستنجزون بها الوعد ، ويطلبون مني أن اكتب لهم في الحب ، كأننا لسنا في حرب مع اليهود ، وليس في الدنيا غلاء ولا بلاء ، ولا مفاسد ولا عيوب ، مابقي علينا إلا الكلام في الحب ؟

ومتى كان المحبون يحفلون في الدنيا ، بغير المحبوب ؟ لا يعرف المحب إلا ليلاه ، يحيا لها ، ويموت فيها ، اكبر همه من العيش ان تعطف عليه

---

(١) الددُ : اللهو واللعب

بنظرة ، او تجود له ببسمة ، او أن تمس بيدهـــا يده فتمشي في اعصابه مثل هزّة الكهرباء ، ويسكر منها بلا دنّ ولا قدح ، ويطرب بلا حَنْجَرة ولا وتر ، وغاية امانيه من الدنيا أن يلقي برأسه على صدرها ، او يجمع فاه الى فيها ، في ذهلة لذة [1] عميقة ، تحمله الى عالم مسحور ، يجتمع فيه الزمـــان كله ، وتختصر فيه الأمكنة جميعاً ، فتكون هذه اللحظة هي الأزل وهي الأبد ، وهي الماضي وهي المستقبل ، ويكون المحبّان هما وحدهما الناس ...

اولئك هم العاشقون

واولئك هم (عند انفسهم) ارباب القلوب ، وهل يكون ذا قلب من لم يلامس قلبه الحب ؟

واولئك هم أولو الأبصار . وهل تبصر عين جمال الوجود إن لم تفتحها يد الهوى ؟

واولئك هم المعذبون الصابرون . يعيشون فلا يدري بآلامهم احد ، ويموتون فلا يقـــام لشهيدهم قبر ، لا يهدؤون ولا يهنؤون . إن اشتهى الناس المسرّة استمتعوا هم بالآلام . وإن اطمأن الناس الى الحقائق طاروا هم وراء الأوهام . وإن أنسوا بالضحك استراحوا هم الى البكاء . يبكون في الفراق من لوعة الاشتياق ، ويبكون في الوصال من خوف الفراق ، يريدون أن يطفئوا بالدمع حُرقَ القلب ، وما يزيدها الدمع إلا شرّة وضراماً .

يبكون لأنهم يطلبون ما لا يكون فلا يصلون اليه أبداً .

يترك العاشق النساء جميعـــاً ، ويهيم بها وحدهـــا ، فهو يريد أن تترك الرجال وتنظر اليه وحده ، وأن تدع لأجله الدنيا وما فيهـا ، وتغمض عينيها فلا ترى فيها غيره ، وتوصد أذنيها فلا تصغي الى سواه ، فهو يغـــار عليها من

---

(١) لذة : لذيذة

القريب والبعيد ، ومن امها ومن أبيها ، ومن الشمس أن تبصرها عين الشمس ، ومن الكأس أن تُقبّل ثغرها شفة الكأس .

وماذا يريد العاشقون ؟

سلو الشعراء يحلفون لكم ، إنهم لا يطلبون إلا نظرة تروي الغليل ، وبسمة تُطفي الجوى ، وأن يندمج بها ، ويفنى فيها ، فهو يعانقها (والنفس بعد مشوقة) اليها ، ويضمها وهو يحس أنه لايزال بعيداً عنها ، وهو لو استطاع لعصرها مصاً ، ولأكلها عضاً ...

يمضي عمره بعيداً عنها ، خالياً قلبه من حبّها ، لا يدري بوجودها ، ثم يراها مرة واحدة ؛ ينظر اليها نظرة ، فيحسب أنه قد عرفها من الأزل ، وأنه لم يفارقها ساعة ، ويقسم أنها ما خلقت إلا له ، ولم يخلق إلا لها ، ولا يعيش إلا لها وبها ، فهما روح في جسدين [١] هي هو ، وهو هي ، ينظر بعينيها ، ويسمع بأذنيها ، ويجوع ببطنها ، فإن أكلت شبع ، وإن شربت روي ، وإن سُرَّت ضحك ، وإن تألمت بكى ، وإن أصابها الصداع وجعه رأسه ... يطرب وهو بعيد عنها إن سمعت نغماً عذباً ، ويبتسم وهو في أعماق منامه إن رأت في منامها حلماً حلواً .

يتبع هواها على القرب والبعد ، ويؤثر رضاهـا في الغيبة والحضور ، ويطيعها اطاعة لو أن العباد أطاعوا ربهم مثلها لأقفرت من أهلها جهنم . يسهر الليل كله يتقلب على فراش السهد من الشوق اليها ، والخوف منها ، والطمع فيها ، ويعد الكلام الطويل ليقوله لهـا ، فإذا لقيها نسي ما كان أعدّه من هيبتها .

---

(١) وهذا ما اراده من يقول :

أنا من أهوى ومن أهوى أنا   نحن روحـان حلنا بدنا

ولكن قصرت به العبارة .

إن تكلم لم ينطق بغير حديثها ، وإن سكت لم يفكر إلا فيها ، قد جهل كل طريق كان يعرفه إلا طريقها ، فما يمشي إلا توجه اليها ، يحوّم حولها علّه يرى البيت الذي تسكنه ، او ينشق الهواء الذي تنشقه ، ينام الناس ويسهر ليله ، يساير النجوم في مسالكها ، ويعد الدقائق في مجراها ، لا يرى حيثما نظر غيرها ، ولا يبصر سواها ، يراها بين سطور الكتاب ان نظر في صفحات الكتاب ، وفي وجه البدر إن رنا الى طلعة البدر ، وبين النجوم إن قلب نظره في النجوم . يراها في كل شيء تفتح عليه العيون ، فإن أغمضهما رأى طيفها في ثنايا الأحلام ...

يذكره بها وميض الزهر في الروض ، وحديث الساقية للسفح ، والحمامة تسجع على الغصن ، والمغني يصدح في هدأة الليل ، بـ (ياليل) فيصغي طرباً اليه الليل ، ولفتة الجدول عند الرابية ، وفتنة الوادي عند الجزع ، والدرب الحالم تحت فروع الدلب والصفصاف على كتف النهر ، والشلال الهادر في الليل الداجي ، والتلال الخضراء اللابسة جلابيب الصنوبر ، والجبل الأجرد المتوج بعمامة من الصخر ...

إن هب النسيم من نحو أرضها شجته النسائم ، أو جرى السيل من جهتها أجرت دموعه السيول ، او طلع الكوكب من أفقها هاجت أشواقه الكواكب ، او رأى طيراً تمنى لو استعار (ليزورها) أجنحة الطير .

يحب لأجلها كل ما كان منها وما اتصل بها ، الرضاب الذي تنفر منه النفوس ان كان رضابها فهو خمر ، وريح العرق الذي تأنف منها الطباع ان كانت ريحها فهي عطر ، والألم ان جاء منها كان لذة ، والذّم ان جرى على لسانها كان ثناء ، والظلم ان وقع منها أشهى الى قلبه من نيل الحقوق من

أيدي الغاصبين ، والأهل أهلها أحباؤه وأصدقاؤه ، ولو عدوا عليه ، وأساؤوا اليه .

يرضى منها بالقليل الذي لا يرضي ، إن بسمت له بسمة فكأن قد بسم له الدهر ، وواتته الأماني ، وان كلمته كلمة ، فكأن قد صبت في روحه الحياة ، وان وعدته بقبلة ، عاش دهره يذكر الوعد ويتعلل بذكراه .

يعاف لحبها طعامه وشرابه ، ويهجر راحته ومنامه ، والمجد يزهد فيه ولا يباليه ، والدين يتركه والمال لا يفكر فيه ، وإن هو ابتغى المعالي يوماً فإنما يبتغيها ليسرها ويرضيها ، وإن نظم او كتب فلها وحدها ، يقرؤه عليها وإن كانت لا تدركه ولا تفهمه ، ولا تستطيع أن ترقى الى سمائه ، وان أغار في الحرب فلينال إعجابها ، وإن طلب العظائم فليعظم في عينها ، إن سعد الناس بالغنى والجاه لم يسعده إلا لقاؤها ، وإن حرص العقلاء على رضا الله لم يحرص إلا على رضاها ، وإن افتخروا بالصحة والقوة ، فخر بالمرض والضعف والهزال ، يرى القصر إن خلا منها سجناً ، والسجن إن كان معها قصراً ، والقفر إن كانت فيه روضة ، والروضة إن فارقتها قفراً ، واليوم إن واصلته لحظة ، واللحظة إن هجرته دهراً ، يرى الشمس من هجرها سوداء مظلمة ، والليل البهيم من وصالها شمساً مشرقة .

تؤرقه ويرجو لها طيب المنام ، وتسقمه ويسأل لها البعد عن الأسقام ، يعتذر من ذنبها وهي المذنبة ، ويبكي من حبها وهو القتيل ، فهي شقاؤه وهي داؤه ، وهي نعيمه وهي شقاؤه . وهي جنته وهي ناره ، يطلب أن تلتقي الروحان ، ويتوحد الاثنان ، وهذا مالا يكون أبداً ، لذلك يترك حاضره ويحن الى الماضي ، يعود بالذكرى اليه يفتش في زواياه عن هذه الأمنية ، او

يتطلع الى المستقبل ، يستشف بالخيال مافيه ، فلا يرجع له ماض ، ولا ينجلي له آت ، ولا يثبت له حاضر .

وهذا أبداً دأب العاشقين ، انهم يئسوا من أن يسعدهم الناس على بلواهم ، فتركوا دنيا الناس وعاشوا وحدهم في دنياهم ، هاموا على وجوههم يبحثون عن قطع قلوبهم التي خلفوها في مدارج الهوى ، وملاعب الصبا ، وتحت الأطلال ، يسائلون الحفر والحجارة ، ويناجون الأحلام والأوهام .

يقول العاذلون : انس ليلاك ، ففي الأرض ليليات كثر ، واستبدل بها ...

وما يدري العاذلون ، ماذا يلاقي ، لا ولا نظروا الى ليلى بعينيه ، ولا شعروا بها بقلبه .

فيارحمتا للعاشقين ، مما تقول العواذل .

* * *

هذا هو الحب عند الأدباء ، فما الحب عند النفسيين ؟

أنا أقول لكم ما الحب عند النفسيين .

لايرى النفسي في الحب ، الا رغبة في متاع الجسد ، قابلها امتناع وإباء فاشتدت وامتدت ، وكانت بين الرغبة والامتناع شرارة ، كالتي تكون بين سلكي الكهرباء ، وهذه الشرارة هي الحبّ ، ما الحب الا (شهوة) لم تقض ورغبة لم تتحقق ، وكل مايقول المحبون العذريون وهم وضلال ، يقولون انهم لايطلبون الا المجالسة والكلام ، ولو كانت مجالسة وكلام ، لطلبوا لمسة اليد وقبلة الخد ، ولو كانتا لطلبوا العناق والضم ، ورشفة الفم ، كصاعد الجبل ، يرى الذروة أمامه فيحسبها القمّة التي لاشيء فوقها ، فإذا بلغها تكشفت له ذروة أعلى ، إنها سلسلة لها حلقات متصلات ، ما أمسكت بواحدة منها إلا جرّت معها التي بعدها ، حتى تصل الى آخر حلقة فيها :

نظرة فابتسامة فسلام فكلام فموعد فلقاء . . .

... فالمحكمة الشرعية لعقد العقد ، أو محكمة الجنايات لتلقي العقوبة

هذه هي سنة الله ، ماجعل الله طريقاً لصداقة بين الشاب القوي والصبية الحسناء لا ولا بين الكهل والشوهاء ، لاصداقة قط بين رجل وامرأة ، مابينهما إلا الحب المفضي الى (الاجتماع ...) ، ان الصداقة صلة بين متشابهين ، بين الرجل والرجل ، وبين المرأة والمرأة ، والحب صلة بين مختلفين ليتكاملا به فيغدوا بالحب كالكائن الواحد .

فان لم تكن رغبة يقابلها امتناع لم يكن حب ، والمرأة التي تمنح جسدها كل طالب ، تكون مطلوبة وتكون مرغوباً فيها ، للذة العابرة والمتعة السائرة ولكنها لاتكون محبوبة أبداً !

والحب ان حللته الى عناصره ، كما يفعل الكيميائيون بالجسم المركب وجدته يرجع الى (غريزة الاستطلاع) والى (غريزة التغلب) وهما من (اصول الغرائز) الانسانية ، وقد تعرف عشرات من النساء ، ثم تلمح في الترام فتاة تجلس امامك بلوح بياض فخذيها ، من تحت ذيلها ، فتحاول أن تعرف ماذا هناك ، وترى الممثلة في (الفلم) بلباس البحر ، وتبانه[1] المشدود على فخذيها ، فلا يثيرك تبانها ، ماتثيرك خرقة مهدلة ممزقة ، قد لفتها عليها تهتز مع الريح ، ولو لم تظهر منها اكثر مما يظهر التبان ، والفتاة التي تصعد المسرح عارية لا تصنع بأحد مثلما صنعت (ريتا هوارث) لما صعدت بثيابها كلها ، ثم مازالت تلقيها عنها قطعة فقطعة ، وتكومها عند قدميها ، حتى بدت كالعارية ...
ومن هنا كانت الثياب ، من اسباب الأنوثة ، ودواعي الاغراء ، ولو أن الناس كانوا كالحمير عراة دائماً ، ولما بقي من هذه (الرغبة الجنسية) واحد من

---

(١) التبان : المايوه

كل مئة ، ولقد قرأت مرة نكتة في مجلة ، ولكنها كانت حقاً وصدقاً ، ان تلميذاً في مدرسة الفنون الجميلة في مصر ، يوم كانت لاتخشى الله ، ولا ترعى الخلق ، ولا تحكم العقل ، فتأتي بالصبايا العاريات (تماماً) ليصورهن التلاميذ ان هذا التلميذ قال لرفيقه : أما ترى جمال هذه الفتاة ؟ قال : فكيف لو رأيتها لابسة ثيابها ؟!

أما كون الحب غريزة تغلّب ، فظاهر من احوال الناس، والنفس تكون متعتها باللقاء الجنسي اكبر ، كلما كانت العوائق اكثر ، والطريق ابعد واصعب ، ومن أجل هذا ترون أناساً يتركون زوجات لهم كالبدور ، ويتبعون نساء كالقردة ، مايستمتعون بالجمال وحده ، بل بالوصول بعد العناء والظفر بعد النضال ، وأنتم تعرفون قصة النوار مع زوجها الفاسق : الفرزدق الشاعر ، وقوله لها : أنت أجمل ولكنّ الحرام ألذّ من الحلال !

ويسخر النفسيون من رجل يتوسل الى المرأة التي يحبّها بالأرق والسهاد والضعف والنحول ، والهزال المميت ، والسلّ الرئوي ... وبأنه شبح يمشي وخيال يتحرك ، فماذا تصنع المحبوبة ، بهذا (البلاء ...) ؟

ان المرأة تريد في العاشق رجلاً ، متين البناء ، قوي الجسد ، مفتول العضل ، يسند ضعفهابقوّته ، ويتمّ أنوثتها برجولته ، لاتريد ميتاً (ان توكأت عليه انهدم) .

فان كان (شعراء النحول) هؤلاء ،صادقين بهذا الهذر الذي ملؤوا به نسيبهم ،وحشوا به اشعارهم ، فليفتشوا لهم عن (ممرّضات) ، لاعن(حبيبات) !

ولا يصدق النفسيون اوصاف الشعراء المحبين ، ان المحب عندهم لايرى الفتاة على حقيقتها ، ولكنه يلبسها من حبّه ثوباً يراها فيه أجمل الناس ولا يصدقون دعوى الحبّ من النظرة الاولى ، إن النظرة الأولى تنشيء (الحسّ

بالجمال)لا الحب ، وقدوصف (وليم جمس) هذا الحسّ بأنه هزّة في الاعصاب يعقبها خدر مريع ، فاذا أحسست جمال فتاة قد طلعت عليك من الطريق فصبرت عنها نفسك ، وغضضت بصرك ، وثبتّ لحظة واحدة حتى تمرّ بك وتمضي عنك ، واشتغلت عنها بغيرها ، نسيتها ، وان كررت النظر اليها[1] أو تبعتها لتعرف مقرّها ، ولد حبّك اياها أي رغبتك في (الاجتماع ...) بها !

والحب عاطفة عابرة ، تدوم مادامت الرغبة والامتناع ، فإن زال احداهما زالت ، فإن كان (اللقاء) لم يبق حب ، لأنه يختنق تحت اللحاف ، ومن هنا يستبين لك أن الزواج إن بني على الحب وحده ، لم يكن فيه خير ولو أن المجنون تزوج ليلى ، زواج عاطفة فقط بلا مراعاة مصلحة ، ولا نظر في كفاءة ، لكان بينهما بعد ثلاث سنين (دعوى تفريق) !

* * *

فاذا جئت علماء الحياة ، وجدت للحب عندهم ، منزلة أدنى ، ورتبة أخسّ ، الحب عندهم غريزة جعلها الله في نفس الانسان لئلا ينقرض ويمّحي فالجوع منبّه له ليأكل فيبقى شخصه ، والحب (أو الرغبة ...) منبّه له ليعمل على مايبقي نوعه ، أو هو شيء (أبسط[2]) من ذلك وأحقر ؛ تمتلىء المثانة فيذهب المرء ليبول ، وتمتلىء الحويصلة بالسائل الآخر ، فيذهب لـ(يعمل) ! لا فرق في ذلك بين المجنون وليلى ، وبول وفرجيني ، وبين الحمار

---

(١) وفي الحديث: لك النظرة الاولى، أي التي تلقيها عرضاً بلا تعمد ولا قصد ،وعليك الثانية أي المتعمدة المقصودة .

(٢) البسيط في اللغة الواسع وقد اضطررت لاستعمال الكلمة بالمعنى العامي .

والأتان ، والديك والدجاجة ، وبين تلاقح الزهر والورد ، وسواء بعد ذلك كل (إناء ...) يلقى فيه هذا الماء !

(عملية) غير جراحية ، ولكنها عملية قذرة بشعة ، ولا بدّ في (العمليات من (بنج) ، والبنج هنا ، البنج الذي يذهب الحسّ ، ويضيع العقل ، هو هذا (الحب) أو هذه (الرغبة) ، لولا ذلك ماقبل عاقل أن يعمل ذلك العمل ! هل يقبل عاقل أن يدخل اصبعه في أنف المحبوبة ؟! إن ذلك الفعل ابشع وامنع ، ولكننا نفكّر فيه ونحن (تحت البنج) ! فلا ندرك بشاعته .

والمقصود هو بقاء النسل ، وكلما علا الحيّ منزلة ، قل اللقاء ، وطال الحمل الديك والدجاجة يجتمعان كل يوم ، لأن مدة الحمل بالبيضة ليلة ، اما الهرّ والهرّة فيجتمعان مرة في السنة أو مرتين ، لأن الهرّة تلد مرة في السنة أو مرتين ، ولولا المغريات في الناس ، لكفى بين نوعي البشر اجتماع مرة في العام .

والحبّ العذري ، أي الحب الشريف الذي ليس فيه مطلب جنسي هو في نظر العلم كذبة حمراء ، وفرية ليس لها أصل ، وإنما هما غريزتان ، حفظ الذات بالطعام ، وحفظ الجنس بالاتصال ، فهل تصدق الجائع اذا حلف لك ، انه لايريد من المائدة الملوكية[1] الا أن ينظر اليها ، ويشمّ على البعد ريحها ؟!

كلا . كل حبّ مصيره الى النكاح او السفاح .

* * *

هذا هو الحب ، فصدق مايقوله فيه المحبّون ، أو صدق مايقوله المفكرون العالمون .

---

(١) القياس ملكي ولكن البلغاء قالوا (ملوكي) كما قالوا رسائل اخوانية وغيرها ، والجمع اذا اجرى مجرى العلم جازت النسبة اليه كما قالوا عالم اصولي ورجل شعوبي

هو عند الأدباء والشعراء ، وعند المحبين والعشاق ، سلطان عنت له القلوب ، وذلّت له الملوك ، فباعوا في سبيله التيجان ، من لدن انطونيوس وكليوباتره ، الى ادوار وسمبسون .

والمحبوبة عندهم هي الدنيا ، دينهم التوحيد في الحب ، لكل شاعر عاشق (واحدة) وقف عليها قلبه ، وأدار عليها شعره ، وقرن نفسه حياته[1] بها ، فقرن التاريخ اسمه بعد موته باسمها ، فلا تعرف الا به ولا يعرف الا بها قيس وليلى ، وقيس ولبنى ، وجميل وبثينة ، وكثير وعزة ، وعروة وعفراء وذو الرمة ومي ، وتوبة والاخيلية ، والعباس وفوز ، وبول وفرجيني ، فكان رباطاً لم تقدر على حله يد الزمان .

وهو عند النفسيين والطبيعيين ، ما قد رأيت وسمعت ، وهو الحق لا ما يقول العاشقون . والحب بعد ذلك كله سر الحياة ، وروح الوجود .

---

(١) أي مدة حياته .

للتسلية والأحماض ★

ديوان الأصمعي

كان (ديوان الأصمعي) مفقوداً ، حتى وجد صديقنا الاستاذ سعيد رمضـان هذه النسخة المفردة منه في مكتبة جامعة برنستون فأهداها إلي ، وأنا أنقل عنها اليوم هذه الصفحة من باب (الكنى والألقاب) .

قال الأصمعي : سألت أبا عمرو بن العلاء ، لم سمّي أحمد بالشوقي ؟ قال : لقد سألت عن هذا جدي أبا العلاء (يعني المعرّي ، قلت : وهو غير أبي علي المصري) فقال : سمّي بذلك لانه أكثر في شعره من ذكر الشوق ، قلت : فلم لقب ابراهيم بالحافـظ ؟ قال : لكثرة حفظه الحديث ؟

قال الجاحظ : وأبو عمرو هو زوج أم عمرو التي قال فيها الشاعر :

إذا ذهب الحمار بأم عمرو ... فلا رجعت ولا رجع الحمار

وسبب هجائه إياها ، أنها منعت عنه الكأس ، حيث يقول :

صددت الكأس عنا أم عمرو ... وكان الكأس مجراها اليمينا

★ روى ابن اسحق ان ابن عباس كان إذا جلس مع أصحابه حدثهم ساعة في القرآن والتفسير والحديث ثم يقول « حمضونا » فيأخذ في حديث العرب ثم يعود .

وروي عن ابي الدرداء قوله : اني لأستجم ببعض اللهو ليكون لي عوناً على الحق .

وما شرُّ الثلاثة ام عمرو بصاحبك الذي لا تصبحينا

والثلاثة هم شوقي وحافظ والمطران ، والمطران هو الذي (ذهب بأم عمرو) ، وسبب تلقيبه بالحمار أنه كان مع صاحبيه كالحمار مع الجوادين ، يحاول أن يجري معهما ، وما هو من جنسهما .

قال الأصمعي ، وحدثنا ابن قتيبة وطه بن الحصيني [1] ، عن أحمد الاسكندري انه انما لقب أحمد بالشوقي لأنه سمّى ديوانه (الشوقيات) .

قال : وحدثني ابراهيم المازني ، عن جده أبي عثمان المازني ، انه قال ؛ لقيت من الحفاظ من لا احصى فما وجدت مثل الحافظ ابراهيم . قلت : فما بلغ من حفظه ؟ قال : انه كان يحفظ أسماء أيام الأسبوع ، وشهور السنة ، ويعد الخلفاء الراشدين لا يغيب عن ذهنه أحد منهم .

قال ابراهيم بن عبد القادر المازني : فعجبت من ذلك ، ورويته في كتابي (قبض الريح في أخبار رواة الصحيح) .

قال : والمازني لم يكن من بني مازن ، ولكنهم أدعوه وسبب ذلك انهم سمعوا قصيدته المشهورة :

لو كنت من مازن لم تستبح إبلي بنو اللقيطة من ذهل بن شيبانا

فأعجبتهم ، فردّوا عليه إبله ، وأكرهوا بني اللقيطة على تقبيل يده ، وسؤاله الدعاء .

قلت : وزعم أبو عبيدة أن اللقيطة أمهم ، والصحيح أن (اللقيطة) قصة مطبوعة في مصر .

قال الأصمعي : ووقفت في الموصل على حلقة محمد بن الصواف ، وهو يملي (باب الكنى والألقاب) من كتابه ، وكان مما أملاه : وبنو الأصفر الروم ، والمصفّرة طائفة من الخوارج ، والحمراء مضر ، فسأله رجل

(١) الحصيني في لغة أهل الشام الثعلب

من عرض الحلقة : وبنو الأسود في حلب ، لمن ينسبون ؟

قال الشيخ : للأسود بن أبي الأسود الدؤلي ، الذي وضع النحو .

قال : فالأزرق ؟ قال لعلاثة بن الأحوط وهو أبو الأزارقة .

قال الأصمعي : وحدثنا السمعاني ، وكان عالماً بالأنساب ، أنه لما أوقع الحجاج بالأزارقة ذهب أخوان منهم ، الأزرق والزرقاء ، فسكنا حلب ، وأبوهما علاثة ، من بني فارع بطن من تميم .

وحدثني ابن هشام وكان أنحى اهل زمانه ، قال : أخبرني ابن جني ، أن الزرقاء من أسماء الرجال ، وعلامة التأنيث فيه للاكتفاء .

قلت : وما الاكتفاء : قال : كانت امرأة علاثة تشتهي أن تلد بنتاً فلما ولدت فحلاً ، سمته الزرقاء ، اكتفاء بعلامة التأنيث عن الأنثى .

قال ابن هشام : وهذه فائدة جليلة تكتب بماء الذهب .

وحدثني عبد القادر المغربي ، وهو رجل عالم من أهل أطرابلس الشام ، وإنما سمي المَغربي لكثرة غرائبه وفوائده ، ثم قيل المغربي بفتح الميم تخفيفاً ، فظن من لا علم له ، أنه من المغرب ، وليس كذلك .

قال : وللزرقاء عقب في حلب ، منهم المحدث مصطفى الزرقاء ، وكان يلي الحديث في جامع حلب ، ثم اتصل بالسلطان ، وثقه الذهبي ، وقال يحيى ابن سعيد القطان : انه ثقة ، ولكنه أضاع نفسه بدخوله النيابات ، وسَرْقه السيارات .

قال الأصمعي : وهو غير عبد الوهاب (وقيل عبدُ الواهب) بن الأزرق ، الذي كان يتولى جباية المكوس للملك أوديب (قلت : بل الملك أديب أي الشُشكلي) ، وهو الذي مدحه رؤبة بن العجاج بقوله :

حيّ الفتى عبد الوهّاب الأزرقا

وهو مدير المكس أعني (القمرقا)
صيّر باب الرشوات مغلقـــا
وأصلح الأمور حتى فورقـــا

قال المبرّد في تفسيره : القمرك المكس ، معربة عن الهندية ، وفورق لايحتاج الى تفسير لأنه غامض ، والتفسير إنما يكون للواضحات البيّنات .

قال الأصمعي ، وحدثني العزّ بن شيخ السروجيـة ، قال : أخبرني أبو زيد السروجي (قلت ، وهذا من روايات الأكابر عن الأصاغر ، لأنه شيخ السروجية وأبو زيد سروجي من مريديه) قال :

لقد وهم المغربي ، والصحيح أن (الزرقاء) (والأزرق) بلدان في البلقاء في شرقيّ الأردن وليسا رجلين ، كما خيّل اليـــه ، والمغربي يتخيل أشياء لا وجود لها ، ويكتب عنها ، من ذلك المجمع العلمي العربي ، توهمه قائماً وهو لم يوجد ، ولو كان موجوداً لكان له آثار ولنفع البلد بشيء .

وهذا الرجز منحول لرؤبة ، صنعه رجل من أهالي الشام يقـال له أنور العطار ، وكان مولعاً بصنع الأشعار

قال الأصمعي : ولقب بالحكيم جماعة منهم ، توفيق الحكيم ، وحكيم باشي قصر العيني في القاهرة ، وهي إحدى مدن اليمن .

حدثني محمود بن محمد بن شاكر وهو محدث أصـله من نينوى . قال : ان الذي أسقط القفطي وأهمل ذكره هو حمار الحكيم

قلت : وما خبر ذلك ؟

قال : انه لما ألـّف كتابه (أخبار الحكماء) أهداه الى أمير نينوى ، وزعم له انه لم يدع حكيما لم يذكره فيه ، وكان في مجلسه رجل ماكر ،

يحمد القفطي يقال له الفريد بن أبي الحديد (قلت : وقد شرح نهج البلاغة الذي ألفه الشريف الرضي) فقال له :

- تقول انك لم تدع حكيما إلا ذكرته فأين حمار الحكيم ؟

فبهت ، وغضب الأمير ، وضربه عشرين سوطاً ، ونهى الناس عن قراءة كتبه

قال الأصمعي : وكان حمار هذا من كبار الحكماء ، ولكن أهل مصر اطرحوه انتصاراً منهم للقفطي ، فلم يذكره إلا رجل من ابناء عمومته يقال له توفيق الحكيم

قال النووي : وتوفيق الحكيم وضاع لا يقبل له حديث ، ذهب الى قرى مصر نائباً في الأرياف ، فأهمل عمله ، وخان أمانته ، وصار يفكر في الرقص والغناء ، وهو على كرسي النيابة في المحكمة والقاضي ينتظر مطالعته ، والظنين يرقب ما تنفرج عنه شفتاه ، فلما أفاق ، زعم أن نومه معجزة ، وأنه كان مع (أهل الكهف) !

قلت : وكان يكتب في القهوات وعلى أرصفة الشوارع ، ويزعم في (الرسالة) انه يكتب (من البرج العاجي) .

قال : ولقب طه بن الحصيني بطَقْطُر ، بفتح الطاء وسكون القاف وضم الطاء الثانية ، واختلف في تفسيره على ثلاثة أوجه :

الأول : أنه لفظ اعجمي ، معرب (دكتُر) والدكتر بلسان الروم الطبيب ، قال منير العجلاني الدمشقي ، في كتابه (الأمثال السائرة في طبقات الدكاترة) :

وهذا أصح الأقوال ، والجمع دكاترة ، قاسوه على جهبذ وجهابذة قياساً على التوهم .

قال شارحه احمد السمان : وقياس التوهم ، أن يكون على اختلاف الوزن الصرفي ، وذلك لأن جهبذ فِعْلِل ، كدعبل ، ودكتر فُعْلُل

كدُعْبُب ، وربما اشبعوا الضمـــة فقالوا : دكتور ، كما قالوا : أصبوع في أصْبُع ، ويبرود في يبرد ، قال الشاعر (قلت : وهو عبد القادر بن المبارك) :

يبرود يبرد صيفـــاً من اقام بها   لذاك قيل مع الاشباع (يبرود)

الثاني : أنه عند الروم بمعنى الحاج عند المسلمين وذلك أن كل من حج الى دير يقال له الصربون في مدينة البريز ، على نهر السين وقيـــل نهر الشين ، وجلس الى رهبان فيه سمي طقطر ، وهو لقب تشريف .

واكبر رهبان ذلك الدير المص صنيون[1] ، على وزن صهيون وملعون . قال الزكي بن المبارك : وأصل المص المُضّي ، حذفت ياؤه على شبه الترخيم والمضي والمصطر السيد[2] ، ومن الروم قوم يقال لهم بنو ألـمان ، يدعون السيد القط .

قال النشاشيبي : وهو وهم من ابن المبارك والسيد عنـد الألمان (الهر) وعند الطليان السنور[3] .

قلت : والقط والهر والسنّور واحد ، ولا وجه لما قاله النشاشيبي .

الثالث : أن الطقطر من يأخذ من بيت مال المسلمين ، ثمن ظهره ونفقته ويرحل الى بـلاد الافرنـج ، فيلهو ويلعب ، ثم اذا حان معاده الى بلده ، استكتب أحـــد العلوج كتاباً بلسان القوم هناك ، ثم وضـع اسمه في ذنبه وأخذ به اجازة مشايخ الافرنج بالتدريس والاقراء ، وشهادتهم له بأنه عالم علامة مدرك فهامة ! وربما اشترطوا أن يأتي معه بزوجة افرنجية ، من أجيرات المعامل أو بياعات التذاكر !

قال سعيد بن جمال الدين الأفغاني : وهذا هو القول الصحيح ، وبه قال

---

(١) ماسينيون   (٢) المسيو والمستر   (٣) السنيور والهر .

شيخنا الصوفي الصالح أبو قيس عز الدين بن علم الدين التنوخي قدس سره ، تحقق له من باب الكشف .

قال جعفر الحسني : وقد ثبت عند أهل الآثار ، أن قبر السروجي ببطاح الجمل ، في (شاغور دمشق) هو لشيخ السروجية هذا .

قال الاصمعي : وهذا غلط ، لأن شيخ السروجية حي يرزق ، وهو اليوم أمير بلاس ، من اعمال دمشق ، يقصده فيها الشعراء وأرباب الحاجات فيعودون بالهبات الوفيرة من (جرز) البقدونس ، و (حزم) البصل ، مداالله في عمره ، وزاد في ملكه .

وربما وصف الواحد بصفة الجماعة ، فقالوا : (الدكاترة زكي مبارك) .

حدثنا أبو هاشم محمد بن المبارك ، عن أبيه ، عن جده ، قال حدثني عمي عبد الله بن المبارك ، أن هرون الرشيد سأله لما دخل عليه : هل تعرف الزكي المبارك ؟

قال : هو من قبيلتنا . وكره أن يزيد على ذلك .

قال أبو هاشم : ولعله نزّه نفسه عن الغيبة .

قلت : بل خشي لسانه ، وكان هجاء ، وابنه (ابن الزكي) كان قاضي دمشق على عهد صلاح الدين الأيوبي .

قال الزيات : وأنا أعرفه ، وقد رويت عنه في الرسالة .

قال الأصمعي : والزيات صاحب الرسالة ، مختلف في اسمه ، قيل احمد وقيل عبد الملك ، كان في أول أمره يبيع الزيت في أزقة (المنصورة) ، ثم رحل الى بغداد ليؤدب بعض أولاد الملوك ، وبها نشأ ابنه (ابن الزيات) ، وعلا نجمه ، حتى ولي الوزارة للمعتصم والواثق ، فرحل أبوه الى مصر ، وأعرض

عن الولايات والأعمال ، وهجر (الرسالة) ، واعتكف في (تكية الدراويش) التي يقال لها ، المجمع اللغوي .

حدثنا أبو عبيدة ، قال : أخبرني ابن الاعرابي ، قراءة عليه من كتاب (أسواق الأدب) ، أن أسواق الأدب كانت ممتلئة بأرباب الصناعات من الأدباء والعلماء ، كالقطان واللباد والوراق والوشاء والشواء والعلاف والرفاء والدباغ والصباغ والعطار والصبان واللحام والقفال والبزاز والبزار والسمان والطحان والبيطار والصواف والعقاد والجوهري والاسطرلابي والصابوني والبستاني والحانوتي والسكري والحلواني والزجاجي والكتاني والحريري والبارودي والخضري والجندي والعسكري .

قال الأصمعي : حدثنا ابن قتيبة : أن السمان هو أزهر الذي وفد على المنصور ، وله نسل في الشام ، منهم أحمد ووجيه الدين ، وكانا يبيعان السمن في دكان لهما في دمشق ، عند باب القلعة ، مما يلي المهاجرين في الباب الشرقي ، ثم أقبلا على العلم ، أما وجيه فبرع في السيمياء والسحر ، حتى مدّ حبالاً من داره الى دور الناس ، علق فيها قوارير صغاراً من الزجاج ، فإذا كان الليل ، نفث فيها من سحره ، فتوقدت القوارير من غير نار فأضاءت ما حولها ، وزعم أن اسمها الكهرباء[1] ، وصنع مراكب تمشي على دواليب وربطها بهذه الحبال فسارت من غير أن يجرها انسان او حيوان ، وقال انها (الترام) .

قال الأصمعي : وما رويت هذا الخبر الا تملحاً ، فلا تغتر به ، فان ذلك من المحال الذي لا يكون أبداً .

وأما أحمد فبرع في العلم ، حتى ولاه السلطان مشيخة المدرسة الكبرى التي تدعى الجامعة ، خلفاً لقسطنطين بن زريق ، صاحب القصيدة التي يقول فيها:

---

(١) هو صديقنا الاستاذ وجيه السمان العالم الأديب مدير مؤسسة الكهرباء

أستودع الله في بغداد لي قمراً ... بالكرخ من فلك الأزرار مطلعه
ودعته وبودي لو يودعني ... صفو الحياة وأني لا أودعه

قال أنور العطار : وقد سألت عن خبر هذه القصيدة لما زرت الكرخ فعلمت ان هذا (القمر) هو الصافي النجفي ، وكان قد لقيه ففتنه جماله من اول نظرة .

قال الأصمعي : وهذا يدفع مقالة من ينكر العشق من النظرة الأولى.

والعطار هذا ، شاعر بارع وصاف ، وكان يتجر بالعطر يأتي به من تلفيتا في جبل سنير ، ويبيعه في داريا ، وكان راوية يحفظ ما لا يحصى من القصائد ، ولا يحفظ حسبة أربع في أربع ، فكان الناس يحتالون عليه ، فترك تجارة العطر ، ورحل الى الموصل ، فاشتغل فيها بصناعة الشعر ، وألف كتابه (ظلال الأيام) وهو أجمع كتاب لفقه الامامية

وأما ابن البيطار ، فهو أعلم الناس بالنبات ، وله فيه الكتاب المعروف بالمفردات ، وكان أبوه بيطاراً في الميدان بدمشق ، وكان رجلاً صالحاً يبطر خيول المجاهدين حسبة بالمجان .

قال ابن الانباري : والبطر الشق ، ومنه البيطر والبيطار .

ثم عكف على العلم حتى صار يشار اليه بالبنان ، ولقب بـ (بهجة الشام) وكان محاضراً نظاراً بليغاً وكانت له حلقة في (جامعة دمشق) يقرىء فيها .

والبارودي منسوب الى البارود ، قال جالينوس : وهو تراب أسود يؤتي به من جزيرة في بحر الظلمات ، فإذا مسته النار كان له دويٌ كأنه صوت الرعد ، وهو يوضع في قناة الرمح ، فينطلق من أعلاها ناراً محرقة ويقال لها البندقية .

قال الجاحظ في كتاب الحيوان : وهذا من أكاذيب الأولين ، ولا يقول

به الا من أخزاه الله وسلبه نعمة العقل ، ولو كانت هذه القناة تقــذف ناراً لأحرقتها هــذه النار ، وما البندقية الا اللوزينج بلب البندق وقد أكلتها غير مرة .

قال عمر الحكيم : وهذا كله باطل ، والبندقية مدينة في بلاد الصين ، كثيرة المطر دروبها مغمورة أبداً بالماء ، فمن أراد أن يعبر غاص في الماء الى ركبتيه وفيها رجل يقال له جندل بفتح الجيم وضم الدال ، يحمل الناس على عاتقه لئلا يمسهم الماء ، قرأنا ذلك في كتاب الجغرافية للنظيم الموصلي .

قال أحمد بن أمين : وكان جندل هذا ممدحاً ، ولمحمد بن عبدالوهاب المغني المخنث قصيدة في مدحه غاية في الغثاثة والثقل ، يصفه فيها بأنه (ذهبي الشعر حلو اللفتات) .

قال الاصمعي : والصحيح أن البارودي منسوب الى بلدة يقال لها : بارودة، نبغ من أهلها جماعة منهم فخر الدولة ، وسروال الملة ، ومنهم محمود بن سامي البارودي ، ومصطفى البارودي .

وكان فخر الدولة ، وربما اختصر فقيل له : الفخري والسراويلي زعيم الجربا ، وهي بلدة في غوطة دمشق ، على يمين السالك الى بحر (لوط) ثم انتخب لنيابة السلطنة في دمشق ، فقال فيه ابن منير الطرابلسي ، وكان خبيث اللسان ، أرجوزة مطلعها : دمشق قد فاز الزعيم (فخري) !

قال أبو الفرج : وكان الفخري البارودي ، بصيراً بالموسيقى ، وله أصوات فيها صنعة حسنة، اتصل بيحيى بن أكثم ، (قاضي قضاة المسلمين)، الذي قال فيه الشاعر : (متى تصلح الدنيا ويصلح أهلها) ، فأقطعه الجربا ، ولما أغار الأفرنج على الشام ، يقدمهم غورو الأعور ، باعها وأنفق ثمنها في الجهاد ، وكان كريماً .

وحدثني من أثق به أن الخياط كان يخيط ثياب الجند ،ويعيش من ذلك ثم ادعى الولاية ، وأظهر الكرامات ، من ذلك انه ينظر الى قدح الماء العذب الزلال ، فيرى فيه آلافاً من العقارب الصغيرة ذوات الأيـــدي والأرجل والخراطيم ، وقال إن اسمها الجرائيم ، وإنها على صغرها تقتل الفيــــل ، وجاء بأنبوبة مسحورة ، فمن نظر منها خيل اليه أنه يرى ذلك ، فأنكر عليه العلماء ، وصدّقه جماعة من الأحداث ،وتبعوه وعظموه أشد التعظيم ، ولقبوه (العليم) .

قال ابن الأثير في حوادث تلك السنة : ثم رفع أمره الى السلطان ، فلما ثبت ذلك عليه ، أخرجـــه من دمشق ، فابتنى لنفسه صومعة في رأس جبل قاسيون ،وبقي فيهاحتى نبغ ولده (ابن الخياط) هيثم المشهور ، فـ(الانتصر) [1] له فأعادوه وولوه الاقراء في المدرسة الجامعة .

قال ووجدت في كتاب (صناعات الاشراف) للزكي المحاسني الشاعر :

ان الخضري المؤرخ الأصولي ، كان يبيع الخضر على باب الجامع الازهر في مصر ، تورعاً وتنزهاً عن أموال السلاطين ، والماوردي كان يصنع ماء الورد ويبيعه ، والخبز ارزي ، كان يعمل الأرز ملفوفاً برقاق الخبز ، ويبيع الواحدة بدرهم ، وان الخصاف ، كان يخصف نعال الحجاج في منى ، والقفال كان يصنع اقفال الصناديق الحديدية للمصارف ، وأن حسن البناء ، كان يبني البيوت ، ثم تركها وأقبل على بناء النفوس .

(١) الانتصار كتاب معروف لابن الخياط

تصويبات

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٧	٥	أمرة	امره
١٢	٨	كان	كانا
١٨	٢	يتلبد	يتبلد
٢٤	٢١	بنظره	بنظرة
٢٨	٢	المتشحه	المتشحة
٢٨	١٢	بردي	بردى
٣١	٤	وإنه	وأنه
٣٢	١٤	وبشرف	ويسرق
٤٢	١١	ولا فكرة	ولا فكره
٦٠	١٣	فأسكتتهن	فأسكتهن
٦٦	٨	ثم أني	ثم إني
٦٩	٨	يتذمرون من وبعدها	ويتذمرون من بعدها
٧١	١	يؤدينا	يؤذينا
٧٢	١٩	فقلت	قلت
٧٢	٢٠	يغير	بغار
٧٥	٤	ءي	أي
٧٧	١٥	جبته	من جبنه
٧٨	١	يكرر	يكركر
٧٨	١٠	صفحاً	صحفا
٨٥	١١	الشيح	الشيخ
٨٥	١٣	لبسلـُوا	لبسلـُوا
٨٦	١	بكلامي نا ،الا ببيانه	بكلامي أنا ، لا ببيانه
٨٨	١	وهذا (سلم العار) ؟	(وسلم العار) هذا ؟

الصفحة	السطر	الخطــأ	الصواب
٩٣	٦	حبة	حبه
٩٤	١٦	تتيه	تتيه
٩٥	١٥	بنيها	بينها
٩٥	١٨	والتهبت	والتهب
٩٦	٢	أدرك	أدر كك
١٠٤	١١	الأرض على	على الأرض
١٠٦	١	وآخر	وآخره
١٠٩	٩	كانت تدير	كان يمكن أن تدير
١٠٩	١٥	فضارع	فضاع
١١١	٧	يبجث	يبحث
١١٧	١٠	يبري	يبرى
١٢٠	١٦	١٣٢٩	١٩٢٩
١٢٧	١٣	ومن	من
١٣٢	٥	ارها	أراها
١٣٦	١٦	ست	خمس
١٣٦	١٧	٤٧	٤٨
١٣٦	١٧	٣٣	٥١
١٤٢	١٠	هذا أن	هذا الدليل على أن
١٤٥	٢	أدري	أرى
١٥٠	١٠	كأنها	كأنما
١٥٢	١	أتقرؤون كتب	أتقرؤون كتبا
١٥٧	١٢	فقدنا الزوج فقدنا	فقدنا الزوج ففقدنا
١٦٤	٨	وما	ما
١٦٧	٤	كلمة	كله
١٦٩	٨	نعما	نعما
١٧٠	٥	ويتبدعون	ويبتدعون
١٧٤	١٥	الاولاد	والأولاد

الصفحة	السطر	الخطـــأ	الصواب
١٧٦	١٠	فتستطع	فتسطع
١٧٦	١٥	غمستوها	غمستموها
١٧٩	٣	الأعمال خلال	الأعمال
١٧٩	١٢	من صادق	من هو صادق
١٧٩	١٤	من صالح	من هو صالح
١٨٠	١١	وأصعب هضمه أو	أو صعب هضمه
١٨١	٨	فيه	في
١٨١	٩	ذي	ذو
١٨٨	٢	فحسبناه	فحسبنا
١٨٩	٢	هيبة	هيبة
١٩٠	٣	وينهي	وينهى
١٩٤	٢	واتلوا	وأتلو
١٩٦	١٥	ولكنْ	ولكن
١٩٨	٦	على	وعلى
١٩٨	٧	بعض هذه المداخل	هذه المداخل
٢٠٨	١١	مؤمنون	مؤمنين
٢٠٨	١٢	وقر هنا	هنا وقَر
٢٠٩	١٠	وأمامنا	وإمامنا
٢١٨	٣	معتوة	معتوه
٢١٨	٣	وأدب	وأب
٢١٨	٥	رواية	راويه
٢١٨	٦	بعشقة	بعشقه
٢١٨	١٤	اديبا	أديبا
٢١٩	٥	ألا	إلا
٢١٩	٨	يبينه	يبنيه
٢١٩	١٩	لتجميد	لتمجيد

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٢٢١	١٣	وإن عجزنا	إن عجزنا
٢٢٣	٦	وتأخذها	وتأخذوها
٢٢٣	١٩	نصفح	نصفع
٢٢٦	٢٣	لبث	لبثت
٢٢٩	٤	يحلفون لكم إنهم	يحلفوا لكم أنهم
٢٣٠	١٩	الذي	التي
٢٣٢	١٢	النفيسين	النفسيين
٢٣٢	١٧	لطلبو	لطلبوا
٢٣٣	٢١	ولما	لما
٢٣٨		للتبلية والأحماص	للتسلية والاحماض
٢٣٨	٨	صددت	صبنت
٢٤١	٢٨	اهمل ذكره	اخمل ذكره

الفهرس

هذا هو الكتاب الثالث من السلسلة الجديدة للمؤلف وفيها ثلاثة عشر كتاباً ، وما بقي معدّ كله للطبع ، وسيصدر عندما يهيء الله له الناشر ، وهو :

(١) مباحث اسلامية
(٢) في سبيل الاصلاح (مقالات اجتماعية)
(٣) مع الناس (قصص من الحياة)
(٤) أنا (ذكريات وتأملات)
(٥) هتاف المجد (مقالات وطنية)
(٦ مقالات في كلمات
(٧) في ربوع الشام
(٨) في بلاد العرب
(٩) صور من الشرق
(١٠) لمحات من السيرة

الثمن ٣٠٠ ق. س.